حياتك عسل

الدكتور مَدَيَن بن جمال الصالح

المجموعة الأولى

حياتك عسل

الدكتور: مدين بن جمال الصالح

المجموعة الأُولَى

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يَدَي العسل...

الحمد لله وكفى وصلى الله وسلم وبارك على النبي المُجْتَبى وعلى آله وأَصحابه النُّجَبَى ، وبعد :

ما أجمل القُرب مِن الرَّب تعالى ، وما أفضل الأُنس بالمَولى ، فالقلب يَحيى بِذِكْرَاه ، والرُّوح تَسْعَدُ بِلُقِياه ، فما طابت الأوقات ، ولا سَعِدَت الأَنْفُس ، إلا بالإيمان بالله ، الإيمان الذي يَغْسِل الرُّوح قَبْلَ الجسد ، ويُهَذِّب الأخلاقَ والقلبَ مِن النِّفاق ، الإيمان الذي يُنْبِت الرِّضى عن الله تعالى ، ويُزْهِرُ السعادة في النَّفْس ، ويُقَوِّي الشخصية ، ويُحَفِّز الهِمّة إلى معالي الأُمور ، لتحصيل عظيم الأُجُور ، ونيل الحُبُور[1] .

" فالتوحيد مَلْجَأُ الطالبين، ومَفْزَعُ الهاربين، ونَجاة المَكْرُوبين، وغَياث المَلْهُوفين، وحقيقته إفراد الرب سبحانه بالمحبة والإجلال التعظيم، والذل والخضوع "[2]

كيف لا يكون كذلك ، و" التوحيدُ هو رأسُ الدِّينِ وأصْلُهُ "[3]

وبالتوحيد يَخْرُج مِن القلب الصَّديد ، والتوحيد على الباطل عنيد ، وبه يُصْبِح المرء ذا عقلٍ رَشيد ، ويِمْتَلِكُ ذَكاءً وخُلُقاً فَريد ، وعِزَّةً أَقوى مِن الحديد ، وهِمَّةً تُحَطِّم الصخر العنيد ، ويَلْقَى مِن الله كل توفيقٍ وتَسْدِيد .

وما أجمل قول الصحابي الجليل أبو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه : «إِنَّ مِنْ فِقْهِ الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ مَا زَادَ مِنْ إِيمَانِهِ وَمَا نَقَصَ مِنْهُ، وَإِنَّ مِنْ فِقْهِ الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ

[1] السُّرُور ، ابن مَنْظور ، لسان العرب ، ٤/ ١٥٨ .
[2] ابن القيم ، إغاثة اللَّهفان مِن مَصايد الشيطان ، ٢/ ١٣٥ .
[3] ابن تيمية ، دَرْءُ تَعارُض العَقل والنَّقْل ، ٩ / ٣٧٨ .

أَمُزْدَادٌ هُوَ أَمْ مُنْتَقِصٌ، وَإِنَّ مِنْ فِقْهِ الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ أَنْ تَأْتِيَهَ»[٤]

فالسعيد مَن أَقَامَ التوحيد ، والتوحيد لا يكون إلا لله العزيز الحميد .

وأُحِبُّ أنْ نَمضِي سويَّاً ـ أيها الأخ الحبيب ـ في هذه الورقات الوَرْدِيَّة ، في رحلةٍ إيمانية ، لفوائد تَعَلُّم الإيمان والتوحيد والعقيدة ، مِن خلال أُمور مَعلومة مِن كتاب الله تعالى وسُنة نبيه ﷺ ، ومَشاهِدَ مَحسوسة في قصص تربوية إيمانية رائعة ، لِننالَ هذه الفوائد العظيمة ، والمَحاسن الكبيرة ، في الدنيا والآخرة ، لتكون حياتك فِعلاً لا قولاً ، وتجربة مُعاشَة في أوقاتك لا في سَمَاعِكَ فحسب ، ولتكون مع الله تعالى : حياتك عَسَل ... يا عَسَل

أخوكَ الدكتور : مَدْيَن بن جمال الصالح

للتواصل والنصيحة

٠٠٩٧٢٥٩٢٢٣٠٢٥٦/mdynjmal@gmail.com

[٤] الخَلَّال ، السُنَّة ، ٥/ ٤٩ .

سِرُّ حلاوة العسل في حياتك

" التوحيد هو سِرُّ القرآن ، ولُبُّ الإيمان "[٥]

" والقرآن يُخْبِرُ أَنَّ أَهْلَ السعادة هم أَهل التوحيد "[٦]

" فـ " لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " هِيَ قُطْبُ رَحَى الْإِيمَانِ وَإِلَيْهَا يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ. وَالْكُتُبُ الْمُنَزَّلَةُ: مَجْمُوعَةٌ فِي قَوْله تَعَالَى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} وَهِيَ مَعْنَى " لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ "[٧]

و" قَالَ الشَّيْخُ أَبُو مَدْيَنَ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَشْرَفُ الْعُلُومِ عِلْمُ التَّوْحِيدِ وَأَنْفَعُ الْعِلْمِ أَحْكَامُ الْعَبِيدِ"[٨]

فـ" اللَّذَّةُ وَالْفَرْحَةُ وَالسُّرُورُ وَطِيبُ الْوَقْتِ ، وَالنَّعِيمُ الَّذِي لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ إنَّمَا هُوَ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَوْحِيدِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ: وَانْفِتَاحِ الْحَقَائِقِ الْإِيمَانِيَّةِ وَالْمَعَارِفِ الْقُرْآنِيَّةِ كَمَا قَالَ بَعْضُ الشُّيُوخِ: لَقَدْ كُنْت فِي حَالٍ أَقُولُ فِيهَا: إنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي هَذِهِ الْحَالِ إنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ. وَقَالَ آخَرُ: لَتَمُرُّ عَلَى الْقَلْبِ أَوْقَاتٌ يَرْقُصُ فِيهَا طَرَبًا وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا نَعِيمٌ يُشْبِهُ نَعِيمَ الْآخِرَةِ إلَّا نَعِيمَ الْإِيمَانِ وَالْمَعْرِفَةِ "[٩]

التوحيد مَنَارُ الهُدى ، وعلامة التُّقَى ، وسَبيلُ العُلَى ، والمُحَفِّز للعِبَادة ، وطريق الرِّيَادَة ، وباب السَّعادة ، وهذه أبرز فوائد تَعَلُّم معنى كلمة الإخلاص والتوحيد " لا إله إلا

---

[٥] ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، ١/ ٣٦٨ .

[٦] مجموع الفتاوى ، ٩ / ٢٧ .

[٧] مجموع الفتاوى ، ١٤ / ٤٢١ .

[٨] مجموع الفتاوى ، ١٧ / ١٣٢ .ثم قال شيخ الإسلام رحمه الله :" فَلَيْسَ الْأَفْضَلُ الْأَشْرَفُ هُوَ الَّذِي يَنْفَعُ فِي وَقْتٍ بَلْ الْأَنْفَعُ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ الْعَبْدُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَهُوَ فِعْلُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَتَرْكُ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ "

[٩] مجموع الفتاوى ، ٢٨ / ٣١ .

الله " ، ومِن ثَمَّ العمل بها في الحياة ، في القلب واللسان والعمل .

١)تَحقيق العُبُودية لله تعالى

" العَبدُ إِنَّما خُلِقَ لِعبادةِ رَبِّه ، فصَلاحُه وكَمالُه ، ولَذتُهُ وفَرَحُه وسُرُورُه في أنْ يَعْبُدَ رَبَّه ويُنيبَ إليه "[١٠]

و" ليس في الدُّنيا مِن اللَّذَّات ، أعظمُ مِن لَذَّة العِلْمِ بالله وذِكْرِه وعِبادته ، ولِهذا كان النبي ﷺ يقول :" حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا: النِّسَاءُ، وَالطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ "[١١][١٢]

لا يتم تحقيق العبودية لله تعالى ، بأنْ يَصيرَ قلبُ العبدِ سَليماً

" وَلَا تَتِمُّ لَهُ سَلَامَتُهُ مُطْلَقًا حَتَّى يَسْلَمَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ: مِنْ شِرْكٍ يُنَاقِضُ التَّوْحِيدَ، وَبِدْعَةٍ تُخَالِفُ السُّنَّةَ، وَشَهْوَةٍ تُخَالِفُ الْأَمْرَ، وَغَفْلَةٍ تُنَاقِضُ الذِّكْرَ، وَهَوًى يُنَاقِضُ التَّجْرِيدَ وَالْإِخْلَاصَ.

وَهَذِهِ الْخَمْسَةُ حُجُبٌ عَنِ اللَّهِ "[١٣]

فالقلب السَّليم " الذى قد سَلِمَ مِن كلِّ شهوةٍ تُخالفُ أَمْرَ اللهِ ونَهيِهِ، ومِن كلِّ شُبْهَةٍ تُعارضُ خَبَرَهُ. فَسَلِمَ مِن عُبوديةِ ما سِواه، وسَلِمَ مِن تَحكيم غيرِ رسولِه. فَسَلِمَ فى محبةِ غيرِ اللهِ معهُ ، ومِن خَوفِه ورَجائِه والتوكلِ عليه، والإنابة إليه ـ الرجوع إلى الله بالتوبة ـ ، والذُّل له، وإِيْثار مَرْضاته فى كل حالٍ ، والبُعْد عن سَخَطِه بكلِّ طريقٍ. وهذا هو حقيقة العُبودية التى لا تَصْلُح إلا للهِ وحْدَهُ.

فالقلبُ السليم: هو الذى سَلِم مِن أنْ يكونَ لغيرِ اللهِ فيهِ شِرْكٌ بِوَجْهٍ ما، بل قد خَلُصَتْ عُبودِيته لله تعالى: إرادةً ومحبةً، وتوكلاً، وإنابةً، وإِخْباتاً ـ تواضعاً ـ ، وخَشيةً، ورجاءً.

---

[١٠] مجموع الفتاوى ، ١٤ / ٣١ .

[١١] أحمد ، المُسْنَد ، ١٩ / ٣٠٧ رقم ١٢٢٩٤ .

[١٢١٢] ابن تيمية ، الصَّفَدِيَّة ، ٢ / ٢٧٢ .

[١٣] ابن القيم ، الجواب الكافي لِمَن سأَلَ عن الدَّواء الشافي ، ص ١٢٢ .

وخَلُصَ عمله لله ، فإنْ أَحَبَّ أَحَبَّ فى الله، وإنْ أَبْغَضَ أَبْغَضَ فى الله، وإنْ أَعْطى أَعْطى لله، وإنْ مَنَعَ مَنَعَ للهِ ، ولا يَكْفيه هذا حتى يَسْلَمَ مِن الانقيادِ والتحكيمِ لكلَّ مَن عَدَا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فَيَعْقِدَ قلبَه معهُ عَقْدَاً مُحْكَمَاً على الائْتِمَام والاقْتدَاءِ به وحْدَه، دُونَ كُلِّ أَحَدٍ فى الأَقوالِ والأَعْمال مِن أقوال القلب، وهى العقائد، وأقوال اللسان؛ وهى الخَبَرُ عمَّا فى القلب. وأَعمالُ القلب، وهى الإرادةُ والمحبةُ والكَرَاهَة وتَوَابَعَها، وأعمال الجَوَارح. فيكون الحاكم عليه فى ذلكَ كُلِّه دِقِّهِ وجِلِّهِ هو ما جاءَ بهِ الرسولُ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فلا يَتَقَدَمُ بين يديهِ بعقيدةٍ ولا قَوْلٍ ولا عَمَلٍ، كما قال تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ} [الحجرات: ١] .

أىْ لا تَقُولُوا حتى يَقولَ، ولا تَفْعَلوا حتى يَأْمُرَ "[١٤]

" ليس لِلْخَلْقِ صلاحٌ إلا في معرفة رَبِّهم وعبادته "[١٥]

" والطَّاعةُ عاقَبتُها سَعادَةُ الدُّنيا والآخِرة ، وذَلِكَ مِمَّا يَفْرَحُ به العبدُ المُطيع "[١٦]

" وأَصْلُ الصلاح : التوحيدُ والإيْمان ، وأصل الفساد الشرك والكفر "[١٧]

" التوحيد أَصْلُ النّاس ، والإشْراك أَصْلُ فسادهم ، والقِسْطُ مَقْرونٌ بالتوحيد ، إذْ التوحيدُ أَصْلُ العدل والإرادة ، وإرادةُ العلو مقرونة بالفساد ، إذ هو أَصْلُ الظلم "[١٨]

---

[١٤] ابن القيم ، إغاثة اللهفان مِن مكايد الشيطان ، ١/ ٧ ـ ٨ .
[١٥] مجموع الفتاوى ، ٢/ ١٦ .
[١٦] مجموع الفتاوى ، ٨/ ٣٦ .
[١٧] مجموع الفتاوى ، ١٨ / ١٦٣ .
[١٨] مجموع الفتاوى ، ١٨ / ١٦٥ .

قال ذُو النُّونِ :" مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ وَجَدَ طَعْمَ الْعُبُودِيَّةِ وَلَذَّةَ الذِّكْرِ وَالطَّاعَةِ فَهُوَ مَعَ الْخَلْقِ بِبَدَنِهِ، وَقَدْ بَايَنَهُمْ بِالْهُمُومِ وَالْخَطَرَاتِ "[١٩]

" فالسعادةُ والكمالُ في معرفة رَبِّ العالَمين وعِبَادَته "[٢٠]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " وَالْخَلِيلَانِ هُمْ أَكْمَلُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ تَوْحِيدًا، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي الْأُمَّةِ مَنْ هُوَ أَكْمَلُ تَوْحِيدًا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَضْلًا عَنِ الرُّسُلِ، فَضْلًا عَنْ أُولِي الْعَزْمِ، فَضْلًا عَنِ الْخَلِيلَيْنِ، وَكَمَالُ هَذَا التَّوْحِيدِ هُوَ أَنْ لَا يَبْقَى فِي الْقَلْبِ شَيْءٌ لِغَيْرِ اللَّهِ أَصْلًا، بَلْ يَبْقَى الْعَبْدُ مُوَالِيًا لِرَبِّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، يُحِبُّ مَنْ أَحَبَّ وَمَا أَحَبَّ، وَيُبْغِضُ مَنْ أَبْغَضَ وَمَا أَبْغَضَ، وَيُوَالِي مَنْ يُوَالِي، وَيُعَادِي مَنْ يُعَادِي، وَيَأْمُرُ بِمَا يَأْمُرُ بِهِ، وَيَنْهَى عَمَّا نَهَى عَنْهُ "[٢١]

٢) بناء الإخلاص لله تعالى

[١٩] البيهقي ، شُعَبُ الإيمان ، ٢ / ٤٩ .
[٢٠] الصَّفَدِيَّة ، ٢ / ٢٩٥ ، بتصرفٍ يسير .
[٢١] مدارج السالكين في منازِل إيَّاكَ نعبدُ وإياك نستعين ، ٣/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠ .

الإخلاص : أن يَفعل العبد العمل الصالح لا يُريد إلا رَضى الله تعالى وحْدَهُ .

" الْإِخْلَاصُ اسْتِوَاءُ أَعْمَالِ الْعَبْدِ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ. وَالرِّيَاءُ: أَنْ يَكُونَ ظَاهِرَهُ خَيْرًا مِنْ بَاطِنِهِ. وَالصِّدْقُ فِي الْإِخْلَاصِ: أَنْ يَكُونَ بَاطِنُهُ أَعْمَرَ مِنْ ظَاهِرِهِ "[٢٢]

" وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ " سورة البيّنَة آية ٥

" قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي "

إنّ " حقيقةَ التوحيد انْجِذَاب الرُّوح إلى الله ، لأنّ إِخْلاصَهُ يَجْذِب قلبَه إلى الله ، فيتوب مِن الذُّنوبِ إليه ، فإذا ماتَ على هذه الحالِ دَخَلَ الجنة "[٢٣]

" قال أبو سُلَيْمان الدَّارَانِيّ: " إذا أَخْلَصَ العبدُ انْقَطعتْ عنه كَثْرَةُ الوساوسِ والرِّياء"[٢٤]

" العملُ بغيرِ إِخْلاصٍ ولا اقْتِدَاءٍ كالمُسافِر يَمْلأُ جِرَابَهُ ـ وِعَاءَهُ ـ رَمْلًا يَثْقُلُه ولا يَنْفَعُهُ "[٢٥]

" فالْعَبْدَ يَقْوَى إِخْلَاصُهُ لِلَّهِ، وَصِدْقُهُ وَمُعَامَلَتُهُ، حَتَّى لَا يُحِبَّ أَنْ يَطَّلِعَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ عَلَى حَالِهِ مَعَ اللَّهِ وَمَقَامِهِ مَعَهُ، فَهُوَ يُخْفِي أَحْوَالَهُ غَيْرَةً عَلَيْهَا مِنْ أَنْ تَشُوبَهَا شَائِبَةُ الْأَغْيَارِ، وَيُخْفِي أَنْفَاسَهُ خَوْفًا عَلَيْهَا مِنَ الْمُدَاخَلَةِ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ إِذَا غَلَبَهُ الْبُكَاءُ، وَعَجَزَ عَنْ دَفْعِهِ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مَا أَمَرَّ الزُّكَامَ! فَالصَّادِقُونَ يَعْمَلُونَ فِي كِتْمَانِ الْمَعَانِي، وَاجْتِنَابِ

[٢٢] مدارج السالكين في منازِل إيَّكَ نعبدُ وإياك نستعين ، ٢/ ٩١ .
[٢٣] ابن تيمية ، تفسير آيات أَشْكَلَت ، ١ / ٣٥٦ .
[٢٤] مدارج السالكين في منازِل إيَّكَ نعبدُ وإياك نستعين ، ٢/ ٩٢ .
[٢٥] ابن القيم ، الفوائد ، ص ٤٩ .

الدَّعَاوِي، فَظَوَاهِرُهُمْ ظَوَاهِرُ النَّاسِ، وَقُلُوبُهُمْ مَعَ الْحَقِّ تَعَالَى، لَا تَلْتَفِتُ عَنْهُ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً، فَهُمْ فِي وَادٍ، وَالنَّاسُ فِي وَادٍ "[٢٦]

وتأمل في هذه القصة الرائعة ، في بيان نتيجة الإخلاص حينما صَدَرَ مِن يهودي !!" رَأَى رَجُلٌ مِن الصَّالحين ، كان مُجَاوِراً بِمَكة أنه يُحْشَرُ مع فُلانٍ اليهودي - اليهودي مَعْرُوفٌ مِن خِدْمَةِ السُّلْطان مِن أَهْلِ مِصْر - فانْتَبَه الرَّجُلُ مَذْعُورَاً فَزِعَاً مِن رُؤْيَاهُ، وكَتَمَها ثم عادت الرُّؤْيا عليه ثانيةً وثالثةً ، فَطَارَ فُؤَادُه ـ قَلْبُهُ ـ وأَشْفَقَ على دِيْنِهِ[٢٧] وتَعَجَّل الانْصِرافَ ، فسافَر إلى مِصر، وبادَر إلى اليهودي ، فَوَجَدَ اليهودي مَسؤلاً عن بساتين السُّلْطان ، فوَجَدَ على بابه بَشَرَاً كَثيراً مِمَّن يُعَامِلُه مِن الناس ، وأَرَادَ الدخولَ فمَنَعَهُ البّوَّاب، وقال : اصْبِرْ قليلاً ، فَلَهُ عادةٌ حَسَنَةٌ أَنَّه إذا خَفَّ شُغْله يقولُ لي: أَدْخِلْ مَن له إلينا حاجة، فَسوفَ تَدْخُلُ سَهْلاً، فقال له الرجلُ صاحبُ الرُّؤَيا: نِعْمَ ما قُلْتَ، واصْطَبَر ساعةً إلى أنْ كان ما قالَه، فَدَخَلا إلى مَجْلِس اليهودي، وَوَقَفَ قائِماً على قَدَمِه لَمْ يُسَلِّم ولَمْ يَجْلِس ، وذَكَرَ له الرُّؤْيا.

ثم قال لليهودي : أنتَ يا هذا فلانٌ اليهودي؟ فقال: نَعَم ، فقال له: أخبرني بالله تعالى، وبما تَعْتَقِدُه مِن شِرْعَتِكَ ـ دِيْنِكَ ـ ، هل عَمِلْتَ عَمَلاً مِن الخيرِ قَطُّ ، أَرَدْتَ بِه وَجْهَ اللهِ رَبِّك خَالِصَاً لَمْ تُرِدْ بِه رِياءً ولا سُمْعَةً ، فقال له اليهودي: واللهِ إنّي لَكثيرُ الصَّدَقات مُوَاسٍ ـ مُسَاعِدٌ ـ للضعفاءِ مِن أَهْلِ مِلَّتِي وغيرِهم ، مُرَادِي بذلكَ ، أَنِّي أَطْلُبُ به السُّمْعَةَ والصِّيْتَ ، لِيُقالَ إِنِّي مُتَصَدِّقٌ ، ويُثْنَى عليَّ ، فاشْتَدَ ذلكَ على الرَّجُل الصَّالِح ، وقال في نَفْسِه: الآنَ عَظُمَتْ مُصِيْبَتِي، وحَبَطَ أَجْرِي، ثم رَاجَعَ اليَهودي ، فقال له : يا هذا فَكِّر في نَفْسِكَ، واصْدُقْنِي عَمَّا عنه أَسأَلُكَ ، إنْ كَنتَ عَمِلْتَ قَطُّ خَيْراً ، أَرَدْتَ

---

[٢٦] مدارج السالكين ، ٣ /٣٧٤ .

[٢٧٢٧] خاف مِن سُوءِ الخاتمة ، بأنْ يَمُوتَ على الكُفر .

بِه وجْهَ اللهِ خالِصَاً ، فإنّ عنْدي لكَ نَبَأٌ، فأَطْرَقَ اليَهودي مُفكِراً حِيْنَاً ، ثم قال: بلى واللهِ ، لقد تَذَكْرتُ شيئاً صَنَعْتُه للهِ وحدَه ، وذَلكَ أَني خَتَنْتُ مَوْلُوداً ولِدَ لي يومَ أُسْبُوعِه على سُنَتِنا، وكان ذلكَ في شَهْر صومِ المُسلمين ، فَصَنَعْتُ لِخِتَانِه صَنِيْعاً ، أَنْفَقْتُ عليه مالاً عظيماً، وأَعْدَدتُ طَعاماً وَاسِعاً كَثيراً طَيِّبَاً، وأَعْلَمَني الطباخُ بالفراغِ منهُ وقتَ المغربِ، فخَطرَ بِبَالي مكانَ بناتِ رَجُلٍ مِن المسلمين يَتَامى، كُنَّ بِقُرْبِي، وكان أَبُوهُنَّ مِن خِيارِ المسلمين، ماتَ عنهنَّ وتَرَكَهُنّ في فَقْرٍ شديد ، فقلتُ: واللهِ لا يأكلُ أَحَدٌ مِن هذا الطعامِ شيئاً حتى أُرْسِلَ مِنهُ إلى هؤلاء اليَتامى الفقيرات ، فاخْتَرْت لَهُنَّ مِن أَطْيَبِه، وأَنْظَفِ خُبْزِه ، وأَرْسَلْتُ به إليهنّ وكذلكَ أَطْعَمْتُ مَن حَضَرني، فهذا واللهِ شيءٌ قَصَدْتُ به ِوجْهَ اللهِ مُخْلِصاً وقد عَلِمَ مُرَي فيه.

فقال الرجلُ صاحب الرؤيا ـ وهو فَرِحٌ ـ : فَرَّجْتَ عنِّي يا هذا، وأَذْهَبْتَ ما بِنَفْسِي، وهكذا عَرَفْتُ اللهَ رَبِّي عَزَّ وَجْهُهُ، فقال له اليهودي: وما السببُ الذي وَصَلَكَ؟ إِصْدُقْنِي عنه كمَا صَدَقْتُكَ، فقال: نَعَمْ، وخَبَّرَه برؤياه ، أنّه كان يُحْشَرُ مَعَهُ ، وما دَخَلَ عليَّ مِن هَمِّها وأني أُحْشَر مع يَهودي كافرٍ بالمِلَّة الحَنِيْفِيّةِ.

قال: فلم يَكَدْ يَسْتَكْمِلُ المُسْلمُ كلامَهُ ، حتى فَرِحَ وسُرَّ وَجْهُ اليَهودي ، للذي نَزَلَ عليه مِن الرَّحْمَة وقال: وأنا أَشْهَدُ أنْ لا إله إلا الله وحدَهُ لا شَرِيْكَ لهُ، وأنّ محمداً عبدُ اللهِ ورسوله إلى جميعِ خَلْقِه ، ونبيه الخاتم لأَنْبيائه، ولا أُفَرِّقُ بين أَحَدٍ مِن رُسُلِه، وأَخْلَعُ ـ اتْرُكُ ـ الأَديان، وأَدْخُلُ دِيْنَه الحق، فخُذْني على الإسلام وأَعْلِمْني الدخولَ فيه رَحِمَكَ اللهُ.

قال: فَفَعلَ الرجُلُ الصالحُ ذلكَ ، وصَحَّ إِسْلامُ هذا الإِسْرائِيلي وإخلاصه، وتَرَكَ العمل عند السلطان، وتَبَرَّع بِماله ، ونَبَذَ ـ تَرَكَ ـ ما اكْتَسَبَه مِن سُحْتِه ـ الحرام ـ ، وصار مع هذا

الصالح إلى مكةَ يُعَلِّمْه ويُفَقِّهُه في الدِّين، فبَقِيَ معه مُجَاوِراً إلى أنْ ماتَ ، بعد أعوامٍ مَدِيدَة ـ طويلة ـ ، فمَضَى إلى ربِّه سعيداً فائِزاً ، ولله الحمد"[٢٨]

فـ"الإخلاصُ أصْلُ كلِّ خيرٍ "[٢٩]

وقد " قيل: إذا فَسَدتْ النيّةُ وقَعَتْ البَلِيَّة "[٣٠]

" فالْعِلْمُ النَّافِعُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَالصَّلَاةُ الْحَسَنَةُ، وَصِدْقُ الْحَدِيثِ، وَإِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ: تُورِثُ الْقَلْبَ صِفَاتٍ مَحْمُودَةً.

كَمَا يُرْوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ لِلْحَسَنَةِ لَنُورًا فِي الْقَلْبِ، وَضِيَاءً فِي الْوَجْهِ، وَسِعَةً فِي الرِّزْقِ، وَقُوَّةً فِي الْبَدَنِ، وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ. وَإِنَّ لِلسَّيِّئَةِ لَسَوَادًا فِي الْوَجْهِ، وَظُلْمَةً فِي الْقَلْبِ، وَوَهَنًا فِي الْبَدَنِ، وَنَقْصًا فِي الرِّزْقِ، وَبُغْضًا فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ "[٣١]

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :" فَمَنْ خَلُصَتْ نِيَّتُهُ فِي الْحَقِّ ، وَلَوْ كَانَ عَلَى نَفْسِهِ كَفَاهُ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ تَزَيَّنَ لَهُمْ بِمَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ شَانَهُ اللهُ ، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعِبَادَةِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا ، وَمَا ظَنُّكَ بِثَوَابِ غَيْرِ اللهِ فِي عَاجِلِ رِزْقِهِ ، وَخَزَائِنِ رَحْمَتِهِ؟ "[٣٢]

---

[٢٨] بُغْيَة المُلْتَمِس في تاريخ رجال أَهْل الأندلس ، ص ٨٦ ـ ٨٧ بتصرف .

[٢٩] ابن تيمية ، جامع المسائل ، ٦ / ١٣٤ .

[٣٠] الرَّاغِب الأَصْفَهاني ، التفسير ، ٣ / ١٢٢٨ .

[٣١] منهاج السنة النبوية ، ٣ / ٢٧ .

[٣٢] البيهقي ، السُّنن الكُبرى ، ١٠ / ٢٥٢ رقم ٢٠٥٣٧ .

٣) بِنَاءُ التَّوَكُلِ على اللهِ تعالى

" وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً " سورة الفرقان آية ٥٨

" التوكل هو فَرَاغُ القَلبِ مع الرَّبِّ "[٣٣]

إِليكَ المُشْتَكَى لا مِنْكَ رَبِّي ... وأَنتَ لِنَائِبَاتِ الدَّهْرِ حَسْبِي
تَرْوِي غَلَّتِي[٣٤] وَتَرُمُّ[٣٥] حَالِي ... وتُؤَمِّنُ رَوْعَتِي[٣٦] وتُزِيلُ كَرْبِي

قال الإمام أحمد : "صِدْقُ المُتَوكّل على الله عزّ وجلّ- أنْ يَتَوكّلَ على الله ، ولا يكونُ في قَلْبه أَحَدٌ مِن الآدَمِيّينَ يَطْمَعُ أنْ يَجِيْئَه بِشَيءٍ، فإذا كان كذلكَ كان اللهُ يَرْزُقُه وكان مُتَوكّلاً»[٣٧]

" التَّوَكُّل من أقوى الْأَسْبَاب فِي حُصُول المُرَاد وَدَفْعِ الْمَكْرُوه بل هُوَ أقوى الْأَسْبَاب على الْإِطْلَاق "[٣٨]

وَقد بَيَّن النبي " صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الْأَسْبَابَ الْمَخْلُوقَةَ وَالْمَشْرُوعَةَ هِيَ مِنْ الْقَدَرِ {فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ رُقًى نسترقي بِهَا؟ وَتُقًى نَتَّقِي بِهَا؟ وَأَدْوِيَةً نَتَدَاوَى بِهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا؟ فَقَالَ: هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ} فَالِالْتِفَاتُ إلَى الْأَسْبَابِ شِرْكٌ فِي التَّوْحِيدِ وَمَحْوُ الْأَسْبَابِ أَنْ تَكُونَ أَسْبَابًا نَقْصٌ فِي الْعَقْلِ وَالْإِعْرَاضُ عَنْ الْأَسْبَابِ الْمَأْمُورِ بِهَا قَدْحٌ فِي الشَّرْعِ؛ فَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ قَلْبُهُ مُعْتَمِدًا عَلَى اللَّهِ لَا عَلَى سَبَبٍ مِنْ الْأَسْبَابِ وَاَللَّهُ يُيَسِّرُ لَهُ مِنْ الْأَسْبَابِ مَا يُصْلِحُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَإِنْ كَانَتْ الْأَسْبَابُ مَقْدُورَةً لَهُ وَهُوَ مَأْمُورٌ بِهَا

---

[٣٣] القُرْطُبي ، الجامع لأحكام القرآن " تفسير القرطبي " ، ١٧/ ٤٣ .
[٣٤] عَطَشِي .
[٣٥] تُصْلِحُ .
[٣٦] خَوْفِي .
[٣٧] ابن مُفْلِح ، الآداب الشَّرعية ، ٣/ ٢٧٠ .
[٣٨] ابن القيم ، الفوائد ، ص ٨٦ .

فَعَلَهَا مَعَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ كَمَا يُؤَدِّي الْفَرَائِضَ وَكَمَا يُجَاهِدُ الْعَدُوَّ وَيَحْمِلُ السِّلَاحَ وَيَلْبَسُ جُنَّةَ الْحَرْبِ وَلَا يَكْتَفِي فِي دَفْعِ الْعَدُوِّ عَلَى مُجَرَّدِ تَوَكُّلِهِ بِدُونِ أَنْ يَفْعَلَ مَا أُمِرَ بِهِ مِنْ الْجِهَادِ وَمِنْ تَرْكِ الْأَسْبَابِ الْمَأْمُورِ بِهَا فَهُوَ عَاجِزٌ مُفَرِّطٌ مَذْمُومٌ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: {الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاَللَّهِ وَلَا تَعْجِزَنَّ؛ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ}"[٣٩]

تَوَكَّلَ على الرَّحمانِ في الأَمْرِ كُلِّهِ ... فَمَا خَابَ حَقَّاً مَن عليه تَوَكَّلا
وكُنْ وَاثِقاً باللهِ واصْبِر لِحُكْمِهِ ... تَفُزْ بالذي تَرْجُوهُ مِنْهُ تَفَضُلا

" وَلَا يَسْتَغْنِي الْقَلْبُ إلَّا بِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى. فَإِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ مُحْتَاجًا إلَى جَلْبِ مَا يَنْفَعُهُ وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ وَنَفْسُهُ مُرِيدَةٌ دَائِمًا وَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُرَادٍ يَكُونُ غَايَةَ مَطْلُوبِهَا لِتَسْكُنَ إلَيْهِ وَتَطْمَئِنَّ بِهِ وَلَيْسَ ذَلِكَ إلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ؛ فَلَا تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ إلَّا بِهِ وَلَا تَسْكُنُ النُّفُوسُ إلَّا إلَيْهِ وَ {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} فَكُلُّ مَأْلُوهٍ سِوَاهُ يَحْصُلُ بِهِ الْفَسَادُ وَلَا يَحْصُلُ صَلَاحُ الْقُلُوبِ إلَّا بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. فَإِذَا لَمْ تَكُنْ الْقُلُوبُ مُخْلِصَةً لِلَّهِ الدِّينَ: عَبَدَتْ غَيْرَهُ؛ مِنْ الْآلِهَةِ الَّتِي يَعْبُدُهَا أَكْثَرُ النَّاسِ مِمَّا رَضُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ؛ فَأَشْرَكَتْ بِاَللَّهِ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ وَاسْتِعَانَتِهِ؛ فَتَعْبُدُ غَيْرَهُ وَتَسْتَعِينُ بِهِ لِجَهْلِهَا بِسَعَادَتِهَا الَّتِي تَنَالُهَا بِعِبَادَةِ خَالِقِهَا وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ؛ فَبِالْعِبَادَةِ لَهُ تَسْتَغْنِي عَنْ مَعْبُودٍ آخَرَ وبالاستعانة بِهِ تَسْتَغْنِي عَنْ الِاسْتِعَانَةِ بِالْخَلْقِ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ الْعَبْدُ كَذَلِكَ: كَانَ مُذْنِبًا مُحْتَاجًا وَإِنَّمَا غِنَاهُ فِي طَاعَةِ رَبِّهِ وَهَذَا حَالُ الْإِنْسَانِ؛ فَإِنَّهُ فَقِيرٌ مُحْتَاجٌ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُذْنِبٌ خَطَّاءٌ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ رَبِّهِ؛ فَإِنَّهُ الَّذِي يُسْدِي مَغَافِرَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ الِاسْتِغْفَارِ مِنْ ذُنُوبِهِ. قَالَ تَعَالَى: {فَاعْلَمْ

[٣٩] مجموع الفتاوى ، ٨/ ٥٢٨ ـ ٥٢٩ .

أَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} فَبِالتَّوْحِيدِ يَقْوَى الْعَبْدُ وَيَسْتَغْنِي وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وبالاستغفار يَغْفِرُ لَهُ وَيَدْفَعُ عَنْهُ عَذَابَهُ {وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} فَلَا يَزُولُ فَقْرُ الْعَبْدِ وَفَاقَتُهُ إلَّا بِالتَّوْحِيدِ؛ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ وَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ لَهُ لَمْ يَزَلْ فَقِيرًا مُحْتَاجًا مُعَذَّبًا فِي طَلَبِ مَا لَمْ يَحْصُلْ لَهُ. وَاَللَّهُ تَعَالَى: {لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ} . إذَا حَصَلَ مَعَ التَّوْحِيدِ الِاسْتِغْفَارُ حَصَلَ لَهُ غِنَاهُ وَسَعَادَتُهُ وَزَالَ عَنْهُ مَا يُعَذِّبُهُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ. وَالْعَبْدُ مُفْتَقِرٌ دَائِمًا إلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ كَمَا هُوَ مُفْتَقِرٌ إلَى عِبَادَتِهِ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَشْهَدَ دَائِمًا فَقْرَهُ إلَى اللَّهِ وَحَاجَتَهُ فِي أَنْ يَكُونَ مَعْبُودًا لَهُ وَأَنْ يَكُونَ مُعِينًا لَهُ؛ فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ وَلَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إلَّا إلَيْهِ .

قال تعالى : " إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ "[٤٠]

فعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَخَافَ اللَّهَ وَحْدَهُ ، وَلَا يَخَافَ أَحَدًا فَإِنَّ مَنْ لَا يَخَافُ اللَّهَ أَذَلُّ مِنْ أَنْ يُخَافَ فَإِنَّهُ ظَالِمٌ ، وَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ ، فَالْخَوْفُ مِنْهُ قَدْ نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَإِذَا قِيلَ قَدْ يُؤْذِينِي قِيلَ: إنَّمَا يُؤْذِيك بِتَسْلِيطِ اللَّهِ لَهُ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ دَفْعَ شَرِّهِ عَنْك دَفَعَهُ فَالْأَمْرُ لِلَّهِ؛ وَإِنَّمَا يُسَلَّطُ عَلَى الْعَبْدِ بِذُنُوبِهِ وَأَنْتَ إذَا خِفْتَ اللَّهَ فَاتَّقَيْتَهُ وَتَوَكَّلْتَ عَلَيْهِ كَفَاكَ شَرَّ كُلِّ شَرٍّ وَلَمْ يُسَلِّطْهُ عَلَيْكَ فَإِنَّهُ قَالَ: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} وَتَسْلِيطُهُ يَكُونُ بِسَبَبِ ذُنُوبِك وَخَوْفِك مِنْهُ. فَإِذَا خِفْتَ اللَّهَ وَتُبْتَ مِنْ ذُنُوبِك وَاسْتَغْفَرْتَهُ لَمْ يُسَلَّطْ عَلَيْكَ كَمَا قَالَ: {وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}[٤١] .

---

[٤٠] سورة آل عمران آية ١٧٥ .

[٤١] مجموع الفتاوى ، ١/ ٥٤ ـ ٥٨ . بتصرف .

أيها الحبيب ...إنّ «التّوكّل مِن أَقوى الأسبابِ ، الّتي يَدْفَعُ بها العبدُ ما لا يُطِيْقُ ، مِن أَذَى الخَلْق وظُلْمِهِم وعُدْوَانِهم»[٤٢]

وانظُر لهذه القِصَّة الواقعية بِقَلْبِك " شخصٌ حَصَلَ على الدكتوراة وعاد لبلده ، وتقدَّم للتدريس في الجامعة قَبْلَ بداية الفصل الدراسي ، فقالوا لابدّ مِن مُعادَلَة الشهادات ـ أنْ يُصَدِّق التعليم العالي عليها ، ويحتاج الأمر لأكثر مِن شهر حتى يَصْدُر قرارهم بالتصديق ـ ، فحاول معهم فرفَضُوا ، وهو لا يَمْلِك مالاً للإنْفاق على نَفْسِه وأَهْلِه ، وبعد أيام سَمِعَ مِن عَدَدٍ مِن الناس أنّ اسمك يا دكتور نازل في قوائم المواد الدراسية في الجامعة ، فلم يَلْتَفِت لذلك ، وظنّ أنّ ذلك مُزَاحٌ منهم أو خَطأٌ ، وتحت إلحاح أَهله لِيُرَاجِع الجامعة ، ذَهَب للجامعة ورأَى اسْمَهُ فِعْلاً في قوائم التدريس ، وبدأَ يُعْطي مُحاضراته في الجامعة ، وفي يومٍ مِن الأيام ، اسْتَدْعاهُ مَسؤول التوظيف ، وقال له : يا دُكتور ، كيف تُدَرِّس في الجامعة وشهاداتك التي عِندنا ليست مُصَدَّقَة مِن التعليم العالي ؟! في قال الدكتور : أنتم الذين أَنْزَلْتُم اسْمي في قَوائم التدريس ، فقال المسؤول : يا دُكْتور : معكَ خلالَ هذا الأُسْبوع لـتأتي بالشهادات مُصَدَّقة ، وإلا سَيُلْغى اسمك مِن التدريس في الجامعة في هذا الفصل !، فقال الدكتور : إن شاء الله سأتيك بالشهادات مُصَدَقات ، وكان خلال تلك الفترة قد تقدم بشهاداته للتعليم العالي للمُصَادَقَة عليها وقد تمّ التصديق عليها ! ثم جاء بها للجامعة مُصَدَقة!!"

و" مَنْ نَزَلَ بِهِ بَلَاءٌ عَظِيمٌ أَوْ فَاقَةٌ شَدِيدَةٌ أَوْ خَوْفٌ مُقْلِقٌ؛ فَجَعَلَ يَدْعُو اللَّهَ وَيَتَضَرَّعُ إلَيْهِ حَتَّى فَتَحَ لَهُ مِنْ لَذَّةِ مُنَاجَاتِهِ مَا كَانَ أَحَبَّ إلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْحَاجَةِ الَّتِي قَصَدَهَا أَوَّلًا؛ وَلَكِنَّهُ لَمْ

[٤٢] ابن القيم ، بَدَائع الفوائد ، ٢٣٦/٢ .

يَكُنْ يَعْرِفُ ذَلِكَ أَوَّلًا حَتَّى يَطْلُبَهُ وَيَشْتَاقَ إِلَيْهِ. وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ ذِكْرِ حَاجَةِ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ دُونَ مَا سِوَاهُ، وَمِنْ ذِكْرِ نَعْمَائِهِ عَلَيْهِمْ؛ وَمِنْ ذِكْرِ مَا وَعَدَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ صُنُوفِ النَّعِيمِ وَاللَّذَّاتِ، وَلَيْسَ عِنْدَ الْمَخْلُوقِ شَيْءٌ مِنْ هَذَا؛ فَهَذَا الْوَجْهُ يُحَقِّقُ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ وَالشُّكْرَ لَهُ وَمَحَبَّتَهُ عَلَى إحْسَانِهِ.

وإنَّ تَعَلُّقَ الْعَبْدِ بِمَا سِوَى اللَّهِ مَضَرَّةٌ عَلَيْهِ؛ إذَا أَخَذَ مِنْهُ الْقَدْرَ الزَّائِدَ عَلَى حَاجَتِهِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ إنْ نَالَ مِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَوْقَ حَاجَتِهِ؛ ضَرَّهُ وَأَهْلَكَهُ؛ وَكَذَلِكَ مِنْ النِّكَاحِ وَاللِّبَاسِ؛ وَإِنْ أَحَبَّ شَيْئًا حُبًّا تَامًّا بِحَيْثُ يخالله فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْأَمَهُ؛ أَوْ يُفَارِقَهُ. وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا لِغَيْرِ اللَّهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَضُرَّهُ مَحْبُوبُهُ؛ وَيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِعَذَابِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ يُمَثَّلُ لِأَحَدِهِمْ كَنْزُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتِهِ[٤٣]. يَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ. أَنَا مَالُك. وَكَذَلِكَ نَظَائِرُ هَذَا فِي الْحَدِيثِ: يَقُولُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ "[٤٤]

والعبدُ ـ أيها الحبيب ـ "اعْتِمَادَهُ عَلَى الْمَخْلُوقِ وَتَوَكُّلَهُ عَلَيْهِ يُوجِبُ الضَّرَرَ مِنْ جِهَتِهِ؛ فَإِنَّهُ يَخْذُلُ مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ؛ وَهُوَ أَيْضًا مَعْلُومٌ بِالِاعْتِبَارِ وَالِاسْتِقْرَاءِ؛ مَا عَلَّقَ الْعَبْدُ رَجَاءَهُ وَتَوَكُّلَهُ بِغَيْرِ اللَّهِ إلَّا خَابَ مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ؛ وَلَا اسْتَنْصَرَ بِغَيْرِ اللَّهِ إلَّا خُذِلَ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا} {كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} . وَهَذَانِ الْوَجْهَانِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ نَظِيرُ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ فِي الْمَخْلُوقِ؛ فَلَمَّا قَالَ: {إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}

---

[٤٣] فَسَّره فِي الحَدِيث بِشِدْقَيْهِ ، وَقَالَ الْخَلِيل : هما مُضَيْغَتان فِي أَصل الحَنَك ، وَقيل : عِنْد مُنْحَنى اللِّحْيَيْن ، أَسْفَل من الْأُذُنَيْن ، وَقيل بَين الماضغ وَالْأُذن ، وَذَا مُتَقَارب كُله ، مشارق الأنوار على صحاح الآثار ، ١ / ٣٦٣ .

[٤٤] مجموع الفتاوى ، ١/ ٢٨ .

كَانَ صَلَاحُ الْعَبْدِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَاسْتِعَانَتِهِ. وَكَانَ فِي عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ؛ وَالِاسْتِعَانَةِ بِمَا سِوَاهُ؛ مَضَرَّتُهُ وَهَلَاكُهُ وَفَسَادُهُ. واللَّهُ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ. حَمِيدٌ. كَرِيم. وَاجِدٌ. رَحِيمٌ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ مُحْسِنٌ إلَى عَبْدِهِ مَعَ غِنَاهُ عَنْهُ؛ يُرِيدُ بِهِ الْخَيْرَ وَيَكْشِفُ عَنْهُ الضُّرَّ؛ لَا لِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ إلَيْهِ مِنْ الْعَبْدِ؛ وَلَا لِدَفْعِ مَضَرَّةٍ؛ بَلْ رَحْمَةً وَإِحْسَانًا؛ وَالْعِبَادُ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَعْمَلُوا إلَّا لِحُظُوظِهِمْ؛ فَأَكْثَرُ مَا عِنْدَهُمْ لِلْعَبْدِ أَنْ يُحِبُّوهُ وَيُعَظِّمُوهُ؛ وَيَجْلِبُوا لَهُ مَنْفَعَةً وَيَدْفَعُوا عَنْهُ مَضَرَّةً مَا. وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ أَيْضًا مِنْ تَيْسِيرِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ إلَّا لِحُظُوظِهِمْ مِنْ الْعَبْدِ إذَا لَمْ يَكُنْ الْعَمَلُ لِلَّهِ. فَإِنَّهُمْ إذَا أَحَبُّوهُ طَلَبُوا أَنْ يَنَالُوا غَرَضَهُمْ مِنْ مَحَبَّتِهِ سَوَاءٌ أَحَبُّوهُ لِجَمَالِهِ الْبَاطِنِ أَوْ الظَّاهِرِ فَإِذَا أَحَبُّوا الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَوْلِيَاءَ طَلَبُوا لِقَاءَهُمْ فَهُمْ يُحِبُّونَ التَّمَتُّعَ بِرُؤْيَتِهِمْ؛ وَسَمَاعِ كَلَامِهِمْ؛ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَكَذَلِكَ مَنْ أَحَبَّ إنْسَانًا لِشَجَاعَتِهِ أَوْ رِيَاسَتِهِ؛ أَوْ جَمَالِهِ أَوْ كَرَمِهِ؛ فَهُوَ يَجِبُ أَنْ يَنَالَ حَظَّهُ مِنْ تِلْكَ الْمَحَبَّةِ؛ وَلَوْلَا الْتِذَاذُهُ بِهَا لَمَا أَحَبَّهُ؛ وَإِنْ جَلَبُوا لَهُ مَنْفَعَةً كَخِدْمَةٍ أَوْ مَالٍ؛ أَوْ دَفَعُوا عَنْهُ مَضَرَّةً كَمَرَضٍ وَعَدُوٍّ - وَلَوْ بِالدُّعَاءِ أَوْ الثَّنَاءِ - فَهُمْ يَطْلُبُونَ الْعِوَضَ إذَا لَمْ يَكُنْ الْعَمَلُ لِلَّهِ؛ فَأَجْنَادُ الْمُلُوكِ؛ وَعَبِيدُ الْمَالِكِ؛ وَأُجَرَاءُ الصَّانِعِ؛ وَأَعْوَانُ الرَّئِيسِ؛ كُلُّهُمْ إنَّمَا يَسْعَوْنَ فِي نَيْلِ أَغْرَاضِهِمْ بِهِ؛ لَا يُعَرِّجُ أَكْثَرُهُمْ عَلَى قَصْدِ مَنْفَعَةِ الْمَخْدُومِ؛ إلَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ عُلِّمَ وَأُدِّبَ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى؛ فَيَدْخُلُ ذَلِكَ فِي الْجِهَةِ الدِّينِيَّةِ؛ أَوْ يَكُونُ فِيهَا طَبْعُ عَدْلٍ؛ وَإِحْسَانٌ مِنْ بَابِ الْمُكَافَأَةِ وَالرَّحْمَةِ؛ وَإِلَّا فَالْمَقْصُودُ بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ هُوَ مَنْفَعَةُ نَفْسِهِ؛ وَهَذَا مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ الَّتِي أَقَامَ بِهَا مَصَالِحَ خَلْقِهِ؛ وَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ؛: لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا. إذَا تَبَيَّنَ هَذَا ظَهَرَ أَنَّ الْمَخْلُوقَ لَا يَقْصِدُ مَنْفَعَتَكَ. بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ؛ بَلْ إنَّمَا يَقْصِد مَنْفَعَتَهُ بِكَ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ قَدْ يَكُونُ عَلَيْكَ فِيهِ ضَرَرٌ إذَا لَمْ يُرَاعِ الْعَدْلَ؛ فَإِذَا دَعَوْتَهُ؛ فَقَدْ دَعَوْتَ مَنْ ضَرُّهُ

أَقْرَبُ مَنْ نَفْعِهِ. وَالرَّبُّ سُبْحَانَهُ يُرِيدُ لَكَ؛ وَلِمَنْفَعَتِكَ بِكَ؛ لَا لِيَنْتَفِعَ بِك. وَذَلِكَ مَنْفَعَةٌ عَلَيْكَ بِلَا مَضرَّةٍ. فَتَدَبَّرْ هَذَا؛ فَمُلَاحَظَةُ هَذَا الْوَجْهِ يَمْنَعُكَ أَنْ تَرْجُوَ الْمَخْلُوقَ أَوْ تَطْلُبَ مِنْهُ مَنْفَعَةً لَكَ، فَإِنَّهُ لَا يُرِيدُ ذَلِكَ بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ؛ كَمَا أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ. وَلَا يَحْمِلَنَّكَ هَذَا عَلَى جَفْوَةِ النَّاسِ؛ وَتَرْكِ الْإِحْسَانِ إلَيْهِمْ؛ وَاحْتِمَالِ الْأَذَى مِنْهُمْ؛ بَلْ أَحْسِنْ إلَيْهِمْ لِلَّهِ لَا لِرَجَائِهِمْ؛ وَكَمَا لَا تَخَفْهُمْ فَلَا تَرْجُهُمْ؛ وَخَفْ اللَّهَ فِي النَّاسِ وَلَا تَخَفْ النَّاسَ فِي اللَّهِ؛ وَارْجُ اللَّهَ فِي النَّاسِ وَلَا تَرْجُ النَّاسَ فِي اللَّهِ؛ وَكُنْ مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ فِيهِ: {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى} {الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} {وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى} {إلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى} . وَقَالَ فِيهِ: {إنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} .وغَالِبَ الْخَلْقِ يَطْلُبُونَ إدْرَاكَ حَاجَاتِهِمْ بِكَ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ ضَرَرًا عَلَيْك؛ فَإِنَّ صَاحِبَ الْحَاجَةِ أَعْمَى لَا يَعْرِفُ إلَّا قَضَاءَهَا "[٤٥]

والعبدُ " إذَا عَرَفَ أَنَّ النِّعَمَ كُلَّهَا مِنْ اللَّهِ وَأَنَّهُ لَا مُقَدِّرَ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا إلَّا اللَّهُ. فَلَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إلَّا هُوَ وَلَا يُذْهِبُ السَّيِّئَاتِ إلَّا هُوَ. وَأَنَّهُ {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ} صَارَ تَوَكُّلُهُ وَرَجَاؤُهُ وَدُعَاؤُهُ لِلْخَالِقِ وَحْدَهُ. وَكَذَلِكَ إذَا عَلِمَ مَا يَسْتَحِقُّهُ اللَّهُ مِنْ الشُّكْرِ - الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّهُ غَيْرُهُ - صَارَ عِلْمُهُ بِأَنَّ الْحَسَنَاتِ مِنْ اللَّهِ: يُوجِبُ لَهُ الصِّدْقَ فِي شُكْرِ اللَّهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ. وَلَوْ قِيلَ: إنَّهَا مِنْ نَفْسِهِ لَكَانَ غَلَطًا. لِأَنَّ مِنْهَا مَا لَيْسَ لِعَمَلِهِ فِيهِ مَدْخَلٌ. وَمَا كَانَ لِعَمَلِهِ فِيهِ مَدْخَلٌ: فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُنْعِمُ بِهِ. فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ. وَلَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْهُ إلَّا إلَيْهِ. وَعَلِمَ أَنَّ الشَّرَّ قَدْ انْحَصَرَ سَبَبُهُ فِي النَّفْسِ. فَضَبَطَ ذَلِكَ وَعَلِمَ مِنْ أَيْنَ يُؤْتَى.

[٤٥] مجموع الفتاوى ، ١/ ٢٩ ـ ٣١ . بتصرف .

فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ مِمَّا فَعَلَ وَتَابَ. وَاسْتَعَانَ اللَّهَ وَاسْتَعَاذَ بِهِ مِمَّا لَمْ يَعْمَلْ بَعْدُ كَمَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنْ السَّلَفِ " لَا يَرْجُوَنَّ عَبْدٌ إلَّا رَبَّهُ. وَلَا يَخَافَنَّ عَبْدٌ إلَّا ذَنْبَهُ "[٤٦]

و" إذَا أُلْهِمَ الْعَبْدُ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ الْهِدَايَةَ وَيَسْتَعِينَهُ عَلَى طَاعَتِهِ، أَعَانَهُ وَهَدَاهُ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ سَعَادَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِذَا خُذِلَ الْعَبْدُ فَلَمْ يَعْبُدْ اللَّهَ؛ وَلَمْ يَسْتَعِنْ بِهِ، وَلَمْ يَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وُكِلَ إلَى حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ. فَيُوَلِّيهِ الشَّيْطَانَ، وَصُدَّ عَنْ السَّبِيلِ، وَشَقِيَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ "[٤٧]

وإليك هذه القصة الواقعية لتتأمَّلها بقلبك ...
" تقول سناء المصرية تحكي قصة إسلامها:
"نشأتُ كأيِّ فتاةٍ نَصرانية مصرية ، على التَّعصب للدِّين النَّصْرَاني، وحَرِصَ والدَايَّ على اصْطِحابي معهما إلى الكنيسة ، صباح كل يوم أحدٍ لأُقَبِّلَ يَدَ القَسّ، وأَتْلُو خَلْفَه التَّرَاتيلَ الكَنَسِيَّة، وأَسْتَمِعُ إليه ، وهو يُخَاطِب الجَمْعَ ، مُلَقِّناً إيَّاهم عقيدةَ التَّثْلِيث، ومُؤَكِداً عليهم بأَغْلَظِ الأَيمان ، أنّ غيرَ المَسيحيين مَهما فَعَلُوا مِن خيرٍ فَهُم مَغْضُوبٌ عليهم مِن الرَّب، لأَنَّهم - حَسْبَ زَعْمِه - كَفَرَةٌ مَلاحدة.
كنتُ أَستمِعُ إلى أقوالِ القِس ، دُونَ أنْ أَسْتَوعِبها، شأْني شَأْنَ غيري مِن الأطفالِ، وحِينما أَخْرُجُ مِن الكَنيسة أَهْرَعُ إلى صَديقتي المُسْلِمة لأَلْعَبَ مَعها، فالطِّفولة لا تَعْرِفُ الحِقْدَ الذي يَزْرَعُه القِسِّيْسُ في قلوبِ الناس.
كَبُرتُ قليلاً، ودَخَلْتُ المَدرسةَ، وبَدَأْتُ بِتكوينِ صَدَاقاتٍ مع زَمِيلاتي ، في مَدْرستي الكَائِنة بِمُحافظة السُّوَيْس.. وفي المدرسةِ بدأتْ عَيْنايَ تَتَفتحان على الخِصال الطَّيبة التي

[٤٦] مجموع الفتاوى ، ١٤ / ٣٤١ .
[٤٧] مجموع الفتاوى ، ٨/ ٢٣٦ .

تتحلى بها زميلاتي المسلمات، فهن يُعامِلْنَنِي مُعاملةَ الأُخت، ولا يَنْظُرنَ إلى اخْتِلافِ دِيْنِي عن دِيْنِهِنَّ، وقد فَهِمتُ فيما بعد أنّ القرآن الكريم ، حَثَّ على مُعاملةِ الكفارِ - غير المُحَارِبين - مُعامَلةً طَيبة طَمعاً في إسْلامهم ، وإنْقَاذِهم مِن الكُفْر، قال تعالى: {لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عنْ الذينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ في الدِّيْنِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكمْ أنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إليهِمْ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسطينَ} .

إحدى زَميلاتي المُسْلِماتِ رَبَطَتْنِي بها على وَجْهِ الخُصوص صداقة مَتينة، فكنتُ لا أُفارِقُها إلا في حصص التربية الدينية، إذْ كُنْتُ - كما جَرَى النِّظام أَدْرُسُ مع طالباتِ المدرسة النَّصْرَانيات ، مَبادِيءَ الدِّين النَّصْرَاني على يَدِ مُعلمةٍ نَصرانية. كنتُ أُريد أنْ أَسْألَ مُعلمتي كيفَ يُمْكِنُ أنْ يكونَ المُسلمون - حَسْبَ افتراضاتِ المَسيحيين - غيرَ مُؤْمنين وهُم على مِثْلِ هذا الخُلُقِ الكريم ، وطِيْبَ المَعْشَر؟ لكِنِّي لَم أَجْرؤْ على السُّؤال خَشْيةَ إغْضاب المُعلِّمة ، حتى تَجَرَّأْتُ يوماً وسألتُ، فجاءَ سُؤَالي مُفاجأةً للمُعلمة ، التي حاولتْ كَظْمَ غَيظَها، وافْتَعلَتْ ابْتِسامةً صَفراء ، رَسَمَتْها على شَفَتَيْها وخَاطَبتني قائلةً: " إنَّكِ ما زِلْتِ صغيرةً ، ولَمْ تَفهمي الدُّنيا بعد، فلا تَجْعلي هذه المظاهر البَسيطة ، تَخْدَعكِ عن حقيقةِ المسلمين كما نَعْرفها نحنُ الكبار..". صَمَتُّ على مَضَضٍ على الرَّغْمِ مِن رَفْضِي لإجابتِها غير المَوْضوعية، وغير المَنْطِقيَّة.

وتَنْتقلُ أُسرةُ أَعزّ صَديقاتي إلى القاهرة، ويومَها بَكَيْنَا لأَلَمِ الفِرَاق، وتَبادلنا الهدايا والتِّذْكَارات، ولَمْ تَجِدْ صَدِيقتي المسلمة ، هدية تُعَبِّرُ بها عن عُمْقِ وقُوَّة صَدَاقَتِها لِي سِوَى مُصْحَفٍ شَريفٍ ، في عُلبةٍ أَنيقة صغيرة، قَدَّمَتْهَا لي قائلةً:" لقد فَكَّرْتُ في هديةٍ غاليةٍ لأُعْطيكِ إيَّاها ، ذِكرى صَداقةٍ وعُمْرٍ عِشْناهُ سَوِيَّاً ، فلَمْ أَجِدْ إلا هذا المُصحف الشريف ، الذي يَحتوي

على كلامِ اللهِ". تَقَبَّلْتُ هَدِيَّةَ صَدِيْقتي المُسلمة ، شاكرة فَرِحَة، وحَرِصْتُ على إخْفَائِها عن أَعْيُنِ أُسْرتي ، التي ما كانت لِتقْبَل أنْ تَحْمِلَ ابْنِتهم المصحف الشريف.

وبعد أنْ رحلتْ صديقتي المسلمة، كنتُ كلما تَنَاهَى إليَّ صوت المُؤَذِّن، مُنادياً للصلاة، وداعِياً المُسلمين إلى المَساجد، أَعْمَدُ إلى إخراجِ هدية صديقتي ، وأُقَبِّلها وأنا أَنْظُرُ حَولي مُتَوَجِّسَة ، أنْ يُفاجأني أَحَد أفراد الأُسرة، فيَحْدُثَ لي مالا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ. ومَرتْ الأيام وتَزوجتُ مِن "شماس" كنيسة العذارء مريم، ومع متعلقاتي الشخصية، حَمَلْتُ هديةَ صديقتي المسلمة "المصحف الشريف" وأَخْفَيْتُه بعيداً عن عَيْنَيّ زَوجي، الذي عِشْتُ معه كأَيّ امرأةٍ شَرقية وَفِيَّة ومُخْلِصَة ، وأَنجبتُ مِنه ثلاثةَ أطفالٍ. وَتوظَّفتُ في ديوانِ عام المُحَافظة، وهناك التقيت بزميلات مسلمات مُتَحَجِّبات، ذَكَرْنَني بِصديقتي الأَثيرة، وكنتُ كلما عَلا صوت الأَذان مِن المسجدِ المُجاور، يَتَمَلَكني إحساسٌ خَفِيٌّ يَخْفِقُ له قَلبي، دُون أنْ أَدْري لذلك سَبباً مُحدداً، إذْ كنتُ لا أَزالُ غير مُسْلِمةٍ، ومُتزوجة مِن شَخْصٍ يَنتمي إلى الكنيسةِ بِوظيفةٍ يَقْتَاتُ مِنها، ومِن مَالِها يُطْعِمُ أُسرته.

وبمرور الوقت، وبمُحاورة زَميلاتٍ وجَاراتٍ مُسلمات على دِيْنٍ وخُلُق ، بدأتُ أُفكِّر في حقيقةِ الإسلام والمسيحية، وأُوازِنُ بين ما أَسْمعُه في الكنيسةِ عن الإسلام والمسلمين، وبين ما أَرَاهُ وأَلْمَسُه بِنفْسي، وهو ما يتناقض مع أقوال القُسُس والمتعصبين النَّصارى. بدأتُ أحاولُ التعرف على حقيقة الإسلام، وأَنْتَهِزُ فرصةَ غيابَ زَوجي لأَسْتَمِعُ إلى أحاديث المَشايخ عبر الإذاعة والتلفاز، عَلِيَّ أَجِد الجواب الشافي لِمَا يَعْتملُ في صَدري مِن تَساؤلات حيرتنى، وجَذَبتني تلاوة الشيخ محمد رِفعت، والشيخ عبد الباسط عبد الصمد للقرآن الكريم، وأَحْسستُ وأنا أَسْتمعُ إلى تسجيلاتهم عبر

المذياع ، أن ما يُرَتَلانه لا يُمْكِن أنْ يكون كلام بَشَر، بل هو وَحيٌ إلهيٌّ. وعَمَدْتُ يوماً أثناءَ وجودَ زوجي في الكنيسة إلى دُولابي، وبِيَدٍ مُرْتَعِشة أَخْرجتُ كَنزي الغالي "المصحف الشريف" فَتَحْتُه وأنا مُرْتَبِكة، فوقَعتْ عَينَاي على قوله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدم خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُون} . ارْتَعشتْ يَدَيَّ أكثر وصَبَبَتْ وَجْهِي عَرَقاً، وسَرَتْ في جِسمي قَشَعْرِيرة، وتَعجبتُ لأَنِّي سَبَقَ أنْ اسْتمعت إلى القرآن كثيراً في الشارع والتلفاز والإذاعة، وعند صديقاتي المُسْلِمات، لكني لم أشعر بِمِثْل هذه القَشعريرة التي شعرتُ بها ، وأنا أقرأُ مِن المصحف الشريف مُباشرةً بِنَفْسي. هَمَمْتُ أنْ أُواصِل القراءةَ ، إلا أنّ صوت أَزيز مَفاتيح زوجي وهو يَفتحُ بابَ الشُّقةِ حالَ دُون ذلك، فأَسْرَعتُ وأَخْفيتُ المصحف الشريف في مكانه الأمين، وهَرَعْتُ لأَسْتقبلَ زوجي.

وفي اليوم التالي لهذه الحادثة ذهبتُ إلى عملي، وفي رأسي ألف سؤال حائر، إذ كانت الآية الكريمة التي قرأتُها قد وَضَعتْ الحَدّ الفاصل لما كان يؤرقني حول طبيعة عيسى عليه السلام، أَهُوَ ابنُ اللهِ كما يَزعم القِسِّيس - تعالى الله عما يقولون - أم أنّه نبي كريم كما يقول القرآن؟ فجاءتْ الآيةُ لتقطع الشك باليقين، مُعْلنة أنّ عيسى، عليه السلام، مِن صُلْبِ آدم، فهو إذن ليس ابن الله، فالله تعالى {لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَد} . تساءلتُ في نفسي عن الحل وقد عرفتُ الحقيقةَ الخالدة، حقيقة أن "لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله". أَيُمْكن أنْ أُشْهِرَ إسلامي؟ وما موقف أهلي مِنّي، بل ما مَوقف زوجي ومصير أبنائي؟ طافتْ بي كل هذه التساؤلات وغيرها ، وأنا جالسة على مكتبي ، أُحاول أنْ أُؤدِّي عَملي لكنِّي لم أستطع، فالتفكير كاد يقتلني، واتخاذ الخطوة الأُولى ، أَرَى أنّها سَتُعرضني لأَخْطار جَمَة أَقَلُّها قَتْلي بِواسطة الأهل أو

الزوج والكنيسة. ولأَسابيع ظَلَلتُ مع نَفْسي بين دَهْشة زَميلاتي ، اللاتي لم يصارحنني بشيء، إذْ تَعَودْنَني عاملة نشيطة، لكنني من ذلك اليوم لم أَعُدْ أَستطيع أنْ أُنْجز عملاً إلا بِشِقّ الأَنْفس. وجاء اليوم الموعود، اليوم الذي تخلصت فيه مِن كلّ شَكٍّ وخوف ، وانتقلتُ فيه مِن ظلام الكفر إلى نور الإيمان، فبينما كنتُ جالسةً ساهمةَ الفِكْر، شاردةَ الذِّهْن، أُفكرُ فيما عَقَدْتُ العَزْمَ عليه، تَناهى إلى سَمعي صوت الأذان من المسجد القريب ، داعياً المسلمين إلى لقاء ربهم ، وأداء صلاة الظهر، تَغْلغل صوت الأذان داخل نفسي، فشَعَرتُ بالراحة النَّفسية التي أَبحثُ عنها، وأَحْسَستُ بضخامةِ ذَنْبِي ، لِبقائي على الكفر على الرغم مِن عَظَمةِ نِداء الإيمان ، الذي كان يَسْرِي في كل جَوَانِحي، فَوقَفْتُ بِلا مُقدماتٍ لأَهْتِفَ بِصَوتٍ عالٍ بين ذهول زميلاتي: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله"، فاقْبَلَ عليّ زَميلاتي ، وقد تَحَيرنَ مِن ذُهُولِهن، مُهَنئاتٍ باكياتٍ ، بكاء الفرح، وانْخَرَطْتُ أنا أيضاً معهن في البكاء، سائلةً اللهَ أنْ يَغفرَ ليَ ما مَضى مِن حياتي، وأنْ يرضى عنِّي في حياتي الجديدة.

كان طبيعياً أنْ يَنتشر خَبَر إسلامي في دِيوان المُحافظة، وأنْ يَصِلَ إلى أَسماعِ زُملائِي وزَمِيلاتي النَّصارى، اللَّوَاتي تَكَفَّلْنَ - بَيْنَ مَشاعِرَ سَخَطهن - بِسُرعة إيصاله إلى أُسرتي وزَوجي، وبَدَأْنَ يُرَدِّدْنَ عَنِّي مُدَّعِين أنّ وراءَ القرارِ أسبابٌ لا تَخْفَى. لَمْ آبَه لِأَقْوَالِهن الحاقدة، فالأمرُ الأكثر أهمية عِنْدي مِن تلكَ التَّخَرُّصات: أنْ أُشْهِرَ إسْلامي بِصُورةٍ رَسْمية، كي يُصْبِحَ إسْلامي عَلَناً، وبِالفِعل تَوجَّهتُ إلى مُديريةِ الأَمْنِ حيثُ أَنْهيتُ الإجْرَاءَات اللازمة لإشهار إسلامي. وعُدْتُ إلى بيتي لأَكْتَشِفَ أنّ زَوْجي ما إنْ عَلِمَ بالخَبَرِ حتى جاءَ بأَقاربِه ، وأَحْرَقَ جميعَ مَلابسي، واسْتولى على ما كان لديّ مِن مُجوهراتٍ ومالٍ وأثاثٍ، فلمْ يُؤْلِمْني ذلك، وإنَما تألمتُ لِخَطْفِ

أَطفالي ، مِن قِبَلِ زَوجي لِيتخِذَ مِنهم وسيلةً للضغطِ عليَّ ، للعودة إلى ظلامِ الكُفْر.. آلَمَنِي مصير أَولادي، وخِفْتُ عليهم أنْ يَتَربّوا بين جُدْرانِ الكَنائس على عقيدةِ التَّثْليث، ويكون مصيرهم كأبيهم في سقر.. رَفَعْتُ ما اعْتَمَلَ وصارَ في نَفْسي ، بالدُّعاءِ إلى اللهِ أنْ يُعيدَ إليَّ أَبنائي لِتربيتهم تربيةً إسلاميةً، فاسْتجابَ اللهُ دُعائي، إذْ تَطوع عددٌ مِن المسلمين ، بإِرْشَادي للحصول على حُكْمٍ قَضائي بِحَضَانة الأطفال ، باعْتِبَارهم مُسْلِمين، فَذَهْبتُ إلى المَحكمة ، ومعي شهادةَ إِشهار إسلامي، فوقفتْ المَحكمةُ مع الحقِّ، فخَيَّرَتْ زَوجي بين الدُّخولِ في الإسلام أو التفريق بينه وبيني، فقد أَصْبَحْتُ بِدُخولي في الإسلام لا أَحِلُّ لِغير مُسْلِمٍ، فأَبَى واسْتَكْبَرَ أنْ يَدْخُلَ في دِيْنِ الحق، فحَكَمتْ المحكمةُ بالتَّفْريق بَيني وبينه، وقَضَتْ بِحَقِّي في حَضانةِ أَطْفالي باعْتِبارهم مُسلمين، لِكَونهم لَمْ يَبْلُغوا الحُلْمَ، ومِن ثَمَّ يُلْحَقُون بالمُسْلم مِن الوالدين.

حَسِبْتُ أنّ مُشكلاتي قد انْتهتْ عندَ هذا الحّدّ، لَكني فُوجِئْتُ بمُطاردة زَوجي وأَهْلي أيضاً، بالإِشاعاتِ والأَقاويل ، بِهَدَفِ تَحطيم مَعنويات ونفسيتي، وقاطَعَتْنِي الأُسَرُ النَّصرانية التي كنتُ أَعْرِفُها، وزَادَتْ على ذلكَ بأنّ سَعَتْ هذه الأُسَر إلى بَثِّ الإِشَاعات حَولي بِهدفِ تلويثِ سُمْعَتِي، وتَخويف الأُسر المُسْلِمة مِن مُساعدتي لِقَطْعِ صِلَتِهِنّ بي. وبالرَّغْم مِن كلِّ المُضايقاتِ ظَلَلْتُ قويةً مُتماسكة، مُسْتمسكةً بإِيْماني، رَافضةً كل المُحاولات الرَّامِية إلى رِدَّتِي عن دِيْنِ الحقِّ، ورَفَعْتُ يَدَيَّ بالدُّعاءِ إلى مالكِ الأرضِ والسماء، أنْ يَمْنَحني القَوَّة لِأَصْمُدَ في وَجْهِ كل ما يُشاع حَولي، وأنْ يُفَرِّجَ كَرْبِي. فاسْتجابَ اللهُ دُعائي ، وهُو القَرِيبُ المُجيب، وجاءَني الفَرَجُ مِن خلالِ أَرْملةٍ مُسْلمة، فقيرةَ المال، غَنِيَّةَ النَّفْس، لها أَربعُ بناتٍ يَتامى ، وابن وحيد بعدَ وفاةِ زوجِها، تأثرتْ هذه الأرملة المُسْلمة للظروف النَّفْسية التي أَحْياها، وتَمَلَّكها الإعجابُ والإِكبارُ

لِصُمُودِي، فَعَرَضَتْ عليّ أنْ تُزَوجَني بابْنِها الوحيد "محمد" ، لأَعيشَ وأَطفالي معها ، ومع بناتها الأربع، وبعدَ تفكيرٍ لَمْ يَدُمْ طويلاً وافَقْتُ، وتَزوجتُ محمداً ابن الأرملة المسلمة الطَّيبة. وأنا الآن أَعيشُ مع زوجي المُسْلِم "محمد" وأَولادي، وأهل الزوج في سعادةٍ ورِضا وراحة بالٍ، على الرَّغم مما نُعانيه مِن شَظَفَ ، (شِدَّة) العيش، وما نُلاقيه مِن حِقْدِ زَوجي السَّابق، ومُعاملة أُسرتي المَسيحية. ولا أَزالُ بالرَّغم مِما فَعَلَتْهُ عائِلتي معي ، أَدْعُو اللهَ أنْ يَهْدِيَهم إلى دِيْنِ الحق ، ويَشْمَلَهُم بِرحمته مِثلما هَداني وشَمَلَنِي بِرحمته، وما ذلكَ على اللهِ - سبحانه وتعالى – بِعَزِيزٍ "[٤٨]

٤) التسليم لِحُكْمِ اللهِ تعالى

" اللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَأْمُرِ الْعِبَادَ إِلَّا بِمَا هُوَ لَهُ أَطْوَعُ وَلَهُمْ أَنْفَعُ، لَمْ يَأْمُرْهُمْ بِتَعْذِيبٍ لَا يَنْفَعُهُمْ ُ» "[٤٩]

وتأمَّل بِقَلْبِك أيها الحبيب ومِن القلب قريب ما رواه الصحابي الجليل أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى شَيْخًا يُهَادَى بَيْنَ ابْنَيْهِ، قَالَ: «مَا بَالُ هَذَا؟»، قَالُوا: نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ»، وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْكَبَ "[٥٠]

" الْعُقُوبَاتِ الشَّرْعِيَّةَ إِنَّمَا شُرِعَتْ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ بِعِبَادِهِ، فَهِيَ صَادِرَةٌ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَإِرَادَةِ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ .

وَلِهَذَا يَنْبَغِي لِمَنْ يُعَاقِبُ النَّاسَ عَلَى الذُّنُوبِ أَنْ يَقْصِدَ بِذَلِكَ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ وَالرَّحْمَةَ لَهُمْ، كَمَا يَقْصِدُ الْوَالِدُ تَأْدِيبَ وَلَدِهِ، وَكَمَا يَقْصِدُ الطَّبِيبُ مُعَالَجَةَ الْمَرِيضِ ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ:

---

[٤٨] رِحلة إيمانية مع رِجال ونِساء أَسْلَموا ، ص ٥١٣ ـ ٥١٩ .
[٤٩] منهاج السُّنَّة النبوية ، ٤ / ٤٤ .
[٥٠] صحيح الإمام البخاري ، ٣ / ١٩ رقم ١٨٦٥ .

" «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ»[٥١] ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} [سُورَةُ الْأَحْزَابِ: ٦] "[٥٢]

٥)تعظيم هَدْي النبي ﷺ

" قال الفُضَيْل بن عِيَاض في تفسير قوله تعالى: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا" هو أَخْلَصُه وأَصْوَبُه، قالوا: يا أَبا عليٍّ ما أَخْلَصُه وأَصْوَبُه؟ فقال: إنَّ العملَ إذا كان خالِصًا ولَمْ يَكُنْ صَوَاباً لم يُقْبَلْ، وإذا كان صَوَاباً ولمْ يَكُنْ خالِصاً لم يُقْبَلْ حتّى يكونَ خالِصاً صَواباً. الخَالِصُ أنْ يكونَ للهِ ، والصَّوابُ أنْ يكونَ على السُّنَّةِ. ثم قَرَأَ قولَه تعالى: " فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً " سورة الكهف آية ١١٠

" كان محمد بن المُنْكَدِر إذا ذَكَرَالنبي ﷺ بَكَى حتى يَرْحَمَه الجَالِسون "

" وكان عبد الرحمن بن مَهْدِي إذا قَرَأَ حديثَ النبي صلى الله عليه وسلم ، أَمَرَ الحاضِرِين بالسُّكُوت " لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِي ولا تَجْهَرُوا له بالقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكِمْ لِبَعْضٍ أنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ".

---

[٥١] أبو دَاود ، السُّنَن ، ١ / ٣ رقم ٨ ، وصححه ابن المُنَيِّر والشافعي ، البَدْرُ المُنير ، ٢ / ٢٩٨ ، والألباني ، صحيح سُنن أبي داود ، ١ / ٣٠ رقم ٦ .

[٥٢] منهاج السنة النبوية ، ٥ / ٢٣٧ .

فالمُعَظِّم للنبي ﷺ وسُنته لا يَفْعَل ما لم يَفْعَلْه أو يأمُر بِفعله ، فالخَير كل الخير في ذلك ، " فَمِنْ لَوَازِمِ الشَّرْعِ الْمُتَابَعَةُ وَالِاقْتِدَاءُ، وَتَقْدِيمُ النُّصُوصِ عَلَى آرَاءِ الرِّجَالِ، وَتَحْكِيمُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي كُلِّ مَا تَنَازَعَ فِيهِ الْعُلَمَاءُ "[٥٣]فهذا الواجب على كل مُسلم ، وهو مِن أُسُسِ الإيْمان ، وبه يَنال العبد محَبةَ الله تعالى .

وقد " دَلَّ الْقُرْآنُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ، عَلَى أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ "[٥٤]

" وَصِحَّة الِاقْتِدَاء بالرسول لقاح الْإِخْلَاص فَإِذا اجْتمعَا أثمر قبُول الْعَمَل والاعتداد بِهِ ، وَالْعَمَل لقاح الْعلم فَإِذا اجْتمعَا كَانَ الْفَلَاح والسعادة ، وَإِن انْفَرد أَحدهمَا عَن الآخر لم يفد شيئاً "[٥٥]

"أحضر المأمون تُجَّار الجواهر، فناظرهم على متاع كان معهم، ثم نهض المأمون لبعض حاجته، ثم خرج، فقام له كل مَن كان في المَجْلِس إلا الإمام علي بن الجَعْدِ، فإنّه لم يَقُمْ، فَنَظَرَ إليه المأمونُ كَهَيْئَةِ المُغْضَب، ثم سأَلَه فقال له: يا شيخُ ما مَنَعَكَ أنْ تَقُومَ ليَ كما قامَ أَصحابُكَ؟ قال: أَجْلَلْتُ أَميرَ المؤمنينَ للحديثِ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال المأمُون : وما هو؟ فقال علي بن الجَعْد: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلم: " مَن أَحَبَّ أنْ يَتَمَثَّلَ له الرِّجالُ قِياماً، فَلْيَتَبَوَأَ مَقْعَدَهُ مِن النَّارِ ".

---

[٥٣] ابن القيم ، إعْلَام المُوَقِّعِيْن عن رَبِّ العالَمين ، ١٩٠/٢ .
[٥٤] منهاج السنة النبوية ، ٦ / ١٩٠ .
[٥٥] الفوائد ، ص ١٩٩ .

فأَطْرَقَ المأمونُ مُتَفَكِراً في الحديث، ثم رَفَعَ رَأْسَهُ، فقال: لا نَشْتَرِي إلا مِنْ هذا الشيخ، فاشترى المَأمونُ مِنْهُ ذلكَ اليومِ بقِيمةِ ثلاثينَ ألفَ دِينارٍ "[٥٦]

و"الله قد ضَمِنَ السَّعادَةَ لِمَن أَطاعهُ وأَطاعَ رَسُولَه "[٥٧]

و" كُلُّ ما خالَفَ الرسولَ فهو باطلٌ "[٥٨]

" فأَسْعدُ الناسِ في الدُّنيا والآخِرة ، اتْبَعُهم للرَّسول باطِناً وظاهِراً "[٥٩]

" الْعَمَلُ الْيَسِيرُ الْمُوَافِقُ لِمَرْضَاةِ الرَّبِّ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْعَمَلِ الْكَثِيرِ إِذَا خَلا عَنْ ذَلِكَ أَوْ عَنْ بَعْضِهِ "[٦٠]

" فالواجب اتباع الكتاب المُنْزِل ، والنَّبي المُرْسَل "[٦١]

" الرسُلُ السَّعادةُ في مُتَابَعتهم ، والشَّقَاوَة في ترك مُتابعتهم "[٦٢]

و" مَحبةُ المُوَحِدين " لله تعالى " تكون بِمتابعةِ الرسول صلى الله عليه وسلم والمُجاهَدة في سبيل الله "[٦٣]

---

[٥٦] الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ٢٨١/١٣ .

[٥٧] منهاج السنة النبوية ، ٣ / ٥٠٥ .

[٥٨] منهاج السنة النبوية ، ٥ / ٢٦٢ .

[٥٩] الإخْنَائِيَّة (الرَّدُّ على الإخْنَائِي) ، ص ٥٠٠ .

[٦٠] ابن القيم ، المَنار المُنِيْف في الصحيح والضعيف ، ص ٣٠ .

[٦١] مجموع الفتاوى ، ٦/ ٢٥٨ .

[٦٢] مجموع الفتاوى ، ٨/ ٣١ . بتصرف .

[٦٣] منهاج السنة النبوية ، ٥ / ٣٢٨ .

٦)حُصُول العَبْد على مَحْبة الله له

قال تعالى : {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

أيها الحبيب إنّ " مَحَبةَ الربِّ عبدَه تَسْتَلْزِم إِعْزَازَهُ لِعَبدِه وإِكْرَامِه إيَّاهُ ، والتَّنْوِيه بِذِكْرِهِ وإِلقاء التعظيم والمَهَابة له في قُلوبِ أَوليائِه ، ومحبته سبحانه لرسله اقتَضَتْ أنْ نَوَّه بِذِكْرِهم في أهلِ السَّماءِ والأَرض ، ورَفَعَ ذِكْرَهُم على ذِكْرِ غيرِهِم ، وغَضِبَ على مَن لم يُحِبَّهم ويُوَقِّرَهُم ويُجِلَّهم ، وأنْزَلَ به أنواعَ العُقُوباتِ في الدُّنيا والآخرة ، وَجَعلَ كَرَامَتَه في الدُّنيا والآخرة لِمُحِبّيهم وأَنْصَارِهم وأَتْبَاعِهم"[٦٤]

[٦٤] بدائع الفوائد ، ٢/ ٩٤ .

" وعلامةُ محبةُ اللهِ عزَّ وجَلَّ للعبدِ أنْ يُوفِقَه للعملِ الصالح ، فكُلَّما فُتِحَ بابُ عَمَلٍ صالحٍ وَجَدَهُ مُيَسَّراً، هذا دليلُ مَحَبةُ اللهِ عز وجل للمُؤْمِن، ومِنها أَنْ يَجْعلَ الأتقياءَ يُحِبُّونَهُ، وإذا كان مَن حَولَه أهلَ التقوى لا شَكَّ أنه مِثْلَهُم في ذلكَ.

ومِن مَحبةِ الله عزَّ وجَلَّ للعبدِ أنْ يُلْهِمَه الصَّوَاب في أَقْوَالِه، وأنْ يُبْعِدَه عن اللَّغْو والرَّفَثِ والفُحْشِ، وأَهل المعاصي، ومحبةُ اللهِ للعبدِ تَجْعَلُه يُثَبِّتْهُ بالقول الثابتِ في الحياة الدنيا، وعندَ وفاتِه، ويَجْعلُ معهُ مَن يُؤْنِسُهُ في قَبْرِه مِن رِضا اللهِ سبحانه تَبارَكَ وتعالى، ومَن تَثَبَّتَ في قبرِه ثَبَّتَهُ اللهُ يومَ القيامة "[٦٥]

" ومحبةُ الله للعبد ، تَقْرِيْبُه مِن نفسه بِدَفع الشَّوَاغِلِ والمَعاصي عنه ، وتَطْهِيْر باطِنِه عن كُدُورَاتِ الدُّنيا ، ورَفْعِ الحِجَابِ عن قَلْبِهِ حتى يُشَاهِدُه كأنَّه يَرَاهُ بِقَلْبِهِ "[٦٦]

" والمحبةُ هي التي تُحَرِّك المُحِبَّ في طَلَبِ مَحْبُوبِه الذي يَسْعَدُ بِحُصُولِه، فتُحَرِّكَ مُحِبّ الرحمن ، ومُحِب القرآن ومُحِب العِلْم والإيمان إلى طاعةِ اللهِ وعبادته.

كما أنها تُحَرِّكُ مُحِبَّ المَتاعِ والمال، ومُحِب الأَوثان والصُّلْبان، ومُحِب النِّسْوَان، ومُحِبّ الأَوطان، إلى ما يُحِب، فتُثِيْر مِن كل قلبٍ حركةً إلى مَحبوبه من هذه الأشياء.

وكل هذه المَحَابّ باطلة سِوى مَحبةِ اللهِ ، وما وَالاها مِن مَحبةِ دِيْنِه وكتابه ورسوله وعباده المؤمنين.

فيَتَحَرَّكُ عندَ ذِكْرِ مَحْبوبِه مِنه دُونَ غَيره، ولهذا تَجِدُ مُحِبَّ النِّسْوَان والصِّبْيان، ومُحِب قرآن الشيطان ، بالأصوات والألحان ، لا يَتَحَرَّك عندَ سماعِ العِلم وشَوَاهِد الإيمان، ولا

---

[٦٥] أحمد بن حطيبة ، شرح رياض الصالحين .

[٦٦] الغزالي ، إحياء علوم الدِّين ، ٣٢٩/٤ .

عندَ تلاوةِ القرآن، حتى إذا ذُكِرَ له مَحْبوبه اهْتَزَّ له ورَبَا، وتَحَرَّكَ باطِنه وظاهره شوقاً إليه وطَرَباً لِذِكْرِهِ "[٦٧]

أيها المُحِبُّ لله تعالى ...

" إِذَا تَحَقَّقَ الْقَلْبُ بِالتَّوْحِيدِ التَّامِّ، لَمْ يَبْقَ فِيهِ مَحَبَّةٌ لِغَيْرِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، وَلَا كَرَاهَةٌ لِغَيْرِ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ، لَمْ تَنْبَعِثْ جَوَارِحُهُ إِلَّا بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا تَنْشَأُ الذُّنُوبُ مِنْ مَحَبَّةِ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ، أَوْ كَرَاهَةِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، وَذَلِكَ يَنْشَأُ مِنْ تَقْدِيمِ هَوَى النَّفْسِ عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ وَخَشْيَتِهِ، وَذَلِكَ يَقْدَحُ فِي كَمَالِ التَّوْحِيدِ الْوَاجِبِ، فَيَقَعُ الْعَبْدُ بِسَبَبِ ذَلِكَ فِي التَّفْرِيطِ فِي بَعْضِ الْوَاجِبَاتِ، وَارْتِكَابِ بَعْضِ الْمَحْظُورَاتِ، فَإِنَّ مَنْ تَحَقَّقَ قَلْبُهُ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ، فَلَا يَبْقَى لَهُ هَمٌّ إِلَّا فِي اللَّهِ وَفِيمَا يُرْضِيهِ بِهِ "[٦٨]

أَرُوحُ وَقَدْ خَتَمَتُ على فُؤَادِي... وقَلْبِـي أنْ يَـحِلَّ بِـه سِـوَاكَـا
وَلَو أَنِّي اسْتَطَعْتُ غَضَضْتُ... طَرْفِي فَلَمْ أَنْظُرْ بِه حتى أَرَاكَا
أُحِبُّـكَ بِـكُلِّي لا بِـبَعْضِي... وإِنْ لَـمْ يُـبْـقِ حُـبَّكَ لِي حِرَاكَا

[٦٧] إغاثة اللهفان ، ١٣٢/٢ .
[٦٨] ابن رجب ، جامع العلوم والحِكَم ، ٢/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨ .

٧) دُخول الجَنَّة

قال النبي ﷺ :" مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ "[٦٩]

و" قال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ : بَشِّرْ أُمَّتَكَ أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ "[٧٠]

[٦٩] البخاري ، الجامع الصحيح ، ٧/ ١٤٩ رقم ٥٨٢٧ .
[٧٠] البخاري ، الجامع الصحيح ، ٨/ ٩٤ رقم ٦٤٤٣ .

وقال النبي ﷺ :" مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ»[٧١]
" أَهْلُ السَّعَادَةِ هُمْ أَهْلُ التَّوْحِيدِ "[٧٢]
" والتوحيد أصْلُ الإيمان ، وهو الكلام الفارق بين أهل الجنة ، وأهل النار ، وهو ثَمَنُ الجَنَّة ، ولا يَصحُّ إسلام أحد إلا به "[٧٣]

٨) طَمأنينة القلب (الأمن النفسي)

إنّ العِبَادَ " يَسْعَدون السعادة التامة، إذا صار أحدهم ليس في نفسه إله إلا الله خَلَصَ من شرك المشركين، فإن أكثر بني آدم كما قال تعالى (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)[٧٤] ، فهم يُقِرُّون أنه ربّ العالمين لا ربّ غيرُه، ومع هذا

[٧١] البخاري ، الجامع الصحيح ، ٣٧/١ رقم ١٢٨ .
[٧٢] مجموع الفتاوى ، ٩ / ٢٩ ، ١٨ / ٥٦ .
[٧٣] مجموع الفتاوى ، ٢٤/ ٢٣٥ .
[٧٤] سورة يوسف آية ١٠٦ .

يُشرِكون به في الحبِّ أو التوكُل أو الخوف أو غير ذلك من أنواع الشرك.
وأما التوحيد أن يكون اللهُ أحبَّ إليه من كلّ ما سواه، فلا يُحِبّ شيئًا مثل ما يُحبّ الله، ولا يخافه كما يخاف الله، ولا يرجوه كما يرجوه، ولا يُجلُّه ويُكرِمه مثل ما يُجلّ الله ويُكرمُه، ومن سَوَى بينه وبين غيره في أمَر من الأمور فهو مشركَ، إذ كان المشركون لا يُسَوُّون بينه وبين غيره في كلِّ شيءٍ"[٧٥]

وتأمَّل وتدبَّر قول اللهِ تعالى : " الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ" سورة الأنعام آية ٨٢
" قال عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَمَّا نَزَلَتْ {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا} [الأنعام: ٨٢] إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَا لاَ يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: " لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ {لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} [الأنعام: ٨٢] بِشِرْكٍ، أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ "[٧٦]
فكلما حَقَّق العبد التوحيد في قلبه وسلوكه ، كلما أكرمه الله بطمأنينة وسعادة وراحة وأمان ، مهما كان في بلاء وضيق في مصائب الدنيا ، فالسعادة الحقيقية العظمى تكون في القلب ، لا يأتي بها المال والجاه والمَنْصِب والشهادات العلمية ... ولا حَرجَ في حُصول العبد عليها بالطرق المُباحة ـ ، فكم مِن إنسان مَلك ذلك كله ، مِن الكفار وبعض المسلمين ثم انتحر ـ والعياذ بالله تعالى ـ فما اَتَت لهم براحة البال ، وسعادة النَّفْس .
" الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ " سورة الرعد أية ٢٨

[٧٥] جامع المسائل ، ٣ / ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .
[٧٦] البخاري ، الجامع الصحيح ، ١٤١/٤ رقم ٣٣٦٠ .

وذِكْرُ الله تعالى في الآية الكريمة يَشمل كل يَتَقَرَّب به العبد لله تعالى مِن الطاعات ، وعلى رأسِها التوحيد ، والذِّكْر ، والصلاة والصوم ..وقراءةُ القرآن وتَدَبُّرِه ، والتفكر في خلق السموات والأرض .

فالخَلْقُ " أَسْعدُهم أَطْوَعهم لله ، واتْبَعَهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم "[٧٧]

ذَكَرتْ جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ١٤١٥/٤/٢١هـ نَقْلاً عن مُذَكَرات زوجة الرئيس الأمريكي السابق (جورج بوش) ، قالت: إنها حاولت الانتحار أكثر مِن مَرَّة، وقادتْ السيارةَ إلى الهاويةِ تُريدُ الموتَ، وحاولتْ أنْ تَخْتَنِقَ للتَّخَلُّص مِن هُمُومها وأحْزَانِها.

" وقال الحَجَّاجُ بن يوسف لِخُرَيْمٍ النَّاعِم: ما النِّعْمَةُ؟ قال: الأَمْنُ، فإِنِّي رأيتُ الخائِفَ لا يَنْتَفِعُ بِعَيْشٍ "[٧٨].

" فَالْيَقِينُ عِنْدَ الْمَصَائِبِ بَعْدَ الْعِلْمِ بِأَنَّ اللَّهَ قَدَّرَهَا سَكِينَةَ الْقَلْبِ وَطُمَأْنِينَتَهُ وَتَسْلِيمَهُ وَهَذَا مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} قَالَ عَلْقَمَةُ[٧٩] : هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ وقَوْله تَعَالَى {يَهْدِ قَلْبَهُ} هُدَاهُ لِقَلْبِهِ هُوَ زِيَادَةٌ فِي إيمَانِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى} وَقَالَ: {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} "[٨٠]

---

[٧٧] ابن تيمية ، منهاج السنة النبوية ، ٢ / ٦٠٦ .
[٧٨] ابن عبد رَبِّه ، العِقْدُ الفَرِيْد ، ٧/ ٢٤٤ .
[٧٩] البيهقي ، السُّنَن الكُبرى ، ٤/ ١١٠ رقم ٧١٣٣ .
[٨٠] ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، ٧/ ٢٣٠ .

و" أَصْلَ السَّعَادَةِ وَأَصْلَ النَّجَاةِ مِنْ الْعَذَابِ هُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالْإِيمَانِ بِرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ "[٨١]

و" كَمالُ الإنسان وصلاحه وسعادته ، في أن يَعْبُدَ اللهَ وحدَه لا شريك له "[٨٢]

[٨١] مجموع الفتاوى ، ٩/ ٣٤ .

[٨٢] الصَّفَدِيَّة ، ٢ / ٢٤٢ .

٩) قوة الصبر

أيها الحبيب ... " حقيقةُ الصبرِ مع اللهِ هو ثَبَاتُ القَلْبِ بالاستقامة معه ، وهو أنْ لا يَرُوغَ عَنْهُ رَوَغان الثَّعالِب "[٨٣]

" فَأَفْضَلُ النِّعَمِ نِعْمَةُ الْإِيمَانِ ، وَمَا يُصِيبُ الْإِنْسَانَ إنْ كَانَ يَسُرُّهُ فَهُوَ نِعْمَةٌ بَيِّنَةٌ، وَإِنْ كَانَ يَسُوءُهُ فَهُوَ نِعْمَةٌ؛ لِأَنَّهُ يُكَفِّرُ خَطَايَاهُ وَيُثَابُ عَلَيْهِ بِالصَّبْرِ، وَمِنْ جِهَةِ أَنَّ فِيهِ حِكْمَةً وَرَحْمَةً لَا يَعْلَمُهَا الْعَبْدُ، {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ واللَّهُ يعْلَمُ وَأَنْتُم لا تَعْلَمونَ } وَكِلْتَا النِّعْمَتَيْنِ تَحْتَاجُ مَعَ الشُّكْرِ إلَى الصَّبْرِ، أَمَّا الضَّرَّاءُ فَظَاهِرٌ، وَأَمَّا نِعْمَةُ السَّرَّاءِ فَتَحْتَاجُ إلَى الصَّبْرِ عَلَى الطَّاعَةِ فِيهَا، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أُبْتُلِينَا بِالضَّرَّاءِ فَصَبَرْنَا، وَابْتُلِينَا بِالسَّرَّاءِ فَلَمْ نَصْبِرْ، فَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ الْمَسَاكِينُ، لَكِنْ لَمَّا كَانَ فِي السَّرَّاءِ اللَّذَّةُ، وَفِي الضَّرَّاءِ الْأَلَمُ، اشْتَهَرَ ذِكْرُ الشُّكْرِ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّبْرِ فِي الضَّرَّاءِ، قَالَ تَعَالَى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) سورة هُود "[٨٤]

" وَالْفَرْقُ بَيْنَ الرِّضَا وَالصَّبْرِ: أَنَّ الصَّبْرَ كَفُّ النَّفْسِ وَحَبْسُهَا عَنِ التَّسَخُّطِ مَعَ وُجُودِ الْأَلَمِ، وَتَمَنِّي زَوَالِ ذَلِكَ، وَكَفُّ الْجَوَارِحِ عَنِ الْعَمَلِ بِمُقْتَضَى الْجَزَعِ، وَالرِّضَا: انْشِرَاحُ

---

[٨٣] عُدَّة الصابرين وذَخِيرة الشاكرين ،

[٨٤] **مجموع الفتاوى ، ٨/ ٢٠٩ بتصرف .**

الصَّدْرِ وَسَعَتُهُ بِالْقَضَاءِ، وَتَرْكُ تَمَنِّي زَوَالِ ذَلِكَ الْمُؤْلِمِ، وَإِنْ وُجِدَ الْإِحْسَاسُ بِالْأَلَمِ، لَكِنَّ الرِّضَا يُخَفِّفُهُ لِمَا يُبَاشِرُ الْقَلْبَ مِنْ رُوحِ الْيَقِينِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَإِذَا قَوِيَ الرِّضَا، فَقَدْ يُزِيلُ الْإِحْسَاسَ بِالْأَلَمِ بِالْكُلِّيَّةِ "[٨٥]

" وَالْعَبْدُ مَأْمُورٌ عِنْدَ الْمَصَائِبِ أَنْ يَرْجِعَ لِلْقَدَرِ فَإِنَّ **سَعَادَةَ الْعَبْدِ أَنْ يَفْعَلَ الْمَأْمُورَ وَيَتْرُكَ الْمَحْظُورَ وَيُسَلِّمَ لِلْمَقْدُورِ** قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ. **فَالسَّعِيدُ يَسْتَغْفِرُ مِنْ المعائب وَيَصْبِرُ عَلَى الْمَصَائِبِ** كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} وَالشَّقِيُّ يَجْزَعُ عِنْدَ الْمَصَائِبِ وَيَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ عَلَى المعائب؛ وَإِلَّا فَآدَمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ تَابَ مِنْ الذَّنْبِ وَقَدْ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ وَهَدَاهُ وَمُوسَى أَجَلُّ قَدْرًا مِنْ أَنْ يَلُومَ أَحَدًا عَلَى ذَنْبٍ قَدْ تَابَ مِنْهُ وَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ فَضْلًا عَنْ آدَمَ وَهُوَ أَيْضًا قَدْ تَابَ مِمَّا فَعَلَ حَيْثُ قَالَ: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ} "[٨٦]

" قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التستري: أَفْعَالُ الْبِرِّ يَفْعَلُهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ، وَلَنْ يَصْبِرَ عَنْ الْمَعَاصِي إِلَّا صِدِّيقٌ .

الصَّبْرُ عَنْ الشَّهَوَاتِ وَالْهَوَى الْغَالِبِ لِلَّهِ لَا رَجَاءً لِمَخْلُوقٍ وَلَا خَوْفًا مِنْهُ مَعَ كَثْرَةِ الدَّوَاعِي إلَى فِعْلِ الْفَاحِشَةِ وَاخْتِيَارِهِ الْحَبْسَ الطَّوِيلَ عَلَى ذَلِكَ كَمَا قَالَ يُوسُفُ: {رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ} فَهَذَا لَا يُوجَدُ نَظِيرُهُ إِلَّا فِي خِيَارِ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ وَأَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} فَهَذَا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ

---

[٨٥] جامع العلوم والحِكَم ، ١/ ٤٨٨ .

[٨٦] مجموع الفتاوى ، ٨/ ٤٥٣ ـ ٤٥٤ .

عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} وَلِهَذَا لَمْ يَصْدُرْ مِنْ يُوسُفَ الصِّدِّيقِ ذَنَبٌ أَصْلًا بَلْ الْهَمُّ الَّذِي هَمَّ بِهِ لَمَّا تَرَكَهُ لِلَّهِ كَتَبَ لَهُ بِهِ حَسَنَةً وَلِهَذَا لَمْ يَذْكُرْ عَنْهُ سُبْحَانَهُ تَوْبَةً وَاسْتِغْفَارًا كَمَا ذَكَرَ تَوْبَةَ الْأَنْبِيَاءِ كَآدَمَ وَدَاوُد وَنُوحٍ وَغَيْرِهِمْ وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْ عَنْ أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءِ فَاحِشَةً وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَإِنَّمَا كَانَتْ تَوْبَاتُهُمْ مِنْ أُمُورٍ أُخَرَ هِيَ حَسَنَاتٌ بِالنِّسْبَةِ إلَى غَيْرِهِمْ وَلِهَذَا لَا يُعْرَفُ لِيُوسُفَ نَظِيرٌ فِيمَا أُبْتُلِيَ بِهِ مِنْ دَوَاعِي الْفَاحِشَةِ وَتَقْوَاهُ وَصَبْرِهِ فِي ذَلِكَ. وَإِنَّمَا يُعْرَفُ لِغَيْرِهِ مَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ {سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ: إمَامٌ عَادِلٌ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَرَجُلٌ مُعَلَّقٌ قَلْبُهُ بِالْمَسْجِدِ إذَا خَرَجَ حَتَّى يَعُودَ إلَيْهِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجِمَالٍ فَقَالَ: إنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ} وَإِذَا كَانَ الصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى لِئَلَّا يَفْعَلَ الْفَاحِشَةَ أَعْظَمَ مِنْ صَبْرِهِ عَلَى ظُلْمِ إخْوَتِهِ فَكَيْفَ بِصَبْرِ الرُّسُلِ عَلَى أَذَى الْمُكَذِّبِينَ لِئَلَّا يَتْرُكُوا مَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ دَعْوَتِهِمْ إلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيِهِمْ عَنْ وَالْفَحْشَاءَ مُطْلَقًا وَلَوْ كَانَ قَدْ فَعَلَ صَغِيرَةً لَتَابَ مِنْهَا. وَالْقُرْآنُ لَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ تَوْبَتِهِ. وَمَنْ وَقَعَ مِنْهُ بَعْضُ أَنْوَاعِ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ قَدْ صُرِفَ عَنْهُ بَلْ يَكُونُ قَدْ وَقَعَ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْهُ وَالْقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ هَذَا "[٨٧]

ومِن أَجمل القَصَص :

أنّ شخصاً خَرج مِن بيته وهو راكب لسيارته ، فضرب فتاةً بسيارته ، ولم تَمُت الفتاة ، وأُخِذَ الرجل إلى السِّجن ، في

[٨٧] مجموع الفتاوى ، ١٧ / ٢٤ .

تللك الليلة ، وحَزِن حُزْناً شديداً مِن هذا البلاء الشديد ، ثم خَرج في اليوم التالي من السجن لإحضارِ أوراق رسمية للشُّرْطة ، فلمّا عاد للبيت وجَدَ ماذا يَنتظره ؟! سَقف غُرفة نَومِه قد وقَع على سرير نومه !! فسجد حَمْداً لله تعالى أنْ نَجَّاهُ مِن الموت .

" فَلَا بُدَّ مِنْ الصَّبْرِ عَلَى فِعْلِ الْحَسَنِ الْمَأْمُورِ بِهِ وَتَرْكِ السَّيِّئِ الْمَحْظُورِ؛ وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الصَّبْرُ عَلَى فِعْلِ الْأَذَى وَعَلَى مَا يُقَالُ؛ وَالصَّبْرُ عَلَى مَا يُصِيبُهُ مِنْ الْمَكَارِهِ؛ وَالصَّبْرُ عَنْ الْبَطَرِ عِنْدَ النِّعَمِ: وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الصَّبْرِ. وَلَا يُمْكِنُ الْعَبْدُ أَنْ يَصْبِرَ إنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يَطْمَئِنُّ بِهِ وَيَتَنَعَّمُ بِهِ وَيُغْتَذَى بِهِ وَهُوَ الْيَقِينُ "[٨٨]

و " لا بُدَّ للسَّالكِ إلى الله مِن هِمَّةٍ تُسَيِّرُه وتُرَقِّيْه ، وعِلْمٌ يُبَصِّرُه ويَهْدِيه "[٨٩]

والمُسْلِم يجب أنْ يَعتقِدَ أنّ " الربَّ عادِلٌ في خَلْقِهِ وأَمْرِهِ ، مُنَزَّهٌ عن الظُّلْم "[٩٠]
وهذا يجعل المسلم يصبِر ويَحْتمِل البلاء والمِحَن ، ويَستجيب لأَمرِ ونهيه ويُصَدِّق بِما يُخْبِرُ به سبحانه وتعالى .
" وكانت امرأةٌ مِن العابدات بالبَصرة، تُصابُ بالمصائب فلا تَجْزَع، فَذَكَرُوا لها ذلك، فقالت: ما أُصابُ بِمصيبةٍ ، فأَذْكُرُ معها النارَ، إلا صارتْ في عَيني أَصغر مِن الذُّباب "[٩١]

---

[٨٨] مجموع الفتاوى ، ٢٨ / ١٥٣ .
[٨٩] مَرْعي الكَرماني ، الشهادة الزَّكِية في ثناءِ الأَئِمة على ابن تيمية ، ص ٣٥ ، والمُسْتدرَكُ على مجموع الفتاوى ، ١ / ١٤٣ .
[٩٠] جامع المسائل ، ٩ / ٤٢٢ .
[٩١] محمد المنبجي ، تسلية أهل المصائب ، ص ٣٠ .

فتأمّل أيها الحبيب فإنّ " الْمصَالحَ والخيرات وَاللَّذَّات والكمالات كلهَا ، لَا تنَال إِلَّا بحظ من الْمَشَقَّة ، وَلَا يعبر إِلَيْهَا إِلَّا على جسر من التَّعَب ، وَقد أجمعَ عقلاءُ كل أُمَّةٍ على أَنّ النَّعيمَ لَا يُدْرَك بالنَّعيم ، وَإِنّ مِن آثَرَ الرَّاحَة فَاتَتْهُ الرَّاحَة ، وَإِنه بِحَسب ركُوب الْأَهْوَال وإحتمال المشاق ، تكونُ الفَرْحةُ واللَّذَة ، فَلَا فَرْحَةَ لِمَن لَا هَمَّ لَهُ ، وَلَا لَذَّةَ لِمنْ لَا صَبرَ لَهُ ، وَلَا نعيمَ لِمنْ لَا شَقَاءَ لَهُ ، وَلَا رَاحَة لِمَن لَا تَعب لَهُ ، بل إِذا تَعِبَ العَبْدُ قَلِيلاً استراحَ طَويلاً ، وَإِذا تَحَمَّلَ مَشَقةَ الصَّبْرِ سَاعَةً ، قَادَهُ لحياة الْأَبَد ، وكل مَا فِيهِ أهل النَّعيم الْمُقِيم ، فَهُوَ صَبرُ سَاعَةٍ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَكُلَّما كَانَت النُّفُوسُ أَشْرَف والهمة أعلا ، كَانَ تَعبُ الْبدنِ أَوْفَر ، وحَظُّه مِن الرَّاحَة أقل . كَمَا قَالَ المتنبي:

وَإِذا كَانَت النُّفُوس كبارًا ... تعبت فِي مرادها الْأَجْسَام "[٩٢]

[٩٢] ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ، ٢ / ١٥ .

١٠) قوة اليقين بالله تعالى

" الْيَقِينُ " هُوَ طُمَأْنِينَةُ الْقَلْبِ، وَاسْتِقْرَارُ الْعِلْمِ فِيهِ "[٩٣]

قال الله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ "السجدة: ٢٤
" مَن أُعْطِيَ الصَّبْرَ واليقين جَعَلَهُ اللهُ إِمَاماً في الدِّيْن "[٩٤]
" فَبِالصَّبرِ تُتْرَكُ الشَّهواتُ، وَبِاليقِينِ تُدْفَعُ الشُّبُهاتُ "[٩٥]
و" اليقين رأسُ مال الدِّيْن "[٩٦]

" مَن حَقَّقَ اليقين، وَثِقَ باللهِ في أُمورِه كُلِّها، ورَضِيَ بِتَدْبِيره له، وانْقَطَعَ عن التَعَلُّق بالمَخْلُوقين رجاءً وخوفاً، ومَنَعَهُ ذلكَ مِن طَلَبِ الدُّنيا بالأَسباب المَكْرُوهة، ومَن كان كذلك كان زاهداً في الدُّنيا حقيقة، وكان مِن أَغْنى النَّاس، وإنْ لم يَكُنْ له شيءٌ مِن الدنيا ، كما قال عَمَّار: كَفَى بالموت واعظاً، وكَفَى باليقين غِنَىً، وكَفَى بالعبادةِ شُغْلاً.

وقال الصحابي ابنُ مَسْعُود رضي الله عنه: اليقينُ أنْ لا تَرْضَي النَّاس بِسَخَطِ اللهِ، ولا تَحْمِدُ أَحَداً على رِزْقِ اللهِ، ولا تَلُمْ أَحَداً على ما لم يُؤْتِكَ اللهُ، فإنّ الرزقَ لا يَسُوقُه حِرْصٌ حَرِيْصٌ، ولا يَرُدُّهُ كراهةَ كارِهٍ، فإنّ اللهَ تباركَ وتعالى -

[٩٣] مجموع الفتاوى ، ٣ / ٣٢٩ .
[٩٤] ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، ٦/ ٢١٥ .
[٩٥] ابن القيم ، إعْلَام المُوَقعين ، ١/ ١٠٦ .
[٩٦] الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ١/ ٧٢ .

بقِسْطِهِ وعِلْمِه وحُكْمِهِ - جَعَلَ الرُّوحَ والفَرَحَ في اليقينِ والرِّضا، وجَعَلَ الهَمَّ والحُزْنَ في الشَّكِّ والسُّخْطِ "[٩٧]
" ومَن كان صادِقَ الإيمان قَوِيَّ اليقينِ تَحَصَّن واعْتَصَمَ باللهِ، واسْتَقَامَ على شَرْعِهِ "[٩٨]

" وَالسَّعَادَةُ فِي مُعَامَلَةِ الْخَلْقِ: أَنْ تُعَامِلَهُمْ لِلَّهِ فَتَرْجُوَ اللَّهَ فِيهِمْ وَلَا تَرْجُوَهُمْ فِي اللَّهِ وَتَخَافَهُ فِيهِمْ وَلَا تَخَافَهُمْ فِي اللَّهِ، وَتُحْسِنَ إلَيْهِمْ رَجَاءَ ثَوَابِ اللَّهِ لَا لِمُكَافَأَتِهِمْ وَتَكُفَّ عَنْ ظُلْمِهِمْ خَوْفًا مِنْ اللَّهِ لَا مِنْهُمْ. لَا تَفْعَلْ شَيْئًا مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ وَالْقُرَبِ لِأَجْلِهِمْ لَا رَجَاءَ مَدْحِهِمْ وَلَا خَوْفًا مِنْ ذَمِّهِمْ بَلْ أُرْجُ اللَّهَ وَلَا تَخَفْهُمْ فِي اللَّهِ فِيمَا تَأْتِي وَمَا تَذَرُ بَلْ افْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ وَإِنْ كَرِهُوهُ. فَإِنَّ الْيَقِينَ يَتَضَمَّنُ الْيَقِينَ فِي الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَمَا وَعَدَ اللَّهُ أَهْلَ طَاعَتِهِ وَيَتَضَمَّنُ الْيَقِينَ بِقَدَرِ اللَّهِ وَخَلْقِهِ وَتَدْبِيرِهِ فَإِذَا أَرْضَيْتَهُمْ بِسَخَطِ اللَّهِ لَمْ تَكُنْ مُوقِنًا لَا بِوَعْدِهِ وَلَا بِرِزْقِهِ فَإِنَّهُ إنَّمَا يَحْمِلُ الْإِنْسَانَ عَلَى ذَلِكَ إمَّا مَيْلٌ إلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ الدُّنْيَا، فَيَتْرُكُ الْقِيَامَ فِيهِمْ بِأَمْرِ اللَّهِ؛ لِمَا يَرْجُوهُ مِنْهُمْ. وَإِمَّا ضَعْفُ تَصْدِيقٍ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ أَهْلَ طَاعَتِهِ مِنْ النَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ وَالثَّوَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَإِنَّك إذَا أَرْضَيْتَ اللَّهَ نَصَرَكَ وَرَزَقَكَ وَكَفَاكَ مُؤْنَتَهُمْ فَإِرْضَاؤُهُمْ بِسَخَطِهِ إنَّمَا يَكُونُ خَوْفًا مِنْهُمْ وَرَجَاءً لَهُمْ؛ وَذَلِكَ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ وَإِذَا لَمْ يُقَدَّرْ لَك مَا تَظُنُّ أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَهُ مَعَك: فَالْأَمْرُ فِي ذَلِكَ إلَى اللَّهِ لَا لَهُمْ ، فَإِنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ فَإِذَا ذَمَمْتَهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُقَدَّرْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ ضَعْفِ يَقِينِك فَلَا تَخَفْهُمْ وَلَا تَرْجُهُمْ وَلَا تَذُمَّهُمْ مِنْ جِهَةِ نَفْسِك وَهَوَاك؛ لَكِنْ مَنْ حَمِدَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ الْمَحْمُودُ وَمَنْ ذَمَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ الْمَذْمُومُ. وَلَمَّا {قَالَ بَعْضُ وَفْدِ بَنِي تَمِيمٍ: يَا مُحَمَّدُ أَعْطِنِي فَإِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ وَإِنَّ

[٩٧] ابن رجَب ، جامع العُلوم والحِكَم ، ٢/ ١٨١ .
[٩٨] بكر أبو زيد ، حِرَاسَة الفضيلة ، ص ١٣ .

ذَمِّي شَيْنٌ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ} . وَكَتَبَتْ عَائِشَةُ إلَى مُعَاوِيَةَ : " مَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ عَادَ حَامِدُهُ مِنْ النَّاسِ لَهُ ذَامًّا " هَذَا لَفْظُ الْمَأْثُورِ عَنْهَا وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْفِقْهِ فِي الدِّينِ. فَمَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِهِمْ كَانَ قَدْ اتَّقَاهُ، وَكَانَ عَبْدَهُ الصَّالِحَ وَاَللَّهُ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وَهُوَ كَافٍ عَبْدَهُ {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} . فَاَللَّهُ يَكْفِيهِ مُؤْنَةَ النَّاسِ بِلَا رَيْبٍ وَأَمَّا كَوْنُ النَّاسِ كُلِّهِمْ يَرْضَوْنَ عَنْهُ: فَقَدْ لَا يَحْصُلُ ذَلِكَ لَكِنْ يَرْضَوْنَ عَنْهُ إذَا سَلِمُوا مِنْ الْأَغْرَاضِ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْعَاقِبَةُ وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا كَالظَّالِمِ الَّذِي يَعَضُّ عَلَى يَدِهِ يَقُولُ: {يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا} {يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا} وَأَمَّا كَوْنُ حَامِدِهِ يَنْقَلِبُ ذَامًّا: فَهَذَا يَقَعُ كَثِيرًا وَيَحْصُلُ فِي الْعَاقِبَةِ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَى لَا يَحْصُلُ ابْتِدَاءً عِنْدَ أَهْوَائِهِمْ وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ.

فَالتَّوْحِيدُ ضِدُّ الشِّرْكِ فَإِذَا قَامَ الْعَبْدُ بِالتَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ حَقُّ اللَّهِ فَعَبَدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا كَانَ مُوَحِّدًا. وَمِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ: التَّوَكُّلُ عَلَيْهِ وَالرَّجَاءُ لَهُ وَالْخَوْفُ مِنْهُ فَهَذَا يَخْلُصُ بِهِ الْعَبْدُ مِنْ الشِّرْكِ. وَإِعْطَاءُ النَّاسِ حُقُوقَهُمْ وَتَرْكُ الْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ يَخْلُصُ بِهِ الْعَبْدُ مِنْ ظُلْمِهِمْ وَمِنْ الشِّرْكِ بِهِمْ. وَبِطَاعَةِ رَبِّهِ وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ يَخْلُصُ الْعَبْدُ مِنْ ظُلْمِ نَفْسِهِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: {قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ} . فَالنِّصْفَانِ يَعُودُ نَفْعُهُمَا إلَى الْعَبْدِ "[٩٩]

وتأمل ببصيرتك وعَقْلِك في هذا الكلام النَّفيس الذي يقوله الصحابي الجليل عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه : " إنَّ

[٩٩] مجموع الفتاوى ، ١/ ٥١ ـ ٥٣ .

مِنَ الْيَقِينِ أَنْ لَا تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْ لَا تَحْمِدَ أَحَدًا عَلَى مَا رَزَقَكَ اللَّهُ، وَلَا تَذُمَّنَّ أَحَدًا عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ، فَإِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَمْنَعُهُ كَرَاهَةُ كَارِهٍ، فَإِنَّ اللَّهَ بِحُكْمِهِ وَعَدْلِهِ وَقَصْدِهِ جَعَلَ الرَّوَحَ وَالْفَرَجَ فِي الْيَقِينِ وَالرِّضَا، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ "[١٠٠]

و" الْيَقِينُ يَنْتَظِمُ (يَحْصُلُ) مِنْهُ أَمْرَانِ: عِلْمُ الْقَلْبِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ. فَإِنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَعْلَمُ عِلْمًا جَازِمًا بِأَمْرٍ؛ وَمَعَ هَذَا فَيَكُونُ فِي قَلْبِهِ حَرَكَةٌ وَاخْتِلَاجٌ مِنْ الْعَمَلِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ ذَلِكَ الْعِلْمُ كَعِلْمِ الْعَبْدِ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ؛ وَلَا خَالِقَ غَيْرُهُ؛ وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ؛ فَهَذَا قَدْ تَصْحَبُهُ الطُّمَأْنِينَةُ إلَى اللَّهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ وَقَدْ لَا يَصْحَبُهُ الْعَمَلُ بِذَلِكَ؛ إمَّا لِغَفْلَةِ الْقَلْبِ عَنْ هَذَا الْعِلْمِ وَالْغَفْلَةُ هِيَ ضِدُّ الْعِلْمِ التَّامِّ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ ضِدًّا لِأَصْلِ الْعِلْمِ، وَإِمَّا لِلْخَوَاطِرِ الَّتِي تَسْنَحُ فِي الْقَلْبِ مِنْ الِالْتِفَاتِ إلَى الْأَسْبَابِ وَإِمَّا لِغَيْرِ ذَلِكَ.
فَأَهْلُ الْيَقِينِ إذَا ابْتُلُوا ثَبَتُوا؛ بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ فَإِنَّ الِابْتِلَاءَ قَدْ يُذْهِبُ إيمَانَهُ أَوْ يُنْقِصُهُ. قَالَ تَعَالَى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} أَلَا تَرَى إلَى قَوْله تَعَالَى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} . فَهَذِهِ حَالُ هَؤُلَاءِ. وَقَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} إلَى قَوْلِهِ: {هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إلَّا غُرُورًا} . وَقَالَ تَعَالَى: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ

[١٠٠] معجم ابن الأعرابي ، ٢/ ٧٣٥ .

إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} الْآيَتَيْنِ. وَأَمَّا كَيْفَ يَحْصُلُ الْيَقِينُ فَبِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ.

وَالثَّانِي: تَدَبُّرُ الْآيَاتِ الَّتِي يُحْدِثُهَا اللَّهُ فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ الَّتِي تُبَيِّنُ أَنَّهُ حَقٌّ.

وَالثَّالِثُ: الْعَمَلُ بِمُوجِبِ الْعِلْمِ قَالَ تَعَالَى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْقُرْآنِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} الْآيَةَ. فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يَرَى الْآيَاتِ الْمَشْهُودَةَ لِيُبَيِّنَ صِدْقَ الْآيَاتِ الْمَسْمُوعَةِ مَعَ أَنَّ شَهَادَتَهُ بِالْآيَاتِ الْمَسْمُوعَةِ كَافِيَةٌ "[١٠١]

[١٠١] مجموع الفتاوى ، ٣/ ٣٢٩ ـ ٣٣١ . باختصار

١١) حُسْن الظَّن بالله تعالى

" مَرِضَ أَعْرَابِيٌّ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّكَ تَمُوتُ. قَالَ: إِلَى أَيْنَ يُذْهَبُ بِي؟ قَالَ: إِلَى اللَّهِ. قَالَ: فَمَا كَرَاهَتِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَى مَنْ لَا أَرَى الْخَيْرَ إِلَّا مِنْهُ؟ "[١٠٢]

أَحْسِن الظَّنَّ بِرَبٍّ لمْ يَزَلْ ... دَائِمَ الْإِحْسَان برا لم يمل
مَن غَدَتْ نَعْمَاؤُهُ فِي ذَا الوَرَى ... جملا ترفق فِي إِثْر جمل
وسع الْعَالم فضلا وجدا ... مُرْسل العزلاء سجا مُتَّصِل
وَإِذا لم تحسن الظَّن بِهِ ... فِيمَن تحسن إِن خطب نزل
وَإِذا لم ترجه من يرتجى ... وَإِذا لم تسألنه من ذَا تسل
فلتطلب نفسا عَلَيْهِ وَله ال ... مثل الْأَعْلَى والأسنى الْأَجَل[١٠٣]

" قال منصور بن عمار: لما قَدِمْتُ مصرَ كانوا في قَحْطٍ ، فلمّا صَلُّوا الجمعة ضَجُّوا بالبكاء والدعاء.

فحَضَرَتني نِيَّةٌ، فَصِرتُ إلى الصَّحْن وقلتُ: يا قوم تَقَرَّبُوا إلى الله بالصدقة، فما تُقُرِّبَ إليه بأَفْضَل مِنها. ثم رَمَيتُ بِكِسائِي وقلتُ: اللهمَّ هذا كِسَائِي وهو جَهْدِي. فَتَصَدَّقُوا حتى جَعَلتِ المرأةُ تُلقي

[١٠٢] ابن أبي الدُّنيا ، المُحْتَضِرين ، ص ٣٨ .
[١٠٣] العاقبة في ذِكْر الموت ، ص ١٤٩ .

خُرْصَها،[١٠٤] حتى فاضَ الكِساءُ مِن أَطْرَافه، ثم هَطَلَتْ السماءُ ومُطِرْنا. فَخَرَجَ الناسُ في الطِّين والمَطَر، فَدَفَعْتُ، يعني الصدقات، إلى اللَّيث وابن لَهِيْعَة، فَنَظَرا إلى كثرةِ المالِ ، فقال أَحدُهما لِصاحبه: لا يُحَرَّك. وَوَكَّلُوا به الثِّقات حتى أَصْبَحُوا. فَرُحْتُ أنا إلى الإِسْكَنْدِرية، فَبَيْنَا أنا أَطُوفُ على حِصْنِها إذا رَجُلٌ يَرْمَقُني، فقلتُ: ما لكَ؟

قال: أنتَ المُتَكلِّم يوم الجمعة؟ قلتُ: نعم! قال: إنَّك صِرتَ فِتنة. قالوا:ذاكَ الخَضِر دَعَا، فاسْتُجِيبَ له.

قلتُ: بل أنا العبدُ الخَاطِئُ[١٠٥]. فقدِمتُ مصر، فلقيتُ الليثَ فلمَّا نَظَرَ إلى قال: أَنتَ المُتَكلِّم يوم الجمعة؟ قلتُ: نعم!.

فأَقْطَعَني خَمسةَ عشرَ فَدَّاناً،[١٠٦] وصِرْتُ إلى ابنِ لَهِيْعةَ فأَقْطَعَني ـ يعني أَعْطاني ـ خمسةَ فَدَادِيْن "[١٠٧]

أَحْسِنِ الظَّنَّ بِمَنْ قَدْ عَوَّدَكَ ... كُلَّ إِحْسانٍ وَسَوَى أَودَك

إنَّ رَبّاً كان يَكْفِيْكَ الذي ... كانَ بالأَمْسِ سَيَكْفِيْكَ غَدَك

قال أبو نَوَّاس :

يا ربِّ إنْ عَظُمَتْ ذُنُوبي كَثْرَةً ... فلقد عَلِمْتُ بأنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ

إنْ كانَ لا يَرْجُوكَ إلا مُحْسِنٌ ... فَبِمَنْ يَلُوذُ ويَسْتَجِيْرِ المُجْرِمُ

أَدْعُوكَ رَبِّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعاً ... فإذا رَدَدْتَ يَدي فَمَنْ ذا يَرْحَمُ

مَالي إِليكَ وَسِيلة إلا الرَّجا ... وجَميل عَفْوكَ ثُمَّ أَنِّي مُسْلِمُ

---

[١٠٤] الحَلَقَةُ الصغيرةُ مِن الحُلِيّ ، لسان العرب ، ٢٢/٧ .

[١٠٥] الآثِم .

[١٠٦] المَزْرَعة ، لسان العرب ، ٣٢١/١٣ .

[١٠٧] تاريخ الإسلام ، ١٣/ ٤١٠ ـ ٤١١ .

" قال أحمد بن إسماعيل ابن عم أبي زُرْعة ، أنّه سَمِعَ أَبَا زُرْعة يقولُ فِي مَرضه الَّذِي مات فِيهِ: اللَّهُمَّ إنّي أَشْتَاقُ إلى رُؤْيَتك، فإنْ قالَ لي: بأيّ عَمَلٍ اشْتقتَ إليّ؟ قلتُ: بِرَحْمَتِكَ يا ربّ "[١٠٨]

يا الله ، ما أجمل هذا الحُسْن الظن بالله !! بعد العمل ، والجِد والاجتهاد في التقرُّب لله تعالى ، في فِعْلِ ما يُحبُّه الله تعالى ، وتَرْك ما يَبْغضه اللهُ تعالى .

[١٠٨] الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ٦ / ٣٦٤ .

١٢) تحقيق الخوف مِن الله تعالى

" قال الإمام بلال بن سَعدٍ: لا تَكُنْ وَلِيًّاً للهِ تعالى في العَلانيةِ وعَدُوَّهُ في السِّرِّ"[١٠٩]

" قال منصور بن عمار: خرَجْتُ ذاتَ ليلةٍ فظَنَنْتُ أَنِّي قد أَصبحتُ، فإذا عليّ ليلٍ، فَقَعَدْتُ عندَ بابٍ صغيرٍ، فإذا بصوتِ شابٍّ يَبْكِي ويقول: وعِزْتِكَ وجَلالِكَ ما أَردتُ بمَعصيتي مُخَالَفَتِكَ ، ولقد عَصَيْتُكَ حين عَصَيْتُكَ، وما أنا بِنَكَالِكَ[١١٠] جاهلٌ، ولا بعِقُوبَتك مُتَعَرِّضٌ، ولا بِنَظَرِكَ مُسْتَخْفٍ، ولكنْ سَوَّلَتْ لي نَفْسي، وغَلَبَتْني شِقْوَتي، وغَرَّني سِتْرَكَ المَرْخِي عليَّ، عَصَيتُكَ حين عَصَيتُكَ بِجَهْلِي، وخَالَفْتُكَ بِجَهْدِي، فالآن مِن عَذَابِكَ مَن يَسْتنقِذُني، وبِحَبْلِ مَن أَتَصِلُ إنْ قَطعتَ حَبْلَكَ عَنِّي؟ وَا سَوْأَتَاهُ على ما مَضَى مِن أَيَّامي في مَعصيةِ رَبِّي، يا وَيْلِي كم أَتوبُ وكم أَعُودُ، قد آنَ لِيْ أنْ أَسْتَحِي مِن ربي.

قال منصورُ: فلمَّا سمعتُ كلامَه، قُلْتُ: أَعوذُ باللَّهِ مِن الشيطان الرجيم، بسم اللَّه الرَّحْمَن الرحيم " يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ" الآية، فسمعتُ صوتاً واضْطِرَاباً شَدِيداً، فمَضيتُ لِحَاجَتي، فلمّا أَصبحتُ رَجعتُ، وإذا أنا بجَنازةٍ على البابِ، وعَجُوزٌ تَذْهَبُ.

وتَجِيءُ، فقلتُ لها: مَن الميت؟ فقالت: اذْهَب عَنِّي لا تُجَدِّد عليَّ أَحْزاني ، فقلتُ: إني رَجُلٌ غريبٌ. فقالتْ: هذا ولَدي، مَرَّ بِنَا البارحةَ رَجُلٌ ، ـ لا جَزَاهُ اللهُ خيراً ـ فَقَرأَ آيةً فيها ذِكْرُ النَّار، فلمْ يَزَلْ وَلَدي يَضْطَرِبُ ويَبْكي حتى ماتَ.

---

[١٠٩] ابن أَبي الدُّنيا ، الإخلاص والنِّيَّة ، ص ٥٤ رقم ٢٦ .

[١١٠] العذاب .

قال منصور: هكذا واللهِ صِفَةُ الخائفينَ يا ابنَ عمار"[١١١]

" قال أبو عثمان سعيد الحيوي : الخوفُ مِن اللهِ يُوصِلُكَ إليه، والعُجْبُ يَقْطَعُكَ عنه "[١١٢]

والخوف الصحيح : هو الذي يَجْعلُكَ تَبْعُد عن المعصية ، فكلما ابتعد الشخص عن المعصية كان في قلبه خوف أكبر مِن الله تعالى .

[١١١] المُنْتَظَم ، ٦٥/٩ .

[١١٢] ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ٢/ ٣٠١ .

١٣) تحَقيق الصِّدْق الداخلي والخارجي في النَّفْسِ

"مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا " سورة الأحزاب آية ٢٣

" وَمن صدق الله فِي جَمِيع أُمُوره صنع الله لَهُ فَوق مَا يصنع لغيره ، وَهَذَا الصدْق معنى يلتئم من صحّة الْإِخْلَاص وَصدق التوكّل فَأَصدق النَّاس من صحّ إخلاصه وتوكّله "[١١٣]

" وعلامةُ الصِّدْق إرادةُ اللهِ وَحدَه بِالْعَمَلِ وَالْقَوْل ، وَتَرْكِ التَزَيُّنِ وَحُبّ ثَوَابِ المخلوقين ، والصدقِ فِي الْكلام "[١١٤]

" مِن علامةِ الصدقِ، أنْ تكونَ كلمتُكَ واحدةٌ في الرَّغبة والرَّهْبة والطَّمَعِ واليأْسِ "[١١٥]

" قالت عائشة رضي الله عنها: مَن أَرْضَى اللهَ بإِسْخاط الناسِ ، كَفَاهُ اللهُ ما بَيْنَهُ وبينَ الناس ، ومَن أَرْضَى الناسَ بإِسْخاطِ اللهِ ، وكَلَهُ اللهُ إلى الناسِ ، ومَن أَصْلَحَ سَرِيرته أصْلَحَ اللهُ عَلانيته[١١٦] .

قال ابن الجَوْزِي :" والله، لقد رأيت من يكثر الصلاة والصوم والصمت، ويتخشع في نفسه ولباسه، والقلوب تنبو عنه، وقدره في النفوس ليس بذاك!
ورأيتُ مَن يَلْبَس فاخرَ الثياب، وليس له كبير نَفْل، ولا تَخَشُّع، والقلوبُ تَتَهافَتُ على مَحبته، فتَدَبَّرْتُ السَّببَ، فوجَدْتُه

---

[١١٣] الفوائد ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧ .
[١١٤] المُحَاسبي ، آداب النُّفُوس ، ص ١٥٣ .
[١١٥] السِّبَاعي ، هكذا علمتني الحياة ، ص ١٧١ .
[١١٦] ابن المُبَرِّد ، الكامِلُ في اللُّغَةِ والأَدَب ، ١ / ١٩٤ .

السَّرِيرة. كما رُويَ عن أنس بن مالك: أنَّه لم يَكُن له كبير عَمَلٍ مِن صلاةٍ وصوم؛ وإنما كانتْ له سَرِيرة.
فمَن أَصْلَحَ سَرِيرته، فاحَ عَبير فَضْلِه، وعَبَقَت القلوب بِنَشْرِ طِيْبِه، فاللهَ اللهَ في السَّرائر، فإنَّه ما يَنفع مع فسادها صَلاح ظاهر "[١١٧]

سَأَلتك بِاللَّه يَا سامعَ النِّداءِ ... وَيَا مَن لَهُ النَّعْماء والجُود والجِدَا
بِحَقِّكَ يَا مَنَّانُ أَصْلِحْ سَرِيرتِي ... وَحَقِّق رَجَائِي وَآتِ نَفْسِي لَهَا الْهُدَى
وَكُنْ لِي وَكُنْ لِي مُعْطِياً ومُلَاطِفَاً ... كَرِيْماً رَفِيقًا واحْمِ رُوحِي مِن الرَّدَى
وَلليُسْرِ يَسِّرْنَا وللرُّشْدِ فاهْدِنا ... وبالعَفْوِ سَامِحْنا لَدَى فَاقَتِي غَدا[١١٨]

[١١٧] صَيْدُ الخاطِر ، ص ٢٢٠ .
[١١٨] البريهي ، تاريخ صُلَحاء اليمن ، ص ٣٧ .

١٤) مُحَفِّز لِلإقْبال على الطاعات

قال العلامة محمد بن عُثَيْمين :" التوحيدُ أَكْبَر دَعَامَة للرَّغْبَة في الطاعة ، لأن المُوَحِّدَ يَعملُ لله سبحانه وتعالى؛ وعليه فهو يَعملُ سِرًّا وعلانية، أمّا غير المُوَحِد؛ كالمُرائي مثلا؛ فإنه يَتَصَدَّق ويُصلي، ويَذْكُر الله إذا كان عندَهُ مَن يَرَاهُ فقط ، ولهذا قال بعضُ السلف: "إني لأَوَدُّ أنْ أَتَقَربُ إلى الله بطاعةٍ لا يَعْلمُها إلا هو"[١١٩]

و " النَّعيمُ التَّام هو في الدِّينِ الحق ، فأهل الدِّين الحق هم الذين لهم النَّعيم الكامل ، كَمَا أخبر الله بذلك فِي كِتَابه فِي غير مَوضِع كَقَوْلِه : " الصِّرَاط الْمُسْتَقيم صِرَاط الَّذين أَنْعَمت عَلَيْهِم غير المغضوب عَلَيْهِم وَلَا الضَّالّين"[١٢٠]

[١١٩] القول المُفِيْد على كتاب التوحيد ، ٦١/١ .
[١٢٠] ابن تيمية ، جامع الرسائل ، ٢ / ٣٢٣ .

١٥) الثباتُ على الاسْتقامة

" الكَرَامةُ هي لُزوم الاستقامة ، وهي طاعة الله "[١٢١]
وقد " قالت الحكماء: أصل الخيرات كلها في ثبات القلب، ومنها تستمد جميع الفضائل وهي الثبات والقوة على ما يوجبه العدل والعلم "[١٢٢]

[١٢١] جامع المسائل ، ٨ / ٢٤٥ .

[١٢٢] الطَّرْطُوشي ، سِرَاج الملوك ، ص ١٧١ .

١٦) غِنَى القلبِ بالرَّبِّ عن الخَلْقِ

" **لا يَسْتغني القلبُ إلا بعبادة الله تعالى**، فإنّ الإنسانَ خُلِق مُحتاجًا إلى جَلْبِ ما ينفعُه ودَفْع ما يَضُرُّه، ونفسُه مريدةٌ دائمًا، ولابُدَّ لها من مرادٍ يكوَن غايةَ مطلوبهَا، فتَسْكُنَ إليه وتَطْمَئِنُّ به، وليس ذلك إلا الله وحدَه لا شريكَ له. فإذا لم تكن مُخْلِصَةً له الدِّينَ عبدتْ غيرَه، فأشركتْ به عبادَةً واستعانَةً، فتعبد غيرَه وتستعين غيرَه. وسعادتُها في أن لا تعبد إلا الله، ولا تستعين إلا الله، فبالعبادة له تستغني عن معبود آخر، وبإعانته تستغني عن مُعينٍ غيرِه، وإلاّ يَبقَى مذنبًا محتاجًا وهذا حالُ الإنسان، فإنه محتاج فقير، وهو مع ذلك مذنبٌ خَطَّاء، فلابدّ له من ربِّه الذي يَسُدُّ مَفاقِرَه، ولابُدَّ له من الاستغفار من ذنوبه. قال تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ)[١٢٣] .

فبالتوحيد يَقوى ويستغني، ومن سِرِّه أن يكون أقوى الناس، فليتوكل على الله؛ وبالاستغفار له يُغفَر له. فلا يزول فقرُه وفاقتُه إلا بالتوحيد، لابدَّ له منه، وإلاّ فإذا لم يحصل له لم يزل فقيرًا محتاجًا لا يحصل مطلوبه معذَّبًا، والله تعالى لا يغفر أن يُشرَك به. وإذا حَصَل مع التوحيد الاستغفار حَصَل غناه وسعادته، وزال عنه ما يُعذَّب به، ولا حول ولا قوة إلا بالله وهو مفتقر دائمًا إلى التوكل عليه والاستعانة به، كما هو

[١٢٣] سورة محمد آية ١٩ .

مفتقر إلى عبادته، فلابدَّ أن يشهد دائمًا فقرَه إليه وحاجته في أن يكون معبودًا له وأن يكون معينًا له، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ولا ملجأ منه إلا إليه "[١٢٤]
قال سَعِيدُ بْنِ الْمُسَيِّبِ : «مَنِ اسْتَغْنَى بِاللهِ افْتَقَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ»[١٢٥]

" وَكُلَّما قَوِيَ طَمَعُ العَبْد فِي فضل الله وَرَحمته ورجائه لقَضَاء حَاجته وَدفع ضَرُورَته قويت عبوديته لَهُ وحريته مِمَّا سواهُ فَكَمَا أَن طمعه فِي الْمَخْلُوق يُوجب عبوديته لَهُ فيأسه مِنْهُ يُوجب غنى قلبه .
وكلُّ مَن عَلَّقَ قَلْبَه بالمخلوقين أَنْ يَنْصُروه أَو يَرْزُقُوه أَو أَنْ يَهْدُوه خَضَعَ قلبه لَهُم وَصَارَ فِيهِ من الْعُبُودِيَّة لَهُم بِقدر ذَلِك وَإِن كَانَ فِي الظَّاهِر أَمِيرا لَهُم مُدبرا لأمورهم متصرفا بهم فالعاقل ينظر إِلَى الْحَقَائِق لَا إِلَى الظَّوَاهِر فالرجل إِذا تعلق قلبه بِامْرَأَة وَلَو كَانَت مُبَاحَة لَهُ يبْقى قلبه أَسِيرًا لَهَا تحكم فِيهِ وتتصرف بِمَا تُرِيدُ وَهُوَ فِي الظَّاهِر سَيِّدهَا لِأَنَّهُ زَوجهَا أَو مَالِكهَا وَلكنه فِي الْحَقِيقَة هُوَ أَسِيرهَا ومملوكها وَلَا سِيمَا إِذا علمت بفقرة إِلَيْهَا وعشقه لَهَا وَأَنه لَا يعتاض عَنْهَا بغَيْرهَا فَإِنَّهَا حِينَئِذٍ تتحكم فِيهِ تحكم السَّيِّد القاهر الظَّالِم فِي عَبده المقهور الَّذِي لَا يَسْتَطِيع الْخَلَاص مِنْهُ بل أعظم فَإِن أسر الْقلب أعظم من أسر الْبدن واستعباد الْقلب أعظم من استعباد الْبدن فَإِن من استبعد بدنه واسترق وَأسر لَا يُبَالِي إِذا كَانَ قلبه مستريحًا من ذَلِك مطمئنًا، بل يُمكنهُ الاحتيال فِي الْخَلَاص.

[١٢٤] ابن تيمية ، جامع المسائل ، ٣ / ٥٤ ـ ٥٥ .
[١٢٥] حِلْية الأولياء ، ٢ / ١٧٣ .

وَأما إِذا كَانَ الْقلب الَّذِي هُوَ ملك الْجِسْم رَقِيقا مستعبدا متيما لغير الله فَهَذَا هُوَ الذل والأسر الْمَحْض والعبودية الذليلة لما استعبد الْقلب.

فالحرية حريَّة الْقلب والعبودية عبودية الْقلب كَمَا أَن الْغنى غنى النَّفس قَالَ النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: " لَيْسَ الْغنى عَن كَثْرَة الْعرض وَإِنَّمَا الْغنى غنى النَّفس "[١٢٦].

" وَلَنْ يَسْتَغْنِيَ الْقَلْبُ عَنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ اللَّهُ هُوَ مَوْلَاهُ الَّذِي لَا يَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ وَلَا يَسْتَعِينُ إِلَّا بِهِ وَلَا يَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ وَلَا يَفْرَحُ إِلَّا بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ وَلَا يَكْرَهُ إِلَّا مَا يُبْغِضُهُ الرَّبُّ وَيَكْرَهُهُ وَلَا يُوَالِي إِلَّا مَنْ وَالَاهُ اللَّهُ وَلَا يُعَادِي إِلَّا مَنْ عَادَاهُ اللَّهُ وَلَا يُحِبُّ إِلَّا لِلَّهِ وَلَا يُبْغِضُ شَيْئًا إِلَّا لِلَّهِ وَلَا يُعْطِي إِلَّا لِلَّهِ وَلَا يَمْنَعُ إِلَّا لِلَّهِ. فَكُلَّمَا قَوِيَ إخْلَاصُ دِينِهِ لِلَّهِ كَمُلَتْ عُبُودِيَّتُهُ وَاسْتِغْنَاؤُهُ عَنْ الْمَخْلُوقَاتِ وَبِكَمَالِ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ يُبَرِّئُهُ مِنْ الْكِبْرِ وَالشِّرْكِ. وَالشِّرْكُ غَالِبٌ عَلَى النَّصَارَى وَالْكِبْرُ غَالِبٌ عَلَى الْيَهُودِ. قَالَ تَعَالَى فِي النَّصَارَى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} وَقَالَ فِي الْيَهُودِ: {أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ} . وَقَالَ تَعَالَى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا} "[١٢٧]

أرى أُناساً بأَدْنى الدِّينِ قد قَنعوا ... ولا أَرَاهُم رَضوا في العيشِ بالدُّونِ

---

[١٢٦] ابن تيمية ، العُبُوديَّة ، ٨٦ ـ ٨٨ . باختصار ، ومجموع الفتاوى ، ١٠ / ١٨٤ ـ ١٨٦ .

[١٢٧] ابن تيمية ، الفتاوى ، ١٠ / ١٩٨ ـ ١٩٩ .

فاسْتَغْنِ باللهِ عن دُنْيَا المُلُوك ... كما اسْتَغنى المُلُوك بِدُنَياهم عن الدِّين[١٢٨]

فالمُسْتَغْني بالله " إن أَخَذَ أَخَذَ بِحَقٍّ، وإنْ أَمْسَكَ أَمْسَكَ بِحَقٍّ، وإنْ أَعْطى أَعطى بِحَقٍّ، وقَلْبُه حُرٌّ مِن رِقِّ النَّفْس وفِتنته ، ذلك الشيء وذلك العمل بمنزله رجل له ملء بيت دنانير يملكها، وإن أعطاه رجل صرة فيها عشرة دنانير، لم يعمل في قلبه فرح تلك العطية عملا يؤثر أثرا، ولا يستبين، وإن كان عنده تلك الصرة، فسقطت منه ، لم يظهر عليه ضرر ذلك، ولا عمل على قلبه حزن ذلك، ولا هو فرح بما أصاب، ولا حزن على ما توى وذهب، لامتلاء قلبه بفرح تلك الدنانير، التي هي ملء بيت؛ فكذلك من فرح قلبه بالله عز وجل، استغنى بالله عز وجل، فلا تملك قلبه بعد ذلك أفراح الدنيا، لأنه لا يستغني بالدنيا، إنما غناه بالله تعالى؛ وهذا تأويل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس الغِنَى عن كثرةِ العَرَض، إنَّما الغَنِيّ غَنِي النَّفْس). فالنَّفْس إذا اسْتغنت، فغِنَاها بغِنَى القلب المشرق نوره في صدره، فإذا اطمأنت النفس بما أشرق فيها من النور بالله عز وجل، أشرق النور فيه إلى الله عز وجل، فقد رق عندها نوال الدنيا من أولها إلى آخرها، في جنب ما عاين القلب، وأورد من حياة على النفس؛ فهذا شأن النفس إذا وصلت إلى ربها عز وجل بوصول القلب"[١٢٩]

---

[١٢٨] أحمد العَجَمِي ، كُنوز الذَّهب في تاريخ حَلَب ، ١ / ٤٥٧ .
[١٢٩] محمد الحكيم التِّرْمَذِي ، رِياضَةُ النَّفْس ، ص ٥٦ ـ ٥٧ .

١٧) حُصُول العِزَّة

" قال الأوزاعي : مَن طَلَبَ العِزَّ بطاعة اللهِ رَفَعَهُ اللهُ ، وأَعَزَّهُ ، ومَن طَلَبَهُ بمعصيةِ اللهِ أَذَلَّهُ اللهُ وَوَضَعَهُ "[١٣٠]

" دَعَا بَعْضُ الْأُمَرَاءِ شُمَيطًا الْعَنْسِيَّ إِلَى طَعَامٍ، فَاعْتَلَّ عَلَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: «فَقْدُ أَكْلَةٍ أَيْسَرُ عَلَيَّ مِنْ بَذْلِ دِينِي لَهُمْ، مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بَطْنُ الْمُؤْمِنِ أَعَزَّ عَلَيْهِ مِنْ دِينِهِ»[١٣١]

وَ" مَن عَظَّمَ وقارَ اللهِ فِي قَلْبه أَنْ يَعْصيه ، وَقَّرَهُ اللهُ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ أَنْ يَذِلُّوهُ "[١٣٢]

" قال عُمَيْر بْن سعيد الهمداني : كنتُ في صُحْبَة شَرِيْك فأتيتُه يوماً ، وهو في منزله ، وكانت الخَيْزَرَان ـ زوجة الخليفة ـ قد وجَّهَتْ رَجُلاً مِن النصارى على الطراز بالكوفة ، وكتبتْ

[١٣٠] إحياء علوم الدين ، ٣٤٨/٢ ،
[١٣١] ابن أَبي الدُّنيا ، الجوع ، ص ١٢٣ رقم ٢٠٧ .
[١٣٢] ابن القيم ، الفوائد ، ص ٣٤ .

إِلَى عيسى بْن موسى لا تَعْصِ له أَمْرَاً، فَخَرجَ مِن زِقَاق عليه ملابس فاخرة ، ورجلٌ بين يديه مَكْتوفٌ وهو يقول: واغَوْثا بالله ثم بالقاضي، وإذا آثارُ السِّياط في ظَهرِه، فَسَلَّمَ على القاضي فَقَالَ لَهُ: له أنا رَجلٌ أَعْمَلُ الملابس ، وأُجْرَةُ مِثلي مائة في الشهر، وقد أَخذني هَذَا مُنذُ أربعة أشهر ، فأجلسني في طِرَازٍ[١٣٣] يأتيني بالطعام ، وعليّ عيالٌ قد ضَاعوا ، فأَفْلَتُّ اليومَ مِنه فَلَحِقَنِي ففَعلَ بِظَهْرِي ما تَرَى، فقال القاضي شَرِيْك: يا نَصْراني اجْلِسْ مع خَصْمِك ، فقَالَ النصراني: أَصْلَحَكَ اللهُ هَذَا مِن خَدَمِ السِّيدةِ فَمُرْ بِه إِلَى الحَبْسِ، قال: قُمْ ويَلْكَ فاجْلِس مَعه، فقامَ فَجَلَسَ معه، فقال القاضي شَرِيْك : هذهِ الآثارُ التي بِظَهْرِه مَن أَثَّرَها ـ فَعَلَها ـ ؟ قَالَ النصراني: أَصْلحك اللهُ ، إنما ضَرَبْتُه أَصْوَاتاً بِيَدي ، وهو يَسْتَحِقُّ أكثرَ مِن ذلك، فدَخَلَ شَريكٌ دَارَهُ وأَخْرَجَ سَوْطَهُ، ثم ضَرَبَ بِيَدِه النصراني، ثم قَالَ للرجل: انطلق إِلَى أهلك، ثم رفع السوط فجعل يقول للنصراني : والله لا تضرب المسلمين أبداً فهم أعوانه أن يخلصوه من يده، وصار النصراني يَبْكي ويقول: سَتَعْلَمُ مَن أَلقى السَّوطَ مِن يدِه؟ وقام النصراني فَقَالَ عُمَير بن سعيد: أخافُ عاقبةَ هَذَا الأمر، فقال شَرِيْك : اسْكُتْ مَن أَعَزَّ أَمْرَ اللهِ أَعَزَّهُ الله ، فَذَهبَ النَّصراني إِلَى عيسى بْن موسى أمير البلد ، فَشَكَا إليه ما فعله شَرِيكٌ به ، فقال عيسى: لا واللهِ ما أَتَعَرَّضُ لِشَرِيْك، ومَضَى النَّصْرَاني إِلَى بغداد فلم يَعُدْ "[١٣٤]

و" مَن أَطاعَ اللهَ أَكرمَه اللهُ ، ومَن عَصَى اللهَ كان مُسْتحِقَّاً لإهانةِ الله "[١٣٥]

---

[١٣٣] المكان الذ تُصْنع فيه الثياب .
[١٣٤] أخبار القضاة ، ٣/ ١٦٩ ـ ١٧٠ بتصرف.
[١٣٥] منهاج السنة النبوية ، ٤ / ٦٤ .

" ومَن اسْتَغنى بالله أَغْنَاه اللهُ ، ومَن تَعَزَّزَ بالله لَم يُفْقِرُهُ ، كَمَا أنَّ مَن أَعْتَزَّ بالعَبيد أَذَلَّهُ "[١٣٦]

[١٣٦] ابن حِبَّان ، رَوضَةُ العُقلاء ونُزْهَةُ الفُضلاء ، ص ١٤٨ .

١٨) الانكسار والافتقار لله تعالى

" مَن أرادَ اللهُ به خيراً فَتحَ له بابَ الذل والانكسار، ودوام اللجأ إلى الله تعالى والافتقار إليه، ورُؤْية عيوب نفسِه وجَهْلِها وعدوانها، ومُشاهدة فَضْل ربِّه وإحسانه ورحمته وجُودِه وبِرّه وغِنَاهُ وحَمْدِه "[١٣٧]

و " افْتِقارُ الخَلْقِ إلى الخالقِ ، أَعْظَمُ مِن افْتِقارِ الغريقِ إلى المُنْقِذ "[١٣٨]

وقال سَهل بن عبد الله : " ليس بين العبد وبين الله أَغْلظ مِن الدَّعْوَى ، ولا طريقٌ أَقْرب إليه مِن الافتقار "[١٣٩]

" فَإِذَا افْتَقَرَ الْعَبْدُ إلَى اللَّهِ وَدَعَاهُ وَأَدْمَنَ (أَكْثَرَ) النَّظَرَ فِي كَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ وَكَلَامِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ: انْفَتَحَ لَهُ طَرِيقُ الْهُدَى "[١٤٠]

والعبد الصالح التقي " لا يَرى نَفْسَه بين يَدِي اللهِ تعالى إلا مُذْنِبًا مُقَصِّراً ، لا يُعْجَب بِنَفسِه وعَمِلِه الصالح ، مهما كَثُرَ وكَبُرَ ، فلا يَمُنُّ على الله تعالى بعملِه ، بل المِنَّة والفضل لله تعالى أن هدَاه ووفقه لذلك ، وثَبَتَّه على الإسلام ، وتأمل ـ يا رَعاك الله ـ في طلَب أبي بكر الصِّدّيق ـ رضي الله عنه ـ مِن النبي ﷺ " أَنْ يُعَلِّمَهُ دُعَاءً يَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِهِ فَقَالَ له النبي ﷺ : " «قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ

---

[١٣٧] ابن القيم ، الوَابِل الصَّيِّب من الكَلِم الطيِّب ، ص ٧ .
[١٣٨] الاسْتغاثة في الرَّدِّ على البَكْري ، ص ٥١٥ .
[١٣٩] الخطيب البغدادي ، الزهد والرَّقائِق ، ص ١٢٣ .
[١٤٠] مجموع الفتاوى ، ٥ / ١١٨ .

الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» "، وَإِذَا كَانَ هَذَا حَالُ الصِّدِّيقِ الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ الْخَلْقِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَأَفْضَلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ ، وَهُوَ يُخْبِرُ بِمَا هُوَ صَادِقٌ فِيهِ مَنْ ظُلْمِ نَفْسِهِ ظُلْمًا كَثِيرًا، فَمَا الظَّنُّ بِسِوَاهُ؟ بَلْ إِنَّمَا صَارَ صِدِّيقًا بِتَوْفِيَتِهِ هَذَا الْمَقَامَ حَقَّهُ ، الَّذِي يَتَضَمَّنُ مَعْرِفَةَ رَبِّهِ وَحَقِّهِ وَعَظْمَتِهِ وَجَلَالِهِ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ وَمَا يَسْتَحِقُّهُ عَلَى عَبْدِهِ، وَمَعْرِفَةِ تَقْصِيرِهِ فِي ذَلِكَ، وَأَنَّهُ لَمْ يَقُمْ بِهِ كَمَا يَنْبَغِي، فَأَقَرَّ عَلَى نَفْسِهِ إِقْرَارًا هُوَ صَادِقٌ فِيهِ ، أَنَّهُ ظَلَمَ نَفْسَهُ ظُلْمًا كَثِيرًا وَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ وَيَرْحَمَهُ.

سُحْقًا وَبُعْدًا لِمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَخْلُوقَ يَسْتَغْنِي عَنْ مَغْفِرَةِ رَبِّهِ وَلَا يَكُونُ بِهِ حَاجَةٌ إِلَيْهَا، وَلَيْسَ وَرَاءَ هَذَا الْجَهْلِ بِاللَّهِ وَعَظْمَتِهِ وَحَقِّهِ غَايَةٌ "[١٤١]

" وتأملْ قولَ النبي صلى الله عليه وسلم فيما يَرْوي عن ربِّه عزَّ وجَّل « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي »[١٤٢]

فقال في عيادة المريض " لَوَجَدْتَنِي عندَه " وقال في الإطعام، والإسْقَاء " لَوَجَدْتَ ذلكَ عِنْدِي " فَفَرَّقَ بينَهُما، فإنّ المريضَ

---

[١٤١] ابن القيم ، مُختصر الصَّواعق المُرْسَلَة على الجهمية والمُعَطِّلة ، ص ٢٤٩ .

[١٤٢] صحيح الإمام مُسْلِم ، ٤/ ١٩٩٠ رقم ٢٠٦٩ .

مكسورُ القلبِ ولو كان مَن كان، فلا بُدَّ أنْ يَكْسِرَهُ المَرَض فإذا كان مُؤْمِناً قد انْكَسَرَ قلبُهُ بالمرض كان اللهُ عندَه.

وهذا - والله أعلم - هو السِّرُّ في استجابةِ دعوةِ الثلاثةِ : المظلومِ ، والمسافرِ ، والصائم ، للكَسْرَة التي في قلب كلِّ واحدٍ منهم، فإنّ غُرْبَةَ المُسَافِرِ وكَسْرَتِه مِمّا يَجِدُه العبدُ في نَفْسِه، وكذلكَ الصومَ ، فإنَّه يَكْسِرُ النفس ويُذِلُّها.

والذَّنْبُ قد يكونُ أنفعُ للعبدِ إذا اقْتَرنتْ به التوبةُ مِن كثيرٍ مِن الطَّاعات، وهذا معنى قولُ بعضِ السَّلف: قد يَعْمَلُ العبدُ الذَّنْبَ فيَدْخُلَ بِه الجَنَّةَ ، ويَعْمَلُ الطاعةَ فيَدْخُلَ بها النارَ، قالوا: وكيف ذلكَ؟ قال: يَعْمَلُ الذَّنْبَ فلا يَزَالُ نَصْبَ عَيْنَيْه، إنْ قامَ وإنْ قَعَدَ ، وإنْ مَشَى ذَكَرَ ذَنْبَه، فيُحْدِثُ له انْكِساراً، وتوبةً، واستغفاراً، ونَدَماً، فيكونُ ذلكَ سببَ نَجَاتِه، ويَعْمَلُ الحَسَنَة، فلا تَزَالُ نَصْبَ عَينيه، إنْ قامَ وإنْ قَعَدَ وإنْ مَشَى، كُلَّمَا ذَكَرَها أَوْرَثَتْهُ عُجْبَاً وكِبْرَاً ومِنَّةً، فتكونُ سَبَبَ هَلاكَه، فيكونُ الذَّنْب سَبَبٌ وبابٌ لِطاعاتٍ وحَسناتٍ، ومُعاملاتٍ قَلْبِيَّة، مِن خَوفِ اللهِ والحياءِ مِنْه، والإطْرَاق بين يَديه مُنَكِّسَاً رَأْسَه خَجَلاً، باكياً نادِماً، مستقيلا ربه، وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صَوْلَةٌ، وكِبْراً، وازْدِرَاءً بالناس، ورُؤْيَتِهم بِعَينِ الاحتقار، ولا رَيبَ أنّ هذا الذَّنبَ خيرٌ عندَ الله، وأَقربُ إلى النجاة والفوزِ مِن هذا المُعَجَب بطاعته، المّانّ بها، وبِحالِه على الله عزَّ وجَلَّ وعبادِه، وإنْ قال بلِسانه خلاف ذلك، فاللهُ شهيدٌ على ما في قلبِه، ويَكادُ يُعَادِي الخَلْقَ إذا لم يُعَظِّمُوه ويَرْفَعُوه، ويَخْضَعُوا له، ويَجِدْ في قلبِه بُغْضَةً لِمن لم يَفعلْ بِه ذلك، ولو فَتَّشَ نفسَه حقَّ التفتيش لرأَى فيها ذلك كامِناً، ولهذا تَرَاهُ عاتباً على مَن لَم يُعَظِّمْه ويَعْرِف له حَقَّه، مُتَطَلِّباً لِعَيْبِه في قالبِ حَمِيَّةٍ للهِ، وغضبٍ له، وإذا قام بمن يعظمه ويحترمه، ويخضع له من الذنوب أضعاف ما قام بهذا فتح له باب المعاذير والرجاء، وأغمض عنه عينه

وسمعه، وكف لسانه وقلبه، وقال: باب العصمة عن غير الأنبياء مسدود، وربما ظن أن ذنوب من يعظمه تكفر بإجلاله وتعظيمه وإكرامه إياه.
فإذا أراد الله بهذا العبد خيرا ألقاه في ذنب يكسره به، ويعرفه قدره، ويكفي به عباده شره، وينكس به رأسه، ويستخرج به منه داء العجب والكبر والمنة عليه وعلى عباده، فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة، ويكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء العضال .

لعل عتبك محمود عواقبه...وربما صحت الأجسام بالعلل"[١٤٣]

واللهِ لو عَلِمُوا قَبِيْحَ سَرِيْرَتِي ...لأَبَى السَّلامَ عليَّ مَن يَلْقَانِي
ولأَعْرَضُوا عَنِّي وَمَلُّوا صُحْبَتِي.. .وَلَذُقْتُ بَعْدَ كَرَامَةٍ بَهَوانِي
لكنْ سَتَرْتَ مَعَايبي وَمَثَالِبِي ...وحَلُمْتَ عنْ سَقَطِي وعَنْ طُغْيَاني
فَلَكَ المَحَامِدُ والمَدَائِحُ كُلّها ... بِخَواطِري وَجَوَارِحِي وَلِسَانِي
ولَقَدْ مَنَنْتَ عليَّ ربَّ بأَنْعُمٍ .... مَا لِي بِشُكْرِ أَقَلَّهنَّ يَدَانِ

" إنّ مَن عَرفَ نَفْسَه بالضَّعف عَرَفَ ربَّه بالقوة، ومَن عَرفَها بالعَجْز عَرَفَ ربَّه بالقُدْرَة، ومَن عَرَفَها بالذُّل، عَرَفَ ربَّه بالعِزّ، ومَن عَرَفَها بالجَهْل، عَرَف ربَّه بالعِلْم، فإنّ اللهَ سبحانه اسْتَأْثَرَ بالكَمال المُطْلَق، والحمدُ والثَّناء، والمَجْد والغِنَى، والعبدُ فقيرٌ ناقصٌ مُحتاجٌ، وكلمَّا ازْدَادَت مَعرفةُ العبدِ بِنَقْصِه وعَيْبِه وَفَقْرِه وذُلِّه وضَعْفِه ، ازْدَادَتْ معرفتُه لِرَبِّه بأَوصَاف كَمَالِه "[١٤٤]

[١٤٣] ابن القيم ، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ١/٣٠٧ ـ ٣٠٨ بتصرف

[١٤٤] ابن القيم ، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ١/ ٤٢٧ .

- إلهي لا تعذبْني فإنـــي ... مُـقِرٌّ بالـذي قــد كانَ مِنِّــي
- فما لي حِيْلةٌ إلا رَجائي ... لِعفوِكَ إنْ عَفَوْتَ وحُسْن ظَنِّي
- وكم مِن زَلَّةٍ لِي في الخطايا ... وأنتَ علـيَّ ذو فَضْلٍ ومنِّ
- إذا فَكَّرْتُ في نَدَميْ عليها ... عَضَضْتُ أَنَاملي وقَرَعْتُ سِنِّي
- أُجَنُّ بزهرةِ الدنيا جُنوناً ... وأَقْــطَعُ طُولَ عُمْرِي بالتَّمَنِّـي
- يَظُنُّ النَّاسَ بي خَيراً وإنِّي ... لَشَرّ الخَلْقِ إنْ لمْ تَعْفُ عَنِّي

و" الْعَبْدُ فَكَمَالُهُ فِي حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ وَعُبُودِيَّتِهِ وَفَقْرِهِ وَفَاقَتِهِ فَكُلَّمَا كَانَتْ عُبُودِيَّتُهُ أَكْمَلَ كَانَ أَفْضَلَ وَصُدُورُ مَا يُحْوِجُهُ إِلَى التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ مِمَّا يَزِيدُهُ عُبُودِيَّةً وَفَقْرًا وَتَوَاضُعًا"[١٤٥]

" وَالْعَبْدُ كُلَّمَا كَانَ أَذَلَّ لِلَّهِ وَأَعْظَمَ افْتِقَارًا إلَيْهِ وَخُضُوعًا لَهُ: كَانَ أَقْرَبَ إلَيْهِ، وَأَعَزَّ لَهُ، وَأَعْظَمَ لِقَدْرِهِ، فَأَسْعَدُ الْخَلْقِ: أَعْظَمُهُمْ عُبُودِيَّةً لِلَّهِ. وَأَمَّا الْمَخْلُوقُ فَكَمَا قِيلَ: احْتَجْ إلَى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَسِيرَهُ، وَاسْتَغْنِ عَمَّنْ شِئْتَ تَكُنْ نَظِيرَهُ، وَأَحْسِنْ إلَى مَنْ شِئْت تَكُنْ أَمِيرَهُ، وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ:

بَيْنَ التَّذَلُّلِ وَالتَّدَلُّلِ نُقْطَةٌ ... فِي رَفْعِهَا تَتَحَيَّرُ الْأَفْهَامُ
ذَاكَ التَّذَلُّلُ شِرْكٌ ... فَافْهَمْ يَا فَتَى بِالْخُلْفِ

فَأَعْظَمُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ قَدْرًا وَحُرْمَةً عِنْدَ الْخَلْقِ: إذَا لَمْ يَحْتَجْ إلَيْهِمْ بِوَجْهِ مِنْ الْوُجُوهِ، فَإِنْ أَحْسَنْتَ إلَيْهِمْ مَعَ الِاسْتِغْنَاءِ عَنْهُمْ: كُنْتَ أَعْظَمَ مَا يَكُونُ عِنْدَهُمْ، وَمَتَى احْتَجْتَ إلَيْهِمْ - وَلَوْ فِي

[١٤٥] ابن تيمية ، منهاج السنة النبوية ، ٢ / ٤٠٧ .

شَرْبَةِ مَاءٍ - نَقَصَ قَدْرُكَ عِنْدَهُمْ بِقَدْرِ حَاجَتِكَ إِلَيْهِمْ، وَهَذَا مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، لِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَلَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ. وَلِهَذَا قَالَ حَاتِمٌ الْأَصَمُّ، لَمَّا سُئِلَ فِيمَ السَّلَامَةُ مِنْ النَّاسِ؟ قَالَ: أَنْ يَكُونَ شَيْؤُك لَهُمْ مَبْذُولًا وَتَكُونَ مِنْ شَيْئِهِمْ آيِسًا، لَكِنْ إنْ كُنْتَ مُعَوِّضًا لَهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَكَانُوا مُحْتَاجِينَ، فَإِنْ تَعَادَلَتْ الْحَاجَتَانِ تَسَاوَيْتُمْ كَالْمُتَبَايِعَيْنِ لَيْسَ لِأَحَدِهِمَا فَضْلٌ عَلَى الْآخَرِ وَإِنْ كَانُوا إلَيْكَ أَحْوَجَ خَضَعُوا لَكَ. فَالرَّبُّ سُبْحَانَهُ: أَكْرَمُ مَا تَكُونُ عَلَيْهِ أَحْوَجُ مَا تَكُونُ إلَيْهِ. وَأَفْقَرُ مَا تَكُونُ إلَيْهِ. وَالْخَلْقُ: أَهْوَنُ مَا يَكُونُ عَلَيْهِمْ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ كُلَّهُمْ مُحْتَاجُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ حَوَائِجَكَ، وَلَا يَهْتَدُونَ إلَى مَصْلَحَتِكَ، بَلْ هُمْ جَهَلَةٌ بِمَصَالِحِ أَنْفُسِهِمْ، فَكَيْفَ يَهْتَدُونَ إلَى مَصْلَحَةِ غَيْرِهِمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهَا، وَلَا يُرِيدُونَ مِنْ جِهَةِ أَنْفُسِهِمْ، فَلَا عِلْمَ وَلَا قُدْرَةَ وَلَا إرَادَةَ. وَالرَّبُّ تَعَالَى يَعْلَمُ مَصَالِحَكَ وَيَقْدِرُ عَلَيْهَا، وَيُرِيدُهَا رَحْمَةً مِنْهُ وَفَضْلًا، وَذَلِكَ صِفَتُهُ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ، لَا شَيْءَ آخَرَ جَعَلَهُ مُرِيدًا رَاحِمًا، بَلْ رَحْمَتُهُ مِنْ لَوَازِمِ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَرَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ مُحْتَاجُونَ، لَا يَفْعَلُونَ شَيْئًا إلَّا لِحَاجَتِهِمْ وَمَصْلَحَتِهِمْ، وَهَذَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِمْ وَالْحِكْمَةُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُمْ إلَّا ذَلِكَ، لَكِنَّ السَّعِيدَ مِنْهُمْ الَّذِي يَعْمَلُ لِمَصْلَحَتِهِ الَّتِي هِيَ مَصْلَحَةٌ، لَا لِمَا يَظُنُّهُ مَصْلَحَةً وَلَيْسَ كَذَلِكَ. فَهُمْ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ: ظَالِمٌ. وَعَادِلٌ. وَمُحْسِنٌ. فَالظَّالِمُ: الَّذِي يَأْخُذُ مِنْك مَالًا أَوْ نَفْعًا وَلَا يُعْطِيكَ عِوَضَهُ، أَوْ يَنْفَعُ نَفْسَهُ بِضَرَرِكَ. وَالْعَادِلُ: الْمُكَافِئُ. كالبايع لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ كُلٌّ بِهِ يَقُومُ الْوُجُودُ، وَكُلٌّ منهما مُحْتَاجٌ إلَى صَاحِبِهِ كَالزَّوْجَيْنِ وَالْمُتَبَايِعَيْنِ وَالشَّرِيكَيْنِ. وَالْمُحْسِنُ الَّذِي يُحْسِنُ لَا لِعِوَضِ يَنَالُهُ مِنْكَ. فَهَذَا إنَّمَا عَمَلٌ لِحَاجَتِهِ وَمَصْلَحَتِهِ، وَهُوَ انْتِفَاعُهُ بِالْإِحْسَانِ، وَمَا يَحْصُلُ لَهُ بِذَلِكَ مِمَّا تُحِبُّهُ نَفْسُهُ مِنْ الْأَجْرِ، أَوْ طَلَبِ مَدْحِ - الْخَلْقِ وَتَعْظِيمِهِمْ، أَوْ التَّقَرُّبِ إلَيْك، إلَى غَيْرِ

ذَلِكَ. وَبِكُلِّ حَالٍ: مَا أَحْسَنَ إِلَيْك إِلَّا لِمَا يَرْجُو مِنْ الِانْتِفَاعِ. وَسَائِرُ الْخَلْقِ إنَّمَا يُكْرِمُونَك وَيُعَظِّمُونَكَ لِحَاجَتِهِمْ إلَيْكَ، وَانْتِفَاعِهِمْ بِكَ، إمَّا بِطَرِيقِ الْمُعَاوَضَةِ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ الْمُتَبَايِعَيْنِ وَالْمُتَشَارِكَيْنِ وَالزَّوْجَيْنِ مُحْتَاجٌ إلَى الْآخَرِ، وَالسَّيِّدُ مُحْتَاجٌ إلَى مَمَالِيكِهِ وَهُمْ مُحْتَاجُونَ إلَيْهِ، وَالْمُلُوكُ مُحْتَاجُونَ إلَى الْجُنْدِ وَالْجُنْدُ مُحْتَاجُونَ إلَيْهِمْ، وَعَلَى هَذَا بُنِيَ أَمْرُ الْعَالَمِ، وَأَمَّا بِطَرِيقِ الْإِحْسَانِ مِنْك إلَيْهِمْ. فَأَقْرِبَاؤُك وَأَصْدِقَاؤُك وَغَيْرُهُمْ إذَا أَكْرَمُوك لِنَفْسِك، فَهُمْ إنَّمَا يُحِبُّونَكَ وَيُكْرِمُونَكَ لِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ بِنَفْسِك مِنْ الْكَرَامَةِ، فَلَوْ قَدْ وَلَّيْتَ وَلُّوا عَنْكَ وَتَرَكُوك فَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ إنَّمَا يُحِبُّونَ أَنْفُسَهُمْ، وَأَغْرَاضَهُمْ. فَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ مِنْ الْمُلُوكِ إلَى مَنْ دُونَهُمْ تَجِدُ أَحَدَهُمْ سَيِّدًا مُطَاعًا وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ عَبْدٌ مُطِيعٌ وَإِذَا أُوذِيَ أَحَدُهُمْ بِسَبَبِ سَيِّدِهِ أَوْ مَنْ يُطِيعُهُ تَغَيَّرَ الْأَمْرُ بِحَسْبِ الْأَحْوَالِ، وَمَتَى كَنْتَ مُحْتَاجًا إلَيْهِمْ نَقَصَ الْحُبُّ وَالْإِكْرَامُ وَالتَّعْظِيمُ بِحَسْبِ ذَلِكَ وَإِنْ قَضَوْا حَاجَتَكَ. وَالرَّبُّ تَعَالَى: يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الْمَخْلُوقُ الآخرين لَهُ أَوْ مُتَفَضِّلًا عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إذَا رُفِعَتْ مَائِدَتُهُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مَكْفُورٍ وَلَا مُوَدَّعٍ وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبَّنَا} رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أمامة بَلْ وَلَا يَزَالُ اللَّهُ هُوَ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى الْعَبْدِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ؛ بَلْ مَا بِالْخَلْقِ كُلِّهِمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ؛ **وَسَعَادَةُ الْعَبْدِ فِي كَمَالِ افْتِقَارِهِ إلَى اللَّهِ، وَاحْتِيَاجِهِ إلَيْهِ، وَأَنْ يَشْهَدَ ذَلِكَ وَيَعْرِفَهُ وَيَتَّصِفَ مَعَهُ بِمُوجَبِهِ، أَيْ بِمُوجَبِ عِلْمِهِ ذَلِكَ.** فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَفْتَقِرُ وَلَا يَعْلَمُ مِثْلَ أَنْ يَذْهَبَ مَالُهُ وَلَا يَعْلَمُ، بَلْ يَظُنُّهُ بَاقِيًا فَإِذَا عَلِمَ بِذَهَابِهِ صَارَ لَهُ حَالٌ آخَرُ، فَكَذَلِكَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ فُقَرَاءُ إلَى اللَّهِ، لَكِنَّ أَهْلَ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ فِي جَهْلٍ بِهَذَا وَغَفْلَةٍ عَنْهُ وَإِعْرَاضٍ عَنْ تَذَكُّرِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ، وَالْمُؤْمِنُ يُقِرُّ بِذَلِكَ وَيَعْمَلُ بِمُوجَبِ إقْرَارِهِ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ عِبَادُ اللَّهِ.

فَالْإِنْسَانُ وَكُلُّ مَخْلُوقٍ فَقِيرٌ إِلَى اللَّهِ بِالذَّاتِ، وَفَقْرُهُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا فَقِيرًا إِلَى خَالِقِهِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ غَنِيًّا بِنَفْسِهِ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ، فَهُوَ الصَّمَدُ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ فَقِيرٌ إِلَيْهِ، فَالْعَبْدُ فَقِيرٌ إِلَى اللَّهِ مِنْ جِهَةِ رُبُوبِيَّتِهِ وَمِنْ جِهَةِ إِلَهِيَّتِهِ، كَمَا قَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوَاضِعَ. وَالْإِنْسَانُ يُذْنِبُ دَائِمًا فَهُوَ فَقِيرٌ مُذْنِبٌ، وَرَبُّهُ تَعَالَى يَرْحَمُهُ وَيَغْفِرُ لَهُ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، فَلَوْلَا رَحْمَتُهُ وَإِحْسَانُهُ: لَمَا وُجِدَ خَيْرٌ أَصْلًا، لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَلَوْلَا مَغْفِرَتُهُ لَمَا وَقَى الْعَبْدُ شَرَّ ذُنُوبِهِ، وَهُوَ مُحْتَاجٌ دَائِمًا إِلَى حُصُولِ النِّعْمَةِ، وَدَفْعِ الضُّرِّ وَالشَّرِّ وَلَا تَحْصُلُ النِّعْمَةُ إِلَّا بِرَحْمَتِهِ، وَلَا يَنْدَفِعُ الشَّرُّ إِلَّا بِمَغْفِرَتِهِ، فَإِنَّهُ لَا سَبَبَ لِلشَّرِّ إِلَّا ذُنُوبُ الْعِبَادِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} وَالْمُرَادُ بِالسَّيِّئَاتِ: مَا يَسُوءُ الْعَبْدَ مِنْ الْمَصَائِبِ وَبِالْحَسَنَاتِ: مَا يَسُرُّهُ مِنْ النِّعَمِ. كَمَا قَالَ: {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ} فَالنِّعَمُ وَالرَّحْمَةُ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا وَجُودًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ عَلَيْهِ حَقٌّ، وَإِنْ كَانَ تَعَالَى عَلَيْهِ حَقٌّ لِعِبَادِهِ، فَذَلِكَ الْحَقُّ هُوَ أَحَقُّهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الْمَخْلُوقِ، بَلْ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ، كَمَا قَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوَاضِعَ. وَالْمَصَائِبُ: بِسَبَبِ ذُنُوبِ الْعِبَادِ وَكَسْبِهِمْ. كَمَا قَالَ: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} . وَالنِّعَمُ وَإِنْ كَانَتْ بِسَبَبِ طَاعَاتٍ يَفْعَلُهَا الْعَبْدُ فَيُثِيبُهُ عَلَيْهَا: فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمُنْعِمُ. بِالْعَبْدِ وَبِطَاعَتِهِ وَثَوَابِهِ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْعَبْدُ وَجَعَلَهُ مُسْلِمًا طَائِعًا، كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ: {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ} وَقَالَ: {وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ} وَقَالَ: {اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ} وَقَالَ: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} فَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَجْعَلَهُ مُسْلِمًا وَأَنْ يَجْعَلَهُ مُقِيمَ الصَّلَاةِ. وَقَالَ: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ} الْآيَةَ: قَالَ فِي آخِرِهَا: {فَضْلًا مِنَ اللَّهِ

وَنِعْمَةً} . وَفِي صَحِيحِ أَبِي دَاوُد وَابْنِ حِبَّانَ: {اهْدِنَا سُبُلَ السَّلَامِ، وَنَجِّنَا مِنْ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّورِ، وَاجْعَلْنَا شَاكِرِينَ لِنِعْمَتِك مُثْنِينَ بِهَا عَلَيْك، قَابِلِيهَا، وَأَتْمِمْهَا عَلَيْنَا} وَفِي الْفَاتِحَةِ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}"[١٤٦]

" فَالْعَبْدُ يَفْتَقِرُ إلَى اللَّهِ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ مَعْبُودُهُ الَّذِي يُحِبُّهُ حُبَّ إجْلَالٍ وَتَعْظِيمٍ فَهُوَ غَايَةُ مَطْلُوبِهِ وَمُرَادِهِ وَمُنْتَهَى هِمَّتِهِ وَلَا صَلَاحَ لَهُ إلَّا بِهَذَا وَأَصْلُ الْحَرَكَاتِ الْحُبُّ وَالَّذِي يَسْتَحِقُّ الْمَحَبَّةَ لِذَاتِهِ هُوَ اللَّهُ فَكُلُّ مَنْ أَحَبَّ مَعَ اللَّهِ شَيْئًا فَهُوَ مُشْرِكٌ وَحُبُّهُ فَسَادٌ؛ وَإِنَّمَا الْحُبُّ الصَّالِحُ النَّافِعُ حُبُّ اللَّهِ وَالْحَبُّ لِلَّهِ وَالْإِنْسَانُ فَقِيرٌ إلَى اللَّهِ مِنْ جِهَةِ عِبَادَتِهِ لَهُ وَمِنْ جِهَةِ اسْتِعَانَتِهِ بِهِ لِلِاسْتِسْلَامِ وَالِانْقِيَادِ لِمَنْ أَنْتَ إلَيْهِ فَقِيرٌ وَهُوَ رَبُّك وَإِلَهُك.

وَهَذَا الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ أَمْرٌ فِطْرِيٌّ ضَرُورِيٌّ؛ فَإِنَّ النُّفُوسَ تَعْلَمُ فَقْرَهَا إلَى خَالِقِهَا وَتَذِلُّ لِمَنْ افْتَقَرَتْ إلَيْهِ وَغِنَاهُ مِنْ الصَّمَدِيَّةِ الَّتِي انْفَرَدَ بِهَا فَإِنَّهُ {يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} وَهُوَ شُهُودُ الرُّبُوبِيَّةِ بِالِاسْتِعَانَةِ وَالتَّوَكُّلِ وَالدُّعَاءِ وَالسُّؤَالِ ثُمَّ هَذَا لَا يَكْفِيهَا حَتَّى تَعْلَمَ مَا يُصْلِحُهَا مِنْ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَذَلِكَ هُوَ عِبَادَتُهُ وَالْإِنَابَةُ إلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إنَّمَا خُلِقَ لِعِبَادَةِ رَبِّهِ فَصَلَاحُهُ وَكَمَالُهُ وَلَذَّتُهُ وَفَرَحُهُ وَسُرُورُهُ فِي أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ وَيُنِيبَ إلَيْهِ وَذَلِكَ قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى مَسْأَلَتِهِ وَالِافْتِقَارِ إلَيْهِ؛ فَإِنَّ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ حَادِثَةٌ بِمَشِيئَتِهِ قَائِمَةٌ بِقُدْرَتِهِ وَكَلِمَتِهِ مُحْتَاجَةٌ إلَيْهِ فَقِيرَةٌ إلَيْهِ مُسَلِّمَةٌ لَهُ طَوْعًا وَكَرْهًا فَإِذَا شَهِدَ الْعَبْدُ ذَلِكَ وَأَسْلَمَ لَهُ وَخَضَعَ فَقَدْ آمَنَ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَرَأَى حَاجَتَهُ وَفَقْرَهُ إلَيْهِ صَارَ سَائِلًا لَهُ

[١٤٦] مجموع الفتاوى ، ١/ ٣٩ ـ ٤١ .

مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ مُسْتَعِينًا بِهِ إمَّا بِحَالِهِ أَوْ بِقَالِهِ بِخِلَافِ الْمُسْتَكْبِرِ عَنْهُ الْمُعْرِضِ عَنْ مَسْأَلَتِهِ "[١٤٧]

" فَالْعَبْدُ كَمَا أَنَّهُ فَقِيرٌ إلَى اللَّهِ دَائِمًا فِي إعَانَتِهِ وَإِجَابَةِ دَعْوَتِهِ وَإِعْطَاءِ سُؤَالِهِ وَقَضَاءِ حَوَائِجِهِ فَهُوَ فَقِيرٌ إلَيْهِ فِي أَنْ يَعْلَمَ مَا يُصْلِحُهُ وَمَا هُوَ الَّذِي يَقْصِدُهُ وَيُرِيدُهُ وَهَذَا هُوَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالشَّرِيعَةُ وَإِلَّا فَإِذَا قُضِيَتْ حَاجَتُهُ الَّتِي طَلَبَهَا وَأَرَادَهَا وَلَمْ تَكُنْ مَصْلَحَةً لَهُ كَانَ ذَلِكَ ضَرَرًا عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ فِي الْحَالِ لَهُ فِيهِ لَذَّةٌ وَمَنْفَعَةٌ فَالِاعْتِبَارُ بِالْمَنْفَعَةِ الْخَالِصَةِ أَوْ الرَّاجِحَةِ وَهَذَا قَدْ عَرَّفَهُ اللَّهُ عِبَادَهُ بِرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ: عَلَّمُوهُمْ وَزَكَّوْهُمْ وَأَمَرُوهُمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ وَنَهَوْهُمْ عَمَّا يَضُرُّهُمْ وَبَيَّنُوا لَهُمْ أَنَّ مَطْلُوبَهُمْ وَمَقْصُودَهُمْ وَمَعْبُودَهُمْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ كَمَا أَنَّهُ هُوَ رَبُّهُمْ وَخَالِقُهُمْ وَأَنَّهُمْ إنْ تَرَكُوا عِبَادَتَهُ أَوْ أَشْرَكُوا بِهِ غَيْرَهُ خَسِرُوا خُسْرَانًا مُبِينًا وَضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا "[١٤٨]

يا إلهي إني مُقِرٌّ بِذَنْبي وخَطَايا جَوَارِحٍ مُسْرِفَات
ما جَهِلْتُ المَقَامَ أو كان قَلْبِي مُشْرَئِبَّاً إلى دُرُوبِ العُصَاةِ
ضَعْف نَفْسِي وَحُسْن ظَنِّي بربي جَرَّني للقُصُورِ في وَاجِبَاتِي
يا رَحِيْماً بِعَبْدِهِ يا عَفُوَّاً يا مَحَلّ الآمالِ والمَكْرُمَاتِ
يا إلهي ومَنْ إليهِ الْتِجَائِي يا رَبِيعَ الأَفكارِ والذكرياتِ
رَضِّنِي بالقضاءِ وامْنُنْ بِفَضْلٍ وبِبَرْدٍ للعيشِ بَعْدَ الوَفَاةِ
يا مُنَى خاطِرِي وسَلْوَى فُؤَادِي ليسَ إلا إلى رِضَاكَ التِفَاتِي

[١٤٧] مجموع الفتاوى ، ١٤ / ٣١ ـ ٣٢ .
[١٤٨] مجموع الفتاوى ، ١٤ / ٣٥ .

مِنْكَ حَوْلِي وَقُوَّتِي واتِّكَالِي يا نَصِيْرِي فلا تَكِلْنِي لِذَاتِي
جِدْ على عَبْدِكَ المُرَجَّى نَوَالاً مِن عَطَايا آلائِكَ المُشْرِقَاتِ
واهْدِيْ قَلْبِي يا خَالِقِي وارْضَ عَنِّي فالرِّضا مِنْكَ مُنْتَهى الأُمْنِيَاتِ
أنتَ أَلْبَسْتَنِي مِن الفَضْلِ ثَوْباً بَلْ ثِيَاباً فَضْفَاضَةً ضَافِيَاتٍ
يا غِيَاثَ المَلْهُوفِ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ يا مُعِيْناً للمَرْءِ في المُعْضِلاتِ
لا تَدَعْنِي لِحَادِثاتِ الليالي وأَجِرْنِي مِمَّا بِه الغيبُ آتِ
وقِنِي مِن لَهِيْبِ نارٍ تَلَضَّى بِسِيَاجٍ مِن التُّقى والثَّبَاتِ
يا جواداً بلطفه يا عفوّاً لِـــرَزَايا كَبَائرٍ أهو هنات
يا مَلَاذاً تَهْفُو إليه البَرَايا والمُرَجَّى لِفَكِّ أَسْرِ العُنَاةِ[١٤٩]
أُمْحُ عنّي صِحَائِفاً مِن ذُنُوبي واعْفُ عَنِّي يا غافِرَ السيّئاتِ
فاقْتِرَاف الذُّنوب عِنْوان ضَعْفِي والتَّمَادِي في غَيِّهَا[١٥٠] مِن سِمَاتِي[١٥١]
يا أَنِيْسِي عُدَّتِي واعْتِمَادِي ومَلَاذِي في ظُلْمَةِ النَّائِبَاتِ
وسُرُورِي وبَهْجَتِي وَرَجَائِي وضِيائِي في مُدْلَجِ[١٥٢] الحَالِكَاتِ[١٥٣]
هذه لَوْعَتِي وهَذِي دُمُوعِي واشْتِيَاقِي وقِصَّتِي وشَكَاتِي
أَبْتَغِيْها ذُخْرَاً لِيومٍ عظيمٍ يا إِلَهِي لَعَلَّ فيها نَجَاتِي
وَصَلَاةً زَكِيَّةً وسَلَاماً للنَّبي الكَرِيم خَيْرِ الدُّعاةِ[١٥٤]

---

[١٤٩] الأُسَارى .
[١٥٠] ضلالها .
[١٥١] صِفاتي .
[١٥٢] آخِر الليل .
[١٥٣] شديدة السَّوَاد .
[١٥٤] لفضيلة الدكتور : ناصر بن مسفر الزهراني .

١٩) الأُنْس بِذِكْرالله تعالى

" أَلَذُّ الْعَيْشِ الأُنْس بِاللَّه "[١٥٥]

" من عَرَفَ اللهَ صَفَا له العيش ، وطابت له الحياة ، وهابَه كل شيء ، وذَهَبَ عنه خوف المخلوقين ، وأَنِسَ بالله واسْتَوْحَشَ مِن الناس ، وأَوْرَثَتْه المعرفة الحياء من الله والتعظيم له والإجلال والمراقبة والمحبة والتوكل عليه والإنابة إليه والرضا به والتسليم لأمره "[١٥٦]

" قال شُعَيْبِ بْنِ حَرْبٍ: دَخَلْتُ عَلَى مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ، وَهُوَ فِي دَارٍ بِالْكُوفَةِ وَحْدَهُ، فَقُلْتُ لَهُ: أَمَا تَسْتَوْحِشُ فِي هَذِهِ الدَّارِ؟ فَقَالَ: «مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ أَحَدًا يَسْتَوْحِشُ مَعَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّهُ إِذَا أَحَبَّ الْعَبْدُ رَبَّهُ فَلَا وَحْشَةَ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ أُنْسُهُ، وَيُحَدِّثُهُ»[١٥٧]

" قال مُسْلِم بن يَسَار: ما تَلَذَّذَ المُتَلَذِّذُون بِمِثْلِ الخَلْوَة بِمُنَاجاة اللهِ عزَّ وجلَّ "[١٥٨] .

---

[١٥٥] المُحاسبي ، آداب النفوس ، ص ١٥٣ .
[١٥٦] ابن القيم ، رَوضة المُحبين ونُزْهة المُشْتاقين ، ص ٤٠٦ .
[١٥٧] جعفر الخلدي ، الفوائد والزهد والرقائق والمَراثي ، ص ٣٠ رقم ١٨ .
[١٥٨] ابن أَبي الدُّنيا ، العُزْلة والانفراد ، ص ٧٠ رقم ١٨١ .

" فَكُلَّمَا كَانَ الْقَلْبُ مِنْ رَبِّهِ أَقْرَبَ، كَانَ أُنْسُهُ بِهِ أَقْوَى. وَكُلَّمَا كَانَ مِنْهُ أَبْعَدَ، كَانَتِ الْوَحْشَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ أَشَدَّ "[١٥٩]

فَرَرْتُ إليكَ مِن ظُلْمِي لِنَفْسِي ... وأَوْحَشَنِي العبادُ فأَنْتَ أُنْسِى
رِضَاكَ هو المُنَى وبِكَ افْتِخَارِي ... وذِكْرُكَ في الدُّجَى قَمَرِي وشَمْسِي
صِرْتُ إِليكَ مُنْقَطِعاً غَرِيْباً ... لِتُؤْنِسَ وِحْدَتِي في قَعْرِ رَمْسِي[١٦٠]
وللعُظْمَى مِن الحاجاتِ عِنْدِي ...قَصَدْتُ وأَنتَ عِلْمُ سِرَّ نَفْسِي[١٦١]

و" القلبُ إِنَّما خُلِقَ لَذِكْرِ اللهِ "[١٦٢]

[١٥٩] مدارج السالكين ، ٣/ ٩٥ .
[١٦٠] تراب قبري .
[١٦١] بُغْيَة المُلْتَمِس ، ص ٥١٣ .
[١٦٢] مجموع الفتاوى ، ٩/ ٣١٢ .

٢٠) حلاوة الطاعة

قال النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ "[١٦٣]

و" معنى وجود حلاوة الإيمان هو استلذاذ الطاعات ، وتحمل المشقات فيما يرضى الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وإيثار ذلك على عَرَضِ الدنيا، رَغْبَةً فى نَعيم الآخرة، الذى لا يَبِيْد ولا يَفْنى. ورُوِيَ عن عتبة الغلام أنه قال: كابدت الصلاة عشرين سنة، ثم تلذذت بها باقى عمرى "[١٦٤].

قال ابن القَيّم :" سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ رَوْحَهُ - يَقُولُ: إذَا لَمْ تَجِدْ لِلْعَمَلِ حَلَاوَةً فِي قَلْبِك وَانْشِرَاحًا، فَاتَّهِمْهُ، فَإِنَّ الرَّبَّ تَعَالَى شَكُورٌ. يَعْنِي أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُثِيبَ الْعَامِلَ عَلَى عَمَلِهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ حَلَاوَةٍ يَجِدُهَا فِي قَلْبِهِ، وَقُوَّةِ انْشِرَاحٍ وَقُرَّةِ عَيْنٍ. فَحَيْثُ لَمْ يَجِدْ ذَلِكَ فَعَمَلُهُ مَدْخُولٌ - فيه خَلَلٌ -"[١٦٥]

"قال أحد السلف: مساكين أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها. قيل: وما أطيب ما فيها ؟ قال: محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه، والتنعم بذكره وطاعته"[١٦٦]" ومعرفة أسمائه وصِفاته "[١٦٧]

---

[١٦٣] صحيح الإمام البخاري رقم ١٦ .
[١٦٤] ابن بطال ، شرح صحيح البخاري ، ٦٦/١ .
[١٦٥] مَدَارج السالكين ، ٦٨/٢ .
[١٦٦] ابن القيم ، الوَابِل الصَيِّب ، ص ٤٨ .
[١٦٧] رَوضة المحبين ، ص ١٦٦ .

" ولا يَذُوقُ العبدُ حلاوةَ الإيمان، وطَعْمَ الصِّدْق واليقين، حتى تَخْرُجَ الجاهليةُ كلها مِن قلبه"[١٦٨].

" والعبدُ إذا حصلت له التوبة والإنابة إلى الله ، والاسْتكانة له التضرُّع ، ذاقَ طَعْمَ الإيمان ، ووجَدَ حلاوةَ حُبَّ اللهِ ورسوله ، فَعَظُمَ إيمانَه عِلْماً وعَمَلاً ، وذاقَ مِن حلاوة ذلك ولذَّته ما لَم يَكن ذَاقَه قبل ذلك ، لأنّ هَوى النَّفْسِ وعاداتِها الفاسِدة ، كانت حِجَاباً لَه عن ذَوقِ طَعْمَ الإيمان ، ووجْدِ حَلاوته "[١٦٩]

و" القلبُ إذا ذَاقَ حلاوةَ عُبودِيَته للهِ ومَحبته له ، لم يَكن شيءٌ أَحبَّ إليه مِن ذلكَ حتى يُقَدِّمَهُ عليه ، وبذلكَ يُصْرَفُ عن أهلِ الإخلاصِ للهِ السُّوءَ والفَحْشَاء كما قال تعالى: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والفَحْشَاء إِنَّهُ مِن عِبَادِنا المُخْلَصِيْنَ} فإنَّ المُخْلِصَ لله ذَاقَ مِن حلاوةِ عُبودِيَته للهِ ما يَمْنَعُه عن عبودِيَتِه لغيره ، ومِن حلاوة مَحبتِه للهِ ما يَمْنَعُه عن مَحبةِ غيرِه ، إذْ ليس عندَ القلبِ لا أَحْلَى ولا أَلَذَّ ولا أَطْيبَ ولا أَلْيَنَ ولا أَنْعَمَ مِن حلاوةِ الإيمانِ ، المُتَضَمِّن عُبوديتَه للهِ ، ومَحَبتَهُ له ، وإِخْلاصَهُ الدِّينَ له ، وذلك يَجْعَلُ انْجِذَابَ القلبِ إلى اللهِ ، فيَصيرُ القلبُ مُنِيْباً إلى اللهِ ، خائفاً مِنه رَاغِباً رَاهِباً. كما قال تعالى: {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بالغَيْبِ وجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيْبٍ} إذ المُحِبُّ يَخافُ مِن زَوَالِ مَطْلُوبِه وحُصُولِ مَرْغُوبِه ، فلا يكونُ عَبْدَاً للهِ ومُحِبَّهُ إلَّا بَيْنَ خَوْفٍ ورَجاءٍ؛ قال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا}
وإذا كان العبدُ مُخْلِصاً له اجْتَبَاهُ رَبُّهُ ، فيُحْيِي قَلْبَهُ واجْتَذَبَه إليه ، فَيَنْصِرِفُ عنهُ ما يُضَادُّ ذلكَ مِن السُّوءِ والفَحْشَاءِ ،

[١٦٨] مدارج السالكين ، ٣٥١/٢ .
[١٦٩] جامع المسائل ، ٩ / ٤١٠ .

ويَخافُ مِن حُصول ضِدِّ ذلكَ؛ بِخِلافِ القلبِ الذي لم يُخْلِصْ للهِ "[١٧٠]

" فَالْإِيمَانُ إذَا بَاشَرَ الْقَلْبَ وَخَالَطَتْهُ بَشَاشَتُهُ لَا يُسْخِطُهُ الْقَلْبُ بَلْ يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ فَإِنَّ لَهُ مِنْ الْحَلَاوَةِ فِي الْقَلْبِ وَاللَّذَّةِ وَالسُّرُورِ وَالْبَهْجَةِ مَا لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ لِمَنْ لَمْ يَذُقْهُ وَالنَّاسُ مُتَفَاوِتُونَ فِي ذَوْقِهِ وَالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ الَّذِي فِي الْقَلْبِ لَهُ مِنْ الْبَشَاشَةِ مَا هُوَ بِحَسَبِهِ وَإِذَا خَالَطَتْ الْقَلْبَ لَمْ يُسْخِطْهُ قَالَ تَعَالَى: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} وَقَالَ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ} وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ بِمَا أُنْزِلَ مِنْ الْقُرْآنِ وَالِاسْتِبْشَارُ هُوَ الْفَرَحُ وَالسُّرُورُ؛ وَذَلِكَ لِمَا يَجِدُونَهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ وَ " اللَّذَّةُ " أَبَدًا تَتْبَعُ الْمَحَبَّةَ فَمَنْ أَحَبّ شَيْئًا وَنَالَ مَا أَحَبَّهُ وَجَدَ اللَّذَّةَ بِهِ؛ فَالذَّوْقُ هُوَ إدْرَاكُ الْمَحْبُوبِ اللَّذَّةَ الظَّاهِرَةَ كَالْأَكْلِ مَثَلًا: حَالُ الْإِنْسَانِ فِيهَا أَنَّهُ يَشْتَهِي الطَّعَامَ وَيُحِبُّهُ ثُمَّ يَذُوقُهُ وَيَتَنَاوَلُهُ فَيَجِدُ حِينَئِذٍ لَذَّتَهُ وَحَلَاوَتَهُ وَكَذَلِكَ النِّكَاحُ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ. وَلَيْسَ لِلْخَلْقِ مَحَبَّةٌ أَعْظَمُ وَلَا أَكْمَلُ وَلَا أَتَمُّ مِنْ مَحَبَّةِ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ وَلَيْسَ فِي الْوُجُودِ مَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُحَبَّ لِذَاتِهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ إلَّا اللَّهُ تَعَالَى. وَكُلُّ مَا يُحِبُّ سِوَاهُ فَمَحَبَّتُهُ تَبَعٌ لِحُبِّهِ فَإِنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّمَا يُحِبُّ لِأَجْلِ اللَّهِ وَيُطَاعُ لِأَجْلِ اللَّهِ وَيُتَّبَعُ لِأَجْلِ اللَّهِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: {قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} وَقَالَ تَعَالَى: {قُلْ إنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ} إلَى قَوْلِهِ: {أَحَبَّ إلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا

[١٧٠] ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، ١٠ / ٢١٥ ـ ٢١٦ .

حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبّ إلَيْهِ مَنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} . وَفِي حَدِيثِ التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ {مَنْ أَحَبّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ}[١٧١] وَقَالَ تَعَالَى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} فَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ مِنْ كُلِّ مُحِبٍّ لِمَحْبُوبِهِ. وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذَا فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ "[١٧٢]

[١٧١] حَسَّنَه الشيخ شُعيب الأَرْنَؤوط ، المسند ، ١٦ / ٤٣٢ ، والشيخ الألباني صَحَّحَه ، السلسلة الصحيحة ، ١ / ٧٢٨ رقم ٣٨٠ ..

[١٧٢] مجموع الفتاوى ، ١٠ / ٦٤٨ ـ ٦٤٩ .

٢١) حِفْظُ العبد

" ادَّعى النُّبُوة الأَسود بن قيس العَنسي باليمن ، فأَرْسَلَ إلى أَبي مُسْلِم عبد الله بن ثوب الخولاني ، فقال له: أَتَشْهَدُ أنّ محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: فتَشْهَدُ أَني رسول الله؟ قال: ما أَسْمَع قال: أَتَشْهَد أنّ محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: فَتَشْهَد أَني رسول الله؟ قال: ما أَسْمَع. قال: فأَمَرَ بنَارٍ عظيمةٍ فأُجِّجَتْ ، وطُرِحَ فيها أبو مسلم فلم تَضُرَّه !! فقال له أَهلُ مَمْلَكَتِه: إنْ تَرَكتْ هذا في بِلادِك أَفْسَدَها عليكَ. فأَمَرَهُ بالرَّحيل ، فقَدِمَ المدينةَ وقد قُبِضَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم واسْتُخْلِفَ أبو بكر. فقام إلى سَارِيةٍ ـ عمود ـ مِن سَوَارِي المسجد يُصلي فَبَصَرَ به عمر بن الخطاب، فقال: مِن أين الرَّجل؟ قال أبو مُسْلِم : مِن اليمن ، قال عمر : فمَا فَعلَ عدو اللهِ بِصَاحِبنا الذي حَرَّقَه بالنَّار فلم تَضُرَّه؟ قال: ذاك عبد الله بن ثَوْب. قال: نَشَدْتُكَ بالله عز وجل أَنتَ هو؟ قال: اللهمَّ نعم. قال: فَقَبَّلَ ما بينَ عَيْنيه، ثم جاءَ به حتى أَجْلَسَه بَينه وبين أَبي بكر ، وقال: الحمدُ لله الذي لم يُمِتْنِي حتى أَرَاني في أُمَّة محمد صلى الله عليه وسلم مَن فُعِلَ به كما فُعِلَ بإبراهيم خليل الرحمن عليه السلام "[١٧٣]

ومِن حِفْظِ اللهِ للعبد الصادق المُخْلص أنْ لا يُذِلَّه للمخلوقين بالسؤال .

" فَالْمُخْلِصُ يَصُونُهُ اللَّهُ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ، وَإِرَادَةِ وَجْهِهِ وَخَشِيَتِهِ وَحْدَهُ، وَرَجَائِهِ وَحْدَهُ، وَالطَّلَبِ مِنْهُ، وَالذُّلِّ لَهُ، وَالِافْتِقَارِ إِلَيْهِ وَحْدَهُ "[١٧٤] .

يقول الشيخ علي الطَّنْطاوي رحمه الله :" لمّا قَدِمْتُ المَملكةَ سنة ١٣٨٢ هـ أقمتُ سنةً في الرياض (ثم جئتُ مكةَ فلبثتُ فيها إلى الآن)، وكان مَعنا فيها رجلٌ مِن الشام ، كان مُقيماً في الرياض هو وأمه، فَعَرَضَ له عَمَلٌ اقْتَضى سَفَرَه إلى لبنان. وكَرِهَتْ أُمُّه هذا السَّفر ، لئلا تَبقى وحدَها فلمَّا حَلَّ موعده حَمَلَ حقائبَه وأشياءَه إلى المطار، فسلمه إلى الشركة وذهب إلى بيته على أن يأتي الفجر ليسافر. ورَجَا أُمَّه أنْ تُوقِظَه قُبيل الفجرِ، فلمْ تُوقِظْه حتى بقيَ لِموعد قِيام الطيارة ثلاثةَ أرباع الساعة، فقام مُسْرعاً ، وأَخَذَ سيارةً وحثَّ السائقَ على أنْ يَبْلُغَ به المطارَ ويُضاعِفَ له الأجرَ، وجَعل يدعو اللهَ

---

[١٧٣] ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ٢ / ٣٧٠ .
[١٧٤] مدارج السالكين ، ٢ / ٢٩ .

أنْ يَلْحَقَ بالطيارة قَبْلَ أنْ تَطيرَ. ولمّا وَصَلَ وَجَدَ أنّه لا يَزال بَيْنَهُ وبين الموعدِ رُبع ساعة، فَدَخَلَ المَقْصفَ (مطعم صغير) وقَعَدَ على الكرسي فنام، ونُودي مِن المُكَبِّر على ركاب الطائرة ، أنْ يَذْهَبُوا إليها فلمْ يَسْمَعْ هذا النداء، وما صَحَا حتى كانتْ الطيارة قد عَلَتْ في الجَو! وكنتُ معه، فجَعَلَ يَعْجَبُ كيف دعا اللهَ بهذا الإخلاص ، دعاءَ المُضْطر ولم يَستجب له. وجَعَلْتُ أُهَوِّنُ الأمرَ عليه وأَقول له: إنْ اللهَ لا يُردُّ دعوةَ داعٍ مُخْلِصٍ مُضطر أبداً، ولكنّ الإنسانَ يَدْعو بالشَّرِّ دُعاءَهُ بالخير، والله أعلم بمصلحته منه.

وأَهَمَّهُ الغضب والحزن عن إدْراكِ ما أَقولُه. أَفَتَدْرُونَ ماذا كانت خاتمة هذه القصة؟ لَعَلَّ مِنكم مَن يَذْكُرُ طيّارةَ شَرِكةَ الشرق الأوسط التي سَقَطتْ تلكَ السنة ، وهَلَكَ مَن كان فيها. هذه هي الطيارة التي حَزِنَ على أنَّها فاتَتْهُ! "

٢٢) حُصُول النَّصْر

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ"
سورة محمد آية ٧

مَن أَقام التوحيد نَصَرَهُ اللهُ على العَبيد ، وبالتوحيد يأتي النَّصْرُ على الأَكيد ، هل سَمِعتَ ـ أيها الحبيب ـ بألْب أَرْسَلان ، القائد المُسْلِم ، جاء ملك الروم لِقتال المسلمين في مائتي أَلف فارس، والسلطان ألأْب أَرْسَلان في خمسة عشر ألف !!، فلمّا كان يومُ الجمعةِ بعد الزَّوال ـ عند وقت صلاة الجُمعة ـ صَلَّى وبَكَى ، فبَكَى الناسُ لِبُكَائِه. وقال لهم: مَن أَرادَ الانْصِرَافَ فَلْيَنْصَرِف ، فلستُ عليكم الآن بِسُلْطان يأمرُ ويَنْهَى. وأَلْقَى القَوسَ والسِّهام وأَخَذَ السيفَ ، وَعَقَدَ ذَنَبَ فَرَسِهِ بيدِهِ ـ علامة أنه سُيقاتل حتى آخِر نَفَسٍ فيه ـ، وفَعَلَ عَسْكَرُه مِثْلَه ، ولَبِسَ البَياضَ وتَحَنّطَ ، استعداداً للموت ، وقال: إنْ قُتِلْتُ فهذا كَفَنِي. واشْتَدَّ القِتالُ ، فانْهَزَمَ الرومُ ، وقُتِلَ مِنهم خَلْقٌ ، وأُسِرَ مَلِكُ الروم !!"[١٧٥]

وصَدَق الله :" وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ"سورة الحج آية ٤٠ ، وكيف سيأتي النصر وسب الله وسب الدِّين مُنْتَشِر في البلاد ؟!!

[١٧٥] انظر : ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ٢٢٣/٨ ، وابن العبري ، تاريخ مُختصر الدُّول ، ص ١٨٥ ، والعُقَيْلِي ، زُبدة الحَلب في تاريخ حَلَب ، ، ص ١٧٨ .

حاصَرَ المسلمون الفُرْسَ فترة مِن الزَّمن طويلة ، دُون تحقيق النصَّر عليهم " وَشَكَا بَعْضُ النَّاسِ ، وَقَالُوا لِلنُّعْمَانِ بن مُقَرِّن المُزَنِيِّ: أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَمَا تَنْتَظِرُ بِهِمْ؟ ائْذَنْ لِلنَّاسِ فِي قِتَالِهِمْ. فَقَالَ رُوَيْدًا رُوَيْدًا. وَانْتَظَرَ النُّعْمَانُ بِالْقِتَالِ أَحَبَّ السَّاعَاتِ كَانَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَلْقَى الْعَدُوَّ فِيهَا وَذَلِكَ عِنْدَ الزَّوَالِ، فَلَمَّا كَانَ قَرِيبًا مِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ رَكِبَ فَرَسَهُ وَسَارَ فِي النَّاسِ، وَوَقَفَ عَلَى كُلِّ رَايَةٍ يُذَكِّرُهُمْ وَيُحَرِّضُهُمْ وَيُمَنِّيهِمُ الظَّفَرَ، وَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي مُكَبِّرٌ ثَلَاثًا، فَإِذَا كَبَّرْتُ الثَّالِثَةَ فَإِنِّي حَامِلٌ فَاحْمِلُوا، وَإِنْ قُتِلْتُ فَالْأَمِيرُ بَعْدِي حُذَيْفَةُ، فَإِنْ قُتِلَ فَفُلَانٌ، حَتَّى عَدَّ سَبْعَةً آخِرُهُمُ الْمُغِيرَةُ. ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَعْزِزْ دِينَكَ، وَانْصُرْ عِبَادَكَ، وَاجْعَلِ النُّعْمَانَ أَوَّلَ شَهِيدٍ الْيَوْمَ عَلَى إِعْزَازِ دِينِكَ وَنَصْرِ عِبَادِكَ.

وَقِيلَ: بَلْ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُقِرَّ عَيْنِي الْيَوْمَ بِفَتْحٍ يَكُونُ فِيهِ عِزُّ الْإِسْلَامِ وَاقْبِضْنِي شَهِيدًا. فَبَكَى النَّاسُ. وَرَجَعَ إِلَى مَوْقِفِهِ فَكَبَّرَ ثَلَاثًا وَالنَّاسُ سَامِعُونَ مُطِيعُونَ مُسْتَعِدُّونَ لِلْقِتَالِ، وَحَمَلَ النُّعْمَانُ وَالنَّاسُ مَعَهُ وَانْقَضَّتْ رَايَتُهُ انْقِضَاضَ الْعُقَابِ وَالنُّعْمَانُ مُعَلَّمٌ بِبَيَاضِ الْقَبَاءِ وَالْقَلَنْسُوَةِ، فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا لَمْ يَسْمَعِ السَّامِعُونَ بِوَقْعَةٍ كَانَتْ أَشَدَّ مِنْهَا، وَمَا كَانَ يُسْمَعُ إِلَّا وَقْعُ الْحَدِيدِ، وَصَبَرَ لَهُمُ الْمُسْلِمُونَ صَبْرًا عَظِيمًا، وَانْهَزَمَ الْأَعَاجِمُ وَقُتِلَ مِنْهُمْ مَا بَيْنَ الزَّوَالِ وَالْإِعْتَامِ مَا طَبَّقَ أَرْضَ الْمَعْرَكَةِ دَمًا يُزْلِقُ النَّاسَ وَالدَّوَابَّ "[١٧٦] فكانت تلك معركة نَهَاوَنْد .

[١٧٦] الكامل في التاريخ ، ٢ / ٣٩٦ .

٢٣) الإِقْبالُ على رِضى الحق والزُّهدُ في رِضى الخَلْق

" مَن عَرَفَ الْخَلْقَ جَديرٌ أَنْ يَتَحامَى ، وَلَكِن مَن عَرَفَ الْحقَّ فعَسِيرٌ أَنْ يَتَعامَى "[١٧٧]

" فَمَنْ عَرَفَ النَّاسَ أَنْزَلَهُمْ مَنَازِلَهُمْ، وَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ أَخْلَصَ لَهُ أَعْمَالَهُ وَأَقْوَالَهُ، وَعَطَاءَهُ وَمَنْعَهُ وَحُبَّهُ وَبُغْضَهُ، وَلَا يُعَامِلُ أَحَدَ الْخَلْقِ دُونَ اللَّهِ إِلَّا لِجَهْلِهِ بِاللَّهِ وَجَهْلِهِ بِالْخَلْقِ، وَإِلَّا فَإِذَا عَرَفَ اللَّهَ وَعَرَفَ النَّاسَ آثَرَ مُعَامَلَةَ اللَّهِ عَلَى مُعَامَلَتِهِمْ "[١٧٨]

" وقال بعض العلماء: مَن عَرَفَ نَفْسَهُ اسْتَراحَ ، ومَن عَرَفَ الناس تَعَنَّى[١٧٩]، وقال بِشْرُ بن الحارِث في ضِدِّه: مَن عَرَفَ النَّاسَ اسْتَرَاحَ "[١٨٠]

يُريدُ رحمه اللهُ تعالى : أنّ مَن عَرَفَ حقيقة الناس أنهم لا يَمْلِكون لأَنْفُسِهم نَفْعاً ولا ضَرَّاً ، ولا يَملكونه له لا نَفعاً ولا ضَرَّاً ، اسْتَراح قَلبُه مِن طَلَب رِضاهم ، وتقديم طاعتهم ورضاهم على طاعة الله ورِضاه ، ولا يَعمل عملاً ولا يَقولُ قولاً لِطلب رِضاهم ، رياءً لهم لا إِخْلاصاً لله تعالى ، ولا يَفرح لِمدحهم إِيَّاه ، ولا يَحزن لِذَمِّهِم له بالباطل .

---

[١٧٧] إيثارُ الحق على الخَلْقِ في رَدِّ الخِلافيات ، ص ٣٣ .
[١٧٨] ابن القيّم ، مَدارج السَّالكين ، ١ / ١٠٤ .
[١٧٩] تَعِب .
[١٨٠] أبو طالبٍ المَكِّي ، قُوتُ القُلُوب ، ٢ / ٢٦٢ .

٢٤) فتح أبواب الرزق والبركة في الرِّزْق

قال الله تعالى :{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى آمَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السمآء والأرض} الأعراف آية ٩٦

" وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا" سورة الطلاق

ومِن أعظَم التقوى ترك الشرك والنفاق بكل أنواعهما .

فكلما قَوِي التوحيد والإيمان في القلب صار العبد مُطْمَئِنّاً لِرِزْقِهِ ، ليس يأَخُذُه مِنه أَحَدٌ مِن الخَلْق ، وذَهَبَ مِن قلبه القَلَقُ والغَمُّ .

لَوْ كَانَ فِي صَخْرَةٍ فِي الْبَحْرِ رَاسِيَةٍ ... صَمَّا مُلَمْلِمَةٍ ملسا نَوَاحِيهَا
رِزْقٌ لِنَفْسٍ بَرَاهَا اللَّهُ لَانْفَلَقَتْ ... حَتَّى تُؤَدِّيَ إِلَيْهَا كُلَّ مَا فِيهَا
أَوْ كَانَ بَيْنَ طِبَاقِ السَّبْعِ مَسْلَكُهَا ... لَسَهَّلَ اللَّهُ فِي الْمَرْقَى مَرَاقِيهَا
حَتَّى تَنَالَ الَّذِي فِي اللَّوْحِ خُطَّ لَهَا ... إِنْ لَمْ تَنَلْهُ وَإِلَّا سَوْفَ يَأْتِيهَا

" فَإِنَّ اللَّهَ أَصْلَحَ الْأَرْضَ بِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدِينِهِ وَبِالْأَمْرِ بِالتَّوْحِيدِ وَنَهَى عَنْ فَسَادِهَا بِالشِّرْكِ بِهِ وَمُخَالَفَةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَمَنْ تَدَبَّرَ أَحْوَالَ الْعَالَمِ وَجَدَ كُلَّ صَلَاحٍ فِي الْأَرْضِ فَسَبَبُهُ تَوْحِيدُ اللَّهِ وَعِبَادَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَكُلُّ شَرٍّ فِي الْعَالِمِ وَفِتْنَةٍ وَبَلَاءٍ وَقَحْطٍ

وَتَسْلِيطِ عَدُوٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَسَبَبُهُ مُخَالَفَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالدَّعْوَةُ إلَى غَيْرِ اللَّهِ "[١٨١]

٢٥) تحقيق الشُّكْر لله تعالى وعدم كُفْران النِّعمة

" قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يُؤْتَى بِالعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا وَمَالاً وَوَلَدًا، وَسَخَّرْتُ لَكَ الأَنْعَامَ وَالحَرْثَ، وَتَرَكْتُكَ تَرْأَسُ[١٨٢] وَتَرْبَعُ[١٨٣] فَكُنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلاَقِي يَوْمَكَ هَذَا؟ فَيَقُولُ: لاَ، فَيَقُولُ لَهُ: اليَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي[١٨٤] "[١٨٥].

" المُحْسِنُ المُتَصَدِّق في خفارة[١٨٦] إحسانِه وصَدَقَتِه ،عليه مِن اللهِ جُنَّةٌ[١٨٧] واقية ، وحِصْنٌ حَصِين ، فالشُّكْرُ حارسُ النِّعْمَة مِن كُلِّ ما يكونُ سَبباً لِزَوَالِها ، ومِن أَقْوى الأَسبابـ في زوال النِّعْمَة ـ ، حَسَدُ الحاسدِ والعَائِن ، فإنَّه لا يَفْتُرُ ، ولا يَنِي ولا يَبْرُد قَلْبُهُ حتى تَزَولَ النِّعْمَةُ عن المَحْسُودِ ، فحِيْنَئِذٍ يَبْرُدُ أَنِيْنُهُ وتَنْطَفِيءُ ناره ـ لا أَطْفَأَها اللهُ ـ ، فما حَرَسَ العبدُ نِعْمةَ اللهِ

---

[١٨١] مجموع الفتاوى ، ١٥ / ٢٥ .

[١٨٢] الترؤس: التقدُّم على القوم وأن يصير رئيسهم ، ابن الأَثير ، جامع الأُصُول ، ١٠/ ٤٣٨

[١٨٣] تَأْخُذُ المِرْبَاع، وهو ما يَأْخُذُه رئيسُ الجيشِ لِنَفْسِه مِن المَغانم وهو رُبْعُها ، جامع الأصول ، ١٠/٤٣٨ .

[١٨٤] وَمَعْنَى قَوْلِهِ: اليَوْمَ أَنْسَاكَ، يَقُولُ: اليَوْمَ أَتْرُكُكَ فِي العَذَابِ ، الترمذي ، السنن ، ٤/١٩٧ .

[١٨٥] التِرْمِذِي ، السُّنن ، ٤/١٩٧ رقم ٢٤٢٨ ، صححه الترمذي ، والألباني ، صحيح الجامع الصغير وزيادته ، ٢/ ١٣٢٥ رقم ٧٩٩٦.

[١٨٦] أَمان وحِماية .

[١٨٧] دِرْعٌ .

تعالى عليهِ بمِثْلِ شُكْرِها ، ولا عَرَّضَها للزَّوَالِ بِمِثْل العملِ فيها بِمَعَاصي اللهِ ، وهو كُفْرَانُ النِّعْمَة ، وهو بابٌ إلى كُفْرَانِ المُنْعِمِ ، فالمُحْسِنُ المُتَصَدِّقُ يَسْتَخْدِمُ جُنْدَاً وعَسْكَراً يُقاتِلونَ عنهُ ، وهو نائمٌ على فِرَاشِه ، فمَن لَمْ يَكُنْ له جُنْدٌ ولا عَسْكَرٌ وله عدوٌّ، فإنه يُوشِكُ أنْ يَظْفَرَ به عَدُّوه ، وإنْ تأَخَرتْ مُدَةُ الظَّفَر "[١٨٨]

٢٦) مَغْفِرَةُ الذُّنُوب

" عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَقُولُ اللهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ عَمِلْتَ قِرَابَ الْأَرْضِ خَطَايَا وَلَمْ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا، جَعَلْتُ لَكَ قُرَابَ[١٨٩] الْأَرْضِ مَغْفِرَةً "[١٩٠]

" فلو لَقِيَ المُوَحِدُّ ـ الذى لم يُشْرِكْ بالله شيئا أَبَداً ـ ربَّه بِقِرَابِ الأرضِ خَطايا ، أَتاهُ بِقِرابِها مَغْفِرةً، ولا يَحْصُل هذا لِمَن نَقَصَ توحيدَه وشابَه بالشِّرْك. فإنّ التوحيدَ الخالصَ ، الذى لا يَشُوبُه شِرْكٌ لا يَبْقَى معه ذَنْبٌ. فإنه يَتَضَمَّن مِن مَحبةِ اللهِ تعالى وإِجْلالِه، وتَعْظِيمه، وخَوفِه، ورَجَائِه وحدَه ما يُوْجِبُ غَسْلَ الذُّنُوب "[١٩١]

وتأمل في هذا الحديث البديع عن النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ، كَادَ يَقْتُلُهُ العَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ[١٩٢]

---

[١٨٨] بدائع الفوائد ، ٢٤٣/٢ .
[١٨٩] ما يُقَارِب مِلْأَها ، لسان العرب ، ١/ ٦٦٤ .
[١٩٠] أحمد ، المُسْنَد ، ٢٤٠/٣٥ رقم ٢١٣١١ .
[١٩١] إغاثة اللهفان ، ٦٣/١ .
[١٩٢] زانية ، إبراهيم الحربي ، غريب الحديث ، ٢/ ٦٠٤ .

مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا[١٩٣] فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ»[١٩٤]

وقد " قام بقلب البَغِيّ التي رَأَتْ ذلكَ الكلبَ - وقد اشْتَدَّ بِه العطشُ يأكلُ الثَّرَى[١٩٥] - فقام بقَلْبِها ذلك الوقت - مع عدمِ الآلةِ، وعَدَم المُعِيْن وعدم مَن تُرَائِيه بِعَمَلِها - ما حَمَلَها على أنْ غَرَّرَت بِنَفْسِها في نُزُولِ البئرِ، وملء الماءِ في خُفِّها، ولم تَعْبَأْ بِتَعَرُّضها للتَّلَف، وحَمْلها خُفَّها بِفِيْها، وهو مَلآنٌ، حتى أَمْكَنها الرُّقِي مِن البئر، ثم تَواضعها لهذا المَخْلوق الذي جَرَتْ عادة الناسِ بِضَرْبِه، فأَمْسَكَتْ له الخُفَّ بِيَدها حتى شَرِبَ، مِن غير أنْ تَرْجُو مِنه جزاءً ولا شُكُوراً، فأَحْرَقَتْ أنوار هذا القَدْر مِن التوحيدِ ما تَقَدَّمَ مِنها مِن البِغَاءِ، فغُفِرَ لَها "[١٩٦]

قال العلامة محمد بن عُثَيْمين :" حَسَنة التوحيد تُكَفِّر الخطايا ، إذا لَقِيَ العبدُ اللهَ بها "[١٩٧]

" فَإِنْ كَمُلَ تَوْحِيدُ الْعَبْدِ وَإِخْلَاصُهُ لِلَّهِ فِيهِ، وَقَامَ بِشُرُوطِهِ كُلِّهَا بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ، أَوْ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ عِنْدَ الْمَوْتِ، أَوْجَبَ ذَلِكَ مَغْفِرَةَ مَا سَلَفَ مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّهَا، وَمَنَعَهُ مِنْ دُخُولِ النَّارِ بِالْكُلِّيَّةِ. فَمَنْ تَحَقَّقَ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ قَلْبُهُ، أَخْرَجَتْ مِنْهُ كُلَّ مَا سِوَى اللَّهِ مَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا وَإِجْلَالًا وَمَهَابَةً، وَخَشْيَةً، وَرَجَاءً وَتَوَكُّلًا، وَحِينَئِذٍ تُحْرَقُ ذُنُوبُهُ وَخَطَايَاهُ كُلُّهَا وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ، وَرُبَّمَا قَلَبَتْهَا حَسَنَاتٍ، فَإِنَّ هَذَا التَّوْحِيدَ هُوَ

---

[١٩٣] الخُفّ ، ابن الجَوزي ، غريب الحديث ، ٢/ ٣٧٨ .
[١٩٤] البخاري ، الجامع الصحيح ، ٤/ ١٧٣ رقم ٣٤٦٧ .
[١٩٥] التُّرَاب ، ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث والأثَر ، ٢١١/١ .
[١٩٦] مدارج السالكين ، ٣٤١/١ .
[١٩٧] القول المُفِيْد على كتاب التوحيد ، ٨٥/١ بتصرف .

الْإِكْسِيرُ الْأَعْظَمُ، فَلَوْ وُضِعَ مِنْهُ ذَرَّةً عَلَى جِبَالِ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، لَقَلَبَهَا حَسَنَاتٍ "[١٩٨]

٢٧) الإحسان إلى الخلق في كل الأوقات (الحِرْصُ على نَفْعِ الخَلْق)

" كَانَ رجلٌ شَرِّيبٌ[١٩٩] جَمَعَ قوماً مِن نُدَمَائِه[٢٠٠] ، ودَفَعَ إِلَى غلامٍ لَهُ أَربعةُ دَراهم ، وأَمَرَهُ أَنْ يَشْترى بِهَا شَيْئًا مِن الفَواكه للمَجْلِس ، فَمَرَّ الغلام بِبَابِ مَجْلِسِ مَنْصُور بْن عمار ،[٢٠١] وَهُوَ يَسْأَلُ لِفقيرٍ شَيْئًا ، وَيَقُولُ : مَن دَفَعَ لَهُ أَربعة دَراهم دَعَوتُ لَهُ أَرْبَع دَعَوات ، قَالَ : فَدَفَعَ لَهُ الغلام الدراهم ، فَقَالَ مَنْصُور: مَا الَّذِي تُرِيدُ أَنْ أَدْعُو لَك ، فَقَالَ (الغلام) : لِي سَيِّدي أُرِيْدُ أَنْ أَتَخَلَّصُ مِنه ، فَدَعَا لي مَنْصُور ، وَقَالَ: مَا الأُخْرى فَقَالَ: أَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ دَراهمي ، فَدَعَا (له منصور) ، ثُمَّ قَالَ : وَمَا الأُخْرى فَقَالَ: أَنْ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى سَيدي ، فَدَعَا (منصور) ، قَالَ : وَمَا الأُخْرى ، فَقَالَ : أَنْ

---

[١٩٨] جامع العُلُوم والحِكَم ، ٢/ ٤١٧ .
[١٩٩] للخمر .
[٢٠٠] أصْحابه .
[٢٠١] أحد العُبَّاد الزُّهَّاد الوُعَاظ ، كبير الشأن ، تاريخ الإسلام ، ١٣/ ٤١٠ .

يَغْفِرَ اللَّهُ تَعَالَى لي ولِسَيِّدِي ولكَ وللقَوْم (الحاضرين) ، فَدَعَا مَنْصُور ، فَرَجَعَ الغلامُ إِلَى سَيْدِهِ فَقَالَ: لِمَ أَبْطَأْتَ؟ فَقَصَّ عَلَيْهِ القِصَّة ، فَقَالَ: وبِمَ دَعَا ؟ فَقَالَ: سألتُ لِنَفْسي العِتْقَ ، فَقَالَ : اذْهَبْ فأنتَ حُرٌّ ، وأَيْش الثَّانِي ؟ فَقَالَ: أَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَلَيَّ الدَّرَاهم فَقَالَ: لَكَ أَربعةُ آلافٍ دِرْهَم فَقَالَ: وأَيْش الثالث ؟ فَقَالَ: أَنْ يَتُوبَ اللَّهُ عليكَ ! فَقَالَ: تُبْتُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ: وأَيْش الرَّابع ؟ فَقَالَ: أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ تَعَالَى لَكَ ولِيَ وللقومِ وللمُذَكِّر فَقَالَ: هَذَا الْوَاحِد لَيْسَ إليَّ ، فلمّا باتَ رَأَى فِي المنام ، كأَنّ قائلاً يَقُولُ لَهُ : أَنْتَ فعلتَ مَا كَانَ إِليكَ تَرَاني لا أَفعلُ مَا إليَّ ؟ قَدْ غَفَرْتُ لَكَ ، وللغُلامِ ولمنصور بْن عمار وللقوم الحاضرين "[٢٠٢]

[٢٠٢] الرسالة القُشَيرية ، ٢٦٤/١ ، والغَزالي ، إحياء علوم الدِّين ، ٤/ ١٥٤ .

٢٨) قوة الحُجَّة والدَّليل

أ) " شَكَى شَابٌّ إِلَى عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – نَفَرًا، فَقَالَ الشابُّ: إِنَّ هَؤُلَاءِ خَرَجُوا مَعَ أَبِي فِي سَفَرٍ. فَعَادُوا وَلَمْ يَعُدْ أَبِي، فَسَأَلْتهمْ عَنْهُ، فَقَالُوا: مَاتَ، فَسَأَلْتهمْ عَنْ مَالِهِ؟ فَقَالُوا: مَا تَرَكَ شَيْئًا، وَكَانَ مَعَهُ مَالٌ كَثِيرٌ، وَتَرَافَعْنَا إِلَى القاضي شُرَيْحٍ، فَاسْتَحْلَفَهُمْ وَخَلَّى سَبِيلَهُمْ، فَدَعَا عَلِيٌّ بِالشُّرَطِ، فَوَكَّلَ بِكُلِّ رَجُلٍ رَجُلَيْنِ، وَأَوْصَاهُمْ أَلَّا يُمَكِّنُوا بَعْضَهُمْ أَنْ يَدْنُوَ مِنْ بَعْضٍ، وَلَا يَدَعُوا أَحَدًا يُكَلِّمُهُمْ، وَدَعَا كَاتِبَهُ، وَدَعَا أَحَدَهُمْ. فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ أَبِي هَذَا الْفَتَى: فِي أَيِّ يَوْمٍ خَرَجَ مَعَكُمْ؟ وَفِي أَيِّ مَنْزِلٍ نَزَلْتُمْ؟ وَكَيْفَ كَانَ سَيْرُكُمْ؟ وَبِأَيِّ عِلَّةٍ مَاتَ؟ وَكَيْفَ أُصِيبَ بِمَالِهِ؟ وَسَأَلَهُ عَمَّنْ غَسَّلَهُ وَدَفَنَهُ؟ وَمَنْ تَوَلَّى الصَّلَاةَ عَلَيْهِ؟ وَأَيْنَ دُفِنَ؟ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَالْكَاتِبُ يَكْتُبُ، ثُمَّ كَبَّرَ عَلِيٌّ فَكَبَّرَ الْحَاضِرُونَ، وَالْمُتَّهَمُونَ لَا عِلْمَ لَهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ صَاحِبَهُمْ قَدْ أَقَرَّ عَلَيْهِمْ. ثُمَّ دَعَا آخَرَ بَعْدَ أَنْ غَيَّبَ الْأَوَّلَ عَنْ مَجْلِسِهِ، فَسَأَلَهُ كَمَا سَأَلَ صَاحِبَهُ، ثُمَّ الْآخَرَ كَذَلِكَ، حَتَّى عَرَفَ مَا عِنْدَ الْجَمِيعِ، فَوَجَدَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُخْبِرُ بِضِدِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ صَاحِبُهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِرَدِّ الْأَوَّلِ، فَقَالَ: يَا عَدُوَّ اللَّهِ، قَدْ عَرَفْت غَدْرَك وَكَذِبَك بِمَا سَمِعْت مِنْ أَصْحَابِك، وَمَا يُنْجِيك مِنْ الْعُقُوبَةِ إِلَّا الصِّدْقُ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ إِلَى السِّجْنِ، وَكَبَّرَ، وَكَبَّرَ مَعَهُ الْحَاضِرُونَ، فَلَمَّا أَبْصَرَ الْقَوْمُ الْحَالَ لَمْ يَشُكُّوا أَنَّ صَاحِبَهُمْ أَقَرَّ

عَلَيْهِمْ، فَدَعَا آخَرَ مِنْهُمْ، فَهَدَّدَهُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاَللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ كَارِهًا لِمَا صَنَعُوا، ثُمَّ دَعَا الْجَمِيعَ فَأَقَرُّوا بِالْقِصَّةِ، وَاسْتُدْعِيَ الَّذِي فِي السِّجْنِ، وَقِيلَ لَهُ: قَدْ أَقَرَّ أَصْحَابُك وَلَا يُنْجِيك سِوَى الصِّدْقِ، فَأَقَرَّ بِمِثْلِ مَا أَقَرَّ بِهِ الْقَوْمُ، فَأَغْرَمَهُمْ الْمَالَ، وَأَقَادَ مِنْهُمْ بِالْقَتِيلِ"[٢٠٣].

ب) " خَاصَمَ غُلَامٌ مِنْ الْأَنْصَارِ أُمَّهُ إلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَجَحَدَتْهُ، فَسَأَلَهُ الْبَيِّنَةَ، فَلَمْ تَكُنْ عِنْدَهُ، وَجَاءَتْ الْمَرْأَةُ بِنَفَرٍ، فَشَهِدُوا أَنَّهَا لَمْ تَتَزَوَّجْ وَأَنَّ الْغُلَامَ كَاذِبٌ عَلَيْهَا، وَقَدْ قَذَفَهَا. فَأَمَرَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِضَرْبِهِ، فَلَقِيَهُ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَسَأَلَ عَنْ أَمْرِهِمْ، فَأُخْبِرَ فَدَعَاهُمْ، ثُمَّ قَعَدَ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَسَأَلَ الْمَرْأَةَ فَجَحَدَتْ، فَقَالَ لِلْغُلَامِ: اجْحَدْهَا كَمَا جَحَدَتْك، فَقَالَ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إنَّهَا أُمِّي، قَالَ: اجْحَدْهَا، وَأَنَا أَبُوك وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ أَخَوَاك، قَالَ: قَدْ جَحَدْتهَا، وَأَنْكَرْتهَا. فَقَالَ عَلِيٌّ لِأَوْلِيَاءِ الْمَرْأَةِ: أَمْرِي فِي هَذِهِ الْمَرْأَةِ جَائِزٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، وَفِينَا أَيْضًا، فَقَالَ عَلِيٌّ: أُشْهِدُ مَنْ حَضَرَ أَنِّي قَدْ زَوَّجْت هَذَا الْغُلَامَ مِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ الْغَرِيبَةِ مِنْهُ، يَا قَنْبَرُ ائْتِنِي بِطِينَةٍ فِيهَا دِرْهَمٌ، فَأَتَاهُ بِهَا، فَعَدَّ أَرْبَعَمِائَةٍ وَثَمَانِينَ دِرْهَمًا، فَدَفَعَهَا مَهْرًا لَهَا.
وَقَالَ لِلْغُلَامِ: خُذْ بِيَدِ امْرَأَتِك، وَلَا تَأْتِنَا إلَّا وَعَلَيْك أَثَرُ الْعُرْسِ، فَلَمَّا وَلَّى، قَالَتْ الْمَرْأَةُ: يَا أَبَا الْحَسَنِ، اللَّهَ اللَّهَ هُوَ النَّارُ، هُوَ وَاَللَّهِ ابْنِي. قَالَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَتْ: إنَّ أَبَاهُ كَانَ زِنْجِيًّا، وَإِنَّ إخْوَتِي زَوَّجُونِي مِنْهُ، فَحَمَلْت بِهَذَا الْغُلَامِ.

[٢٠٣] ابن القيم ، الطرق الحكمية ، ص ٤٥ .

وَخَرَجَ الرَّجُلُ غَازِيًا فَقُتِلَ، وَبَعَثْت بِهَذَا إلَى حَيِّ بَنِي فُلَانٍ. فَنَشَأَ فِيهِمْ، وَأَنِفْت أَنْ يَكُونَ ابْنِي، فَقَالَ عَلِيٌّ: أَنَا أَبُو الْحَسَنِ، وَأَلْحَقَهُ بِهَا، وَثَبَتَ نَسَبَهُ "[٢٠٤].

ت) وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ سَأَلَ رَجُلًا: كَيْفَ أَنْتَ؟ فَقَالَ: مِمَّنْ يُحِبُّ الْفِتْنَةَ، وَيَكْرَهُ الْحَقَّ، وَيَشْهَدُ عَلَى مَا لَمْ يَرَهُ، فَأَمَرَ بِهِ إلَى السِّجْنِ. فَأَمَرَ عَلِيٌّ بِرَدِّهِ، وَقَالَ: صَدَقَ، قَالَ: كَيْفَ صَدَّقْته؟ قَالَ: يُحِبُّ الْمَالَ وَالْوَلَدَ.

ث) " أَتَى عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - رَجُلٌ أَسْوَدُ، وَمَعَهُ امْرَأَةٌ سَوْدَاءُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إنِّي أَغْرِسُ غَرْسًا أَسْوَدَ، وَهَذِهِ سَوْدَاءُ عَلَى مَا تَرَى، فَقَدْ أَتَتْنِي بِوَلَدٍ أَحْمَرَ، فَقَالَتْ الْمَرْأَةُ: وَاَللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا خُنْته، وَإِنَّهُ لَوَلَدُهُ. فَبَقِيَ عُمَرُ لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَقَالَ لِلْأَسْوَدِ: إنْ سَأَلْتُك عَنْ شَيْءٍ أَتَصْدُقُنِي؟ قَالَ: أَجَلْ وَاَللَّهِ، قَالَ: هَلْ وَاقَعْت امْرَأَتَك وَهِيَ حَائِضٌ؟ قَالَ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ، قَالَ عَلِيٌّ: اللَّهُ أَكْبَرُ، إنَّ النُّطْفَةَ إذَا خُلِطَتْ بِالدَّمِ فَخَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهَا خَلْقًا كَانَ أَحْمَرَ، فَلَا تُنْكِرْ وَلَدَك، فَأَنْتَ جَنَيْت عَلَى نَفْسِك "[٢٠٥]

ج) " وجَّهَ عَضُدَ الدَّولة في بعض سَفَرَاته، الى مَلِكِ الروم الأعظم، القاضي أبا بكر ابن الطَّيْب (البَاقِلَّانِي)، واخْتَصَّهُ بذلك، لِيُظْهِرَ رِفْعَةَ الإسلام، وَيَغُضَّ (يُقَلِّلَ) مِن النَّصرانية ، .. قال الباقلاني : فَخَرَجْتُ. فَدَخَلْنا بلادَ الرُّوم، حتى وصلتُ الى مَلِكِ الرُّوم بالقُسْطَنْطِينيَّة، وأُخْبِرَ

[٢٠٤] ابن القيم ، الطرق الحكمية ، ص ٤٣ .
[٢٠٥] ابن القيم ، الطرق الحكمية ، ص ٤٤ .

المَلِكُ بِقُدُومِنا. فأَرْسَلَ إلينا مَن تَلَقَّانا، وقال: لا تَدْخُلُوا على المَلِكِ بِعَمَائِمِكم، حتى تَنْزَعُوها. إلا أنْ تكون مَناديل لِطَافٍ، وحتى تَنْزِعُوا أَخْفَافَكُم. فقلتُ: لا أفعلُ، ولا أَدْخُلُ، إلا بما أنا عليه مِن الزِّي، واللِّبَاس. فإنْ رَضِيْتُم، وإلا فَخُذُوا الكُتُب تَقْرَأُونها، وأَرْسِلُوا بِجَوابِها وأَعُودُ به. فأُخْبِرَ بذلك المَلِكُ، فقال: أُريدُ معرفةَ سببِ هذا وامْتناعِه عما مضى عليه رسمي مع الرسل. فسئل القاضي عن ذلك. فقال: أنا رجلٌ مِن عُلماء المسلمين، وما تُحِبُّونه ذُلٌّ وصَغَارٌ، والله تعالى قد رَفَعَنَا بالإسلام وأَعَزَّنا بِنبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وأَيضاً فإنّ مِن شأنِ المُلوك، إذا بَعَثُوا رُسُلَهم إلى مَلِكٍ آخَر، رَفَعَ أَقْدَارهم، لا إِذْلالهم ، خُصُوصَاً إذا كان الرسولُ مِن أَهْلِ العِلْم. ووَضْعُ قَدْرِه انْهِدَامُ جَانبه، عندَ اللهِ تعالى، وعند المسلمين، ونحن نَدْخُلُ بها على سُلْطَاننا الأَكْرم، الذي هو تَحْتَ يَد أمير المؤمنين، وأَدْخُلُ بها على سُلْطَانِنا الأكرم الذي أمرنا الله تعالى ورسوله، بطاعته. فمَا تُنْكِرون عليّ هذا، وأنا رَجُل مِن علماء المسلمين؟ فإنْ دَخَلْتُ بغير هَيئتي ورَجَعْتُ إلى حُكْمِك، أَهَنْتُ العِلْمَ ونَفْسِي، وذَهَبَ عندَ المسلمين جاهي. فَعَرَّفَ التُّرْجُمان (المُترجِم) المَلِكَ بذلك، فقال المَلِكُ للتُرْجُمان: قُل له قد قَبِلْنا عُذْرَكَ، ورَفَعْنا مَنْزِلَتِكَ، وليس مَحَلَّك عندنا مَحَلَّ سائِر الرُّسل، وإنما مَحَلَّك عندنا مَحَلَّ الأَبرار الأخيار، وقد أَخبرَنا صَاحِبُكم في كُتُبه: إنكَ لِسَان المسلمين والمُناظِرُ عنهم، وأنا أَشتهي أنْ أعرفَ ذلكَ وأَسْمَعُه مِنْكَ، كما ذَكَرُوه عنكَ. قلتُ: إذا أَذِنَ المَلِكُ، فقال: إنْزُلُوا حيثُ أَعْدَدتُ لكم، ويكون بعدَ هذا الاجتماعُ. ثم فَكَّر هذا المَلِكُ الطاغية في أَمْره، وعَلِمَ أنه لا يَكْفُر له إذا دَخَلَ عليه - كما جرى رسم الرعية أنْ يُقَبِّلَ الأرضَ بين يَدَي مُلُوكِها -

فنهضنا إلى موضع أعد لنا فلما كان يوم الاحد بعث الملك في طلبى، وقال لى من بعثه: من شأن الرسول حضور مائدة الملك، فيجب أن تجيب إلى طعامنا، ولا تنقض كل رسومنا.
فقلت له: أنا من علماء المسلمين، ولست كالرسل من الجند وغيرهم الذى يعرفون ما يجرى في هذا الموطن عليهم، والملك يعلم أن العلماء لا يقدرون أن يدخلوا في هذه الاشياء وهم يعلمون، وأخشى أن يكون على مائدته من لحوم الخنازير، وما حرمه الله تعالى، على رسوله وعلى المؤمنين.
فذهب الترجمان وعاد على، وقال: يقول لك الملك: ليس على مائدتي، ولا في شئ من طعامي شئ تكرهه، وقد استحسنت ما أتيت به، وما أنت عندنا كسائر الرسل، بل أعظم وما كرهت من لحوم الخنازير إنما هو خارج من حضرتي، بينى وبينه حجاب.
فنهضت على كل حال، وجلست وقدم الطعام، ومددت يدى وأوهمت الاكل ولم آكل منه شيئا، مع أنى لم أر على مائدته ما يكره.
فلما فرغ من الطعام بَخَّرَ المجلس وعَطَّرَه، ثم قال: هذا الذى تدعونه في معجزات نبيكم: من انشقاق القمر، كيف هو عندكم؟ فقلت: هو صحيح عندنا، انشق القمر على عهد رسول الله حتى رأى الناس ذلك، وإنما رآه الحضور ومن اتفق نظره إليه في تلك الحال.
فقال الملك: وكيف: ولم يره جميع الناس؟ ! قلت لان الناس لم يكونوا على أهبة ووعد لشقوقه وحضوره فقال: وهذا القمر بينكم وبينه نسبة قرابة؟ لاى شئ لم تعرفه الروم وغيرها من سائر الناس، وإنما رأيتموه أنتم خاصة؟ ! قلت: فهذه المائدة بينكم وبينها نسبة؟ وأنتم رأيتموها دون اليهود والمجوس

والبراهمة وأهل الالحاد، وخاصة يونان جيرانكم، فإنهم كلهم منكرون لهذا الشأن، وأنتم رأيتموها دون غيركم؟ فتحير الملك، وقال بكلامه: سبحان الله.

وأمر بإحضار فلان القسيس ليكلمني، وقال: نحن لا نطيقه، لان صاحبه قال: ما في مملكتي مثله، ولا للمسلمين في عصره مثله.

فلم أشعر إذ جاء برجل كالذئب، أشقر الشعر، فقعد، وحكيت عليه المسألة، فقال: الذى قاله المسلم لازم، وهو الحق، لا أعرف له جوابا إلا ما ذكره فقلت له: أتقول: إن الخسوف إذا كان يراه جميع أهل الارض؟ أم يراه أهل الاقليم الذى بمحاذاته؟ قال: لا يراه إلا من كان في محاذاته.

فقلت: فما أنكرت من إنشقاق القمر إذا كان في ناحية أن لا يراه أهل تلك الناحية ومن تأهب للنظر له، فأما من أعرض عنه، أو كان في الامكنة التى لا يرى القمر منها فلا يراه.

فقال: كما قلت لا يدفعك عنه دافع، وإنما الكلام في الرواة الذين نقلوه، فأما الطعن في غير هذا الوجه فليس بصحيح.

فقال الملك: وكيف يطعن في النقلة؟ فقال القسيس: شبه هذا من الآيات - إذا صح وجب أن ينقله الجم الغفير حتى يتصل بنا العلم الضرورى به، ولما لم نعلم ذلك بالضرورة، دل على أن الخبر مفتعل باطل.

فالتفت الملك إلى، وقال: الجواب؟ قلت: يلزمه في نزول المائدة، ما يلزمنى في إنشقاق القمر، ويقال: لو كان نزول المائدة صحيحا لوجب أن ينقله العدد الكثير، فلا يبقى يهودى ولا نصراني ولا وثنى إلا ويعلم هذا بالضرورة، ولما لم يعلموا ذلك بالضرورة دل أن الخبر مكذوب فبهت القسيس والملك ومن ضمه المجلس، وانفصل المجلس على هذا .

قال الباقلانى: ثم سألني الملك في مجلس ثان، فقال: ما تقولون في المسيح عيسى بن مريم؟ قلت: روح الله وكلمته

وعبده، ونبيه ورسوله، كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له: كن.
فيكون، وتلوت عليه النص.
فقال: يا مسلم، تقولون: المسيح عبد؟ فقلت: نعم، كذا نقول، وبه ندين.
قال: ولا تقولون إنه ابن الله؟ قلت: معاذ الله، (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ، وَمَا كَانَ معه من إله) ، إنكم لتقولون قولا عظيما، فإذا جعلتم المسيح ابن الله فمن أبوه وأخوه وجده وعمه وخاله؟ وعددت عليه الاقارب - فتحير وقال: يا مسلم: العبد يخلق ويحيى ويميت، ويبرئ الاكمه والابرص؟ فقلت: لا يقدر العبد على ذلك، وإنما ذلك كله من فعل الباري عز وجل قال: وكيف يكون المسيح عبد الله وخلقا من خلقه، وقد أتى بهذه الآيات، وفعل ذلك كله؟ قلت: معاذ الله، ما أحيا المسيح الموتى، ولا أبرأ الاكمه والابرص.
فتحير وقل صبره، وقال: يا مسلم.
تنكر هذا مع اشتهاره في الخلق، وأخذ الناس له بالقبول؟
فقلت: ما قال أحد من أهل الفقه والمعرفة: إن الانبياء - عليهم السلام - يفعلون المعجزات من ذاتهم، وإنما هو شئ يفعله الله تعالى على أيديهم، تصديقا لهم يجرى مجرى الشهادة.
فقال: قد حضر عندي جماعة من أولاد نبيكم، وأهل دينكم، المشهورين فيكم، وقالوا: إن ذلك في كتابكم.
فقلت: أيها الملك، في كتابنا أن ذلك كله بإذن الله تعالى.
وتلوت عليه قوله تعالى (إذ قال الله: يا عيسى بن مريم، اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك، إذ أيدتك بروح القدس، تكلم الناس في المهد وكهلا،
وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى، فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى، وتبرئ الاكمه والابرص بإذنى وإذا تخرج الموتى بإذنى) .

وقلت: إنما فعل ذلك كله بالله وحده لا شريك له، لا من ذات المسيح ولو كان المسيح يحيى الموتى، ويبرئ الاكمه والابرص من ذاته، لجار أن يقال: إن موسى فلق البحر، وأخرج يده بيضاء من غير سوء من ذاته، وليس معجزات الانبياء، عليهم السلام، من ذاتهم وأفعالهم دون إرادة الخالق، فلما لم يجز هذا: لم يجز أن تسند المعجزات التى ظهرت على يد المسيح إليه.

فقال الملك: وسائر الانبياء كلهم من آدم إلى من بعده - كانوا يتضرعون للمسيح حتى يفعل ما يطلبون! قلت: أو في لسان اليهود عظم، لا يقدرون أن يقولوا: إن المسيح كان يتضرع إلى موسى؟ وكل صاحب نبى يقول: إن المسيح كان يتضرع إلى نبيه؟ ! فلا فرق بين الموضعين في الدعوى.

وانفصل المجلس على هذا.

قال الباقلانى: وفى تكلمنا في مجلس ثالث، قلت: لم أتحد اللاهوت

بالناسوت؟ فقال: أراد أن ينجى الناس من الهلاك، فقلت: وهل درى بأنه يقتل ويصلب ويفعل به كذا، ولم يأمن من اليهود؟ فإن قلت: إنه لم يدر ما أراد اليهود، بطل أن يكون إلها: وإذا بطل أن يكون إلها: وإذا بطل أن يكون إلها بطل أن يكون إبنا.

وإن قلت: قد درى ودخل في الامر على بصيرة، فليس بحكيم، لان الحكمة تمنع التعرض للبلاء.

فبهت، وكان آخر مجلس لى معه.

ومما جرى في تلك المجالس: أن الباقلانى قال لبعض المطارنة: كيف أنت؟ وكيف الاهل والاولاد؟ فقال له الملك وقد عجب من قوله: ذكر من أرسلك في كتاب الرسالة أنك لسان الامة، ومتقدم على علماء الملة! أما علمت أننا ننزه

هؤلاء عن الاهل والولد؟ فقال الباقلانى: أنتم لا تنزهون الله، سبحانه وتعالى.
عن الاهل والاولاد، وتنزهونهم؟ ! فكأن هؤلاء عندكم أقدس وأجل أعلى من الله، سبحانه وتعالى! فسقط في أيديهم ولم يردوا جوابا.
ثم قال له الملك: أخبرني عن قصة عائشة زوج نبيكم، وما قيل فيها؟ فقال: هما اثنتان، قيل فيهما ما قيل: زوج نبينا ومريم ابنة عمران، فأما زوج نبينا فلم تلد، وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها، وكل قد برأها الله مما رميت به.
فانقطع الملك ولم يحر جوابا.

ويروي القاضى عِيَاض: أن الملك قال للبطرك: ما ترى في أمر هذا الشيطان؟ فقال: تقضى حاجته، وتلاطف صاحبه، وتبعث بالهدايا إليه، وتخرج هذا عن بلدك من يومك إن قدرت، وإلا لم آمن الفتنة به على النصرانية.
ففعل الملك ذلك، وأحسن جواب عضد الدولة وهداياه، وعجل تسريحه، ومعه عدة من أسارى
المسلمين والمصاحف، ووكل الباقلانى من جنده من يحفظه حتى يصل إلى مأمنه.

ح) دُعِيَ الشيخ أحمد كِفتارو مِن علماء سوريا إلة دولة أوروبية لإلقاء مُحاضرة ، فلمَّا وصل للمكان ، قامَ بمصافحة الرجال الذين حضروا ، وحينما أرادت مجموعة مِن النساء غير المسلمات مصافحته ، كما هو في بلادهم يَفْعلن مع الرجال ، ابْتَسمَ ورَفَعَ يدَهُ ووضَعَها على صَدْره ، مُعْتذِراً ، ثم قام بإلقاء محاضرته ، وحينما انتهى مِن

محاضرته ، استمع لِمُداخلات وأسئلة الحاضرين ، فقامت إحدى النساء الكافرات ، وقالت :" إنكم إيها المسلمون فيكم قسوة وغِلْظة ، ولا تحترمون نسائكم ولا تُقَدِروهُنّ ، بدليل جفوتكم في عدم مُصافحة النساء ، فما أَقساكم!!
فلمّا انتهت قال الشيخ أحمد لها ولكل النساء الحاضرات :" إنّني قَبْلَ أنْ أُغادِر الشام عاهدتُ زوجتي أن لا أُصافح أيّ امرأةٍ في سَفري ، فأنا مُلتزِمٌ بالوفاء بالعهدي الذي أَعطيتُه لزوجتي !! فقامت هذه المرأة مع النساء الباقيات بالتصفيق الحار ، إعجاباً وتقديراً لِوفائه والتزامه بالعهد الذي قَطَعه لزوجته !!.[٢٠٦]

خ)" كان إياس بن مُعاوية في الدَّرْس ، فَسَمِعَ عندَ المُعَلِّم نَصَارى يَعِيْبُونَ الإسلام، فقال: مِنْ العَجَب أَنَّكم تَقُولونَ : إنكم في الجَنَّةِ تَأْكُلون وتَشْرُبون ولا تَتَغَوَطُونَ. فقال إياس: أفَمَا عَلِمْتُم أنَّ الدُّنيا مِرآة الآخرةِ ؟ قالوا: نعم. قال: أَفَكُلُّ ما يُؤْكَل في الدُّنيا يَخْرُجُ غائِطاً. قالوا: لا، قال: فأينَ يَذْهَبُ؟ قالوا : غِذاءٌ ، قال: فمَا يُبْعِدُ أنْ يكونَ كلُّ ما يُؤْكَلُ في الجَنَّةِ يَكونُ غِذاء، فقال المعلم: قاتَلَكَ اللهُ "[٢٠٧]

د) " قال رَجلٌ لإيَاس بن مُعَاوِيَة : مَا تَقولُ فِي المَاء ؟ قَالَ : حَلَالٌ قَالَ : وَالتَّمْر ؟ قَالَ : حَلَال ، قَالَ : فالنَّبِيْذ ؟ قَالَ : مَاءٌ وتَمْرٌ ، فَقَالَ لَهُ إِيَاس بن مُعَاوِيَة : أَرَأَيْتَ لَو ضَرَبْتُكَ بِكَفٍّ مِن تُرَابٍ أَكُنْتُ أَقْتُلُكَ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَإِنْ ضَرَبْتُكَ بِكَفٍّ مِن تِبْنٍ أَكُنْتُ أَقْتُلُكَ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَإِنْ ضَرَبْتُكَ

[٢٠٦] لقد خاطب الشيخ النساء بِما يُناسِبُ عقليتهن وثقافتهن .
[٢٠٧] أخبار القضاة ، ٣٧٣/١ ، والأَصْبَهاني ، مُحاضرات الأُدَباء ومُحَاورات الشُّعَراء والبُلَغَاء ، ٤٣٨/٢ .

بِمَاءٍ أَكُنْتُ أَقْتُلُكَ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَإِنْ أَخَذْتُ المَاءَ والتِّبْنَ وَالتُّرَاب فَجَعَلْتُهمَا طِيْنَاً وَتَرَكْتُهُ حَتَّى جَفَّ وضَرَبْتُكَ بِهِ ، أَقْتُلُكَ ؟ قَالَ : نعم ، فَقَالَ : كَذَلِكَ النَّبِيذُ .

" قال ابن تيمية " : يَقُولُ ـ يعني إِيَاس ـ : إِنّ الْقَاتِلَ هُوَ الْقُوَّة الْحَاصِلَة بالتَرْكِيبِ ، والمُفْسِدَ لِلْعَقْلِ هُوَ الْقُوَّة المُسْكِرَة الْحَاصِلَةُ بالتركيبِ "[٢٠٨]

[٢٠٨] ابن تيمية ، الاستقامة ، ١/ ٢٤٤ ، والبداية والنهاية ، ٩/ ٣٦٨ ، وابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ١٠/ ٢١ .

٢٩) حِمايةُ العبد مِن كَيْدِ الشيطان

" فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ " سورة النَّحْل

بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الذي يَنجو مِن كيد الشيطان وضلاله هو مَن حَقَّقَ التوحيدَ في قلبه ، وأَقام الإيمان في شخصيته ، وأنّ الشيطان يُسَيْطِر ويَسْتَحْوِذ على مَن كان يُمَارِسُ الشِّرك .

" ولَمَّا عَلِمَ عدو اللهِ أنّ اللهَ تعالى ، لا يُسَلِّطُهُ على أَهلِ التوحيدِ والإخلاصِ قال: {فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمعِينَ إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلَصِينَ} [ص: ٨٢- ٨٣] "[٢٠٩]

[٢٠٩] إغاثة اللهفان ، ٩٩/١ .

٣٠) حُصُول شَفاعة النبي ﷺ لك

قال تعالى: {وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لَمِنِ ارْتَضَى} [الأنبياء: ٢٨] ، وقال: {يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحمنُ وَرَضِى لَهُ قَوْلاً} [طه: ١٠٩]

" عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ فَقَالَ: " لَقَدْ ظَنَنْتُ، يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَنْ لاَ يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ "[٢١٠]

فأَسْعَدُ الناسِ بشفاعة النبي ﷺ يوم القيامة ، مَن أقام التوحيد لله تعالى خَالِصاً صافياً عَذْبَاً ، ليس فيه أَدْنَى شِرْك ، لا في القول ولا الفعل ولا الاعتقاد .

[٢١٠] البخاري ، الجامع الصحيح ، ٨/ ١١٧ رقم ٦٥٧٠ .

٣١) قوة العقل وكَمَاله ونُضْجِه

أ) " اسْتَودَعَ رجلٌ رجلاً مِن أَبنَاء النَّاس مَالاً ، وَكَانَ أَميناً لإِياس ، وَخرج الْمُسْتَوْدِع إِلَى مَكَّة ، فَلَمَّا رَجَعَ طَلَبَه فجَحَدَه ، فَأَتى إِياساً فَأَخْبَرهُ ، فَقَالَ لَهُ إِيَاس : أَعَلِم أَنَّكَ أَتَيْتني ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَنَازَعْتَه عِنْد أَحَدٍ ؟ قَالَ : لَا ، لم يَعْلَمْ أَحَدٌ ◌ِبِهَذَا ، قَالَ إياس : فَانْصَرِف واكْتُمْ أَمْرِكَ ثمَّ عُدْ إِلَيّ بعد يَوْمَيْنِ ، فَمَضى الرَّجل ، فَدَعَا إِيَاسٌ أَمِيْنَه ذَلِك ، فَقَالَ : قد حَضَرَ مَالَ كثيرٌ ، أُرِيدُ أَنْ أُسْلِمُه إِلَيْكَ ، أَفَحَصِيْنٌ مَنْزِلُكَ ؟ قَالَ : نعم ، قَالَ : فأَعَدّهُ مَوْضِعاً لِلْمَالِ وقوماً يَحْمِلُونه ، وَعَاد الرَّجل إِلَى إِيَاس ، فَقَالَ إياسٌ لَهُ : انْطَلِقْ إِلَى صَاحبِكَ فاطْلُب المَالَ فَإِنْ أَعْطَاكَ فَذَاكَ ، وَإِنْ جَحَدَكَ ، فَقل لَهُ : إِنّي أُخْبُر القَاضِي فَأتى الرجلُ صَاحبَه ، فَقَالَ : مَالِي ، وَإِلَّا أَتَيتُ القَاضِي إياس ، وشَكَوتُ إِلَيْهِ وأَخْبَرْتُه مَا جَرَى ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ مَالَه ، فَرَجَعَ الرجلُ إِلَى إِيَاس ، فَقَالَ : قد أَعْطَانِي المَالَ ، وَجَاءَ الْأمينُ إِلَى إياس فَزَبَرَهُ وانْتَهَرَهُ ، وَقَالَ : لَا تَقْرَبَنِي يَا خائن "[٢١١]

ب) " تَقَلَّدَ الْقَضَاءَ فِي واسط رجلٌ ثِقَةٌ كثير الحَدِيث ، فجَاءَ رجلٌ ، فاسْتَوْدَعَ بعضَ الشُّهُودِ كِيْساً مَخْتُومًا ، ذَكَرَ أَنّ فِيهِ ألف دِينَار ، فَلَمَّا حَصَلَ الْكيس عِنْدَ الشَّاهِد ، وطالتْ غَيْبَة الرجل ، قَدَّرَ أَنه قد هَلَكَ ، فَهَمَّ بإنفاق المَال ، ثمَّ دَبَّر وفَتَقَ الْكيسَ مِن أَسْفَله وَأخذ الدَّنَانِير ، وَجَعَلَ مَكَانهَا دَرَاهِم ، وَأعَادَ الْخياطَة كَمَا كَانَت ، وَقُدِّرَ أَنّ الرجلَ وَافَى وَطلبَ الشَّاهِد بوَدِيعته ، فَأعْطَاهُ الْكيسَ بخَتْمِه ، فَلَمَّا حَصَلَ فِي

[٢١١] ابن الجَوْزِي ، الأذكياء ، ص ٦٤ ـ ٦٥ .

منزله ، فَضَّ خَتمه ، فوَجَدَ فِي الْكيس دَرَاهِم ، فَرَجَعَ إِلَى الشَّاهِد ، فَقَالَ لَهُ :عافاكَ اللهُ أُرْدُدْ عليَّ مَالِيَ ، اسْتَوْدَعْتُكَ دَنَانِيرَ وَالَّذِي وجدتُ دَرَاهِمَ مَكَانَهَا ، فَأنكرَ ذَلِكَ واسْتَعْدَي عَلَيْهِ القَاضِي ، فَأمَرَ القاضي بإحضار الشَّاهِد مَعَ خَصمه ، فَلَمَّا حضرا سَأَلَ الْحَاكِم : مُنْذُ كم أَوْدَعْتَهُ هَذَا الْكيس ؟ قَالَ : مُنْذُ خمسَ عشرَة سنة ، فَأَخَذَ القَاضِي الدَّرَاهِمَ ، وَقَرَأَ سِكَكَها ، فَإِذا هِيَ دَرَاهِم ، مَا قد ضُرِبَ عليها مُنْذُ سنتَيْن وَثَلَاث وَنَحْوهَا ! فَأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَ الدَّنَانِيرَ إِلَيْهِ ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ ، وأَسْقَطَهُ وَقَالَ لَهُ : يَا خائن ، ونادى مُنَادِيه أَلَّا إنّ فلَان بن فلَان القَاضِي قد أَسْقَطَ فلَان بن فلَان الشَّاهِد ، فاعْلَمُوا ذَلِكَ ، وَلَا يَغْتَرَنَّ بِهِ أَحَدٌ بعدَ الْيَوْم ، فَبَاعَ الشَّاهِد أَمْلَاكَهُ فِي وَاسِط ، وَخَرَجَ عَنْهَا هَارِباً فَلَمْ يُعْلَمْ لَهُ خَبَرٌ"[٢١٢]

ت) " اسْتَودَعَ رَجُلٌ رجلاً مالاً ، ثمَّ طلَبَه فجَحَدَهُ فخَاصَمه إِلَى إِيَاس بن مُعَاوِيَة ، فَقَالَ الطَّالِب : إِنِّي دَفعتُ المَالَ إِلَيْهِ، قَالَ : وَمَن حَضَرَ ؟ قَالَ : دَفَعْتُه فِي مَكَان كَذَا وَكَذَا ، وَلم يَحْضُرْنا أَحَدٌ ، قَالَ : فَأَيُّ شَيْءٍ فِي ذَلِك الْموضع ؟ قَالَ : شَجَرَة ، قَالَ فَانْطَلِق إِلَى ذَلِكَ الْمَوْضع ، وَانْظُر الشَّجَرَة ، فَلَعَلَّ اللهَ تَعَالَى يُوضِحُ لَكَ هُنَاكَ ، مَا يتَبَيَّن بِهِ حَقُّكَ ، لَعَلَّك دَفَنْتَ مَالَكَ عِنْد الشَّجَرَةِ ونَسِيْتَ فتَتَذَكَّر إِذا رَأَيْتَ الشَّجَرَةَ ، فَمَضَى الرجلُ ، وقَالَ إِيَاس للمَطلوب : اجْلِسْ حَتَّى يَرْجِعَ خَصْمُكَ فَجَلَسَ ، واياسُ يَقْضِي وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ سَاعَةً ، ثمَّ قَالَ لَهُ : يَا هَذَا أَتَرَى صَاحبكَ بَلَغَ مَوضِعَ الشَّجَرَة الَّتِي ذَكَرَ قَالَ : لَا ، فقَالَ إياس : يَا عَدو الله ، إِنَّك لَخَائنٌ ، قَالَ : أَقِلْنِي أَقَالَكَ اللهُ ، فَأَمَرَ مَن يَحْتَفظ بِهِ ، حَتَّى جَاءَ الرجلُ ، فَقَالَ لَهُ إِيَاس : قد أَقَرَّ لَكَ بِحَقِك فَخُذْهُ"[٢١٣]

---

[٢١٢] الأذكياء ، ص ٦٥ ـ ٦٦ .
[٢١٣] الأذكياء ، ص ٦٦ .

ث) " جَاءَ رجلٌ إِلَى أبي حَازِم فَقَالَ لَهُ : إنّ الشَّيْطَانَ يأْتِيني فَيَقُولُ : إِنَّك قد طَلَّقْتَ زَوْجَتَكَ فيُشَكِّكَني ، فَقَالَ لَهُ : أَوَلَيْسَ قد طَلَّقْتَهَا ، قَالَ : لَا ، فقَالَ أبو حازم : أَلَمْ تَأتِينِي أَمْس فَطَلَّقْتَها عِنْدِي ؟ فَقَالَ : وَاللهِ مَا جِئْتُك إِلَّا الْيَوْم ، وَلَا طَلقتهَا بِوَجْهٍ مِن الْوُجُوهِ ، قَالَ : فاحلف للشَّيْطَانِ إِذا جَاءَكَ كَمَا حَلَفتَ لِي وَأَنتَ فِي عَافِيَةٍ "[٢١٤]

ج)" جَلَسَ المأمونُ يوماً للناس ، وفي مَجْلسه الأمراء والعلماء، فجاءت امرأة تتظلم إليه فذكرت أن أخاها توفي وترك ستمائة دينار، فلم يحصل لها سوى دينار واحد. فقال لها المأمون على البديهة: قد وصل إليك حقك، كأن أخاك قد ترك بنتين وأما وزوجة واثني عشر أخا وأختا واحدة وهي أنت، قالت: نعم يا أمير المؤمنين. فقال: للبنتين الثلثان أربعمائة دينار، وللأم السدس مائة دينار، وللزوجة الثمن خمسة وسبعون دينارا، بقي خمسة وعشرون دينارا لكل أخ ديناران ديناران، ولك دينار واحد "[٢١٥]

ح)" بَعَثَ الخليفة عَضُدَ الدَّولة الإمام الباقِلَّاني في رسالة إلى مَلِكِ الرُّومِ، فلمّا انْتَهى إليه إذا هو لا يَدْخُل عليه أَحَدٌ إلا مِن بابٍ قَصِيرةٍ كَهَيْئَةِ الرَّاكِعِ، فَفَهِمَ البَاقِلَّاني أنَّ مُرَادَه أنْ يَنْحَنِي الدَّاخلُ عليه ، له كَهَيْئَةِ الراكعِ للهِ عز وجل، فدار إسْتَهُ ـ ظَهره ـ إلى المَلِك ، ودَخَلَ البابَ بِظَهْرِهِ يَمشي إليه

---

[٢١٤] الأذكياء ، ص ٦٨ .

[٢١٥] ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٧٦/١٠ .

القَهْقَرَا، فلما وَصَل إليه انْفَتَلَ ـ لَفَّ جِسمه ـ فَسَلَّمَ عليه، فَعَرَفَ المَلِكُ ذَكاءَهُ ومَكانه مِن العِلم والفَهم، فَعَظَّمَه "[٢١٦]

خ) " ذَهَبَ الإمام البَاقِلَّانِي في رسالةٍ إلى مِلِكِ الرُّوم، فقال الباقلاني لِرَاهِبِهم: كيف الأَهْلُ والأَولاد، فقال لَهُ المِلِكُ: أَمَا عَلِمْتَ أنّ الرَّاهِب يَتَنَزَّهُ عَنْ هذا؟ فقال: تُنَزِّهُونه عَنْ الأَولاد ، ولا تُنَزِّهُونَ اللهَ تعالى عَنِ الصّاحبةِ والوَلَد؟!

د) وقيلَ: إنّ طاغيةَ الرُّوم سألَ البَاقِلَّاني : كيف جَرى لِعائشةَ ؟ ، وقَصَدَ تَوْبِيْخَه، فقال الباقلاني : كما جَرَى لِمرْيم، فَبَرَّأَ اللهُ المَرْأَتين، ولم تَأْتِ عائشةُ بِوَلَدٍ. فأَفْحَمَهُ، ولم يُحِرْ جوابًا "[٢١٧]

ذ) " جاء إِلى الْمَنْصُورِ رَجُلٌ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ خَرَجَ فِي تِجَارَةٍ فَكَسَبَ مَالًا، فَدَفَعَهُ إِلَى امْرَأَتِهِ، ثُمَّ طَلَبَهُ مِنْهَا. فَذَكَرَتْ أَنَّهُ سُرِقَ مِنْ الْبَيْتِ وَلَمْ يَرَ نَقْبًا وَلَا أَمَارَةً، فَقَالَ الْمَنْصُورُ: مُنْذُ كَمْ تَزَوَّجْتَهَا؟ قَالَ: مُنْذُ سَنَةٍ، قَالَ: بِكْرًا أَوْ ثَيِّبًا؟ قَالَ: ثَيِّبًا، قَالَ: فَلَهَا وَلَدٌ مِنْ غَيْرِك؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَدَعَا لَهُ الْمَنْصُورُ بِقَارُورَةِ طِيبٍ كَانَ يُتَّخَذُ لَهُ حَادِّ الرَّائِحَةِ، غَرِيبِ النَّوْعِ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ، وَقَالَ لَهُ: تَطَيَّبْ مِنْ هَذَا الطِّيبِ، فَإِنَّهُ يُذْهِبُ غَمَّك. فَلَمَّا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ عِنْدِهِ قَالَ الْمَنْصُورُ لِأَرْبَعَةٍ مِنْ ثِقَاتِهِ: لِيَقْعُدْ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ وَاحِدٌ مِنْكُمْ فَمَنْ شَمَّ مِنْكُمْ رَائِحَةَ هَذَا الطِّيبِ مِنْ أَحَدٍ فَلْيَأْتِ بِهِ. وَخَرَجَ الرَّجُلُ بِالطِّيبِ فَدَفَعَهُ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَلَمَّا شَمَّتْهُ بَعَثَتْ بِهِ إِلَى رَجُلٍ كَانَتْ تُحِبُّهُ، وَقَدْ كَانَتْ دَفَعَتْ إِلَيْهِ الْمَالَ، فَتَطَيَّبَ مِنْهُ، وَمَرَّ مُجْتَازًا بِبَعْضِ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ، فَشَمَّ الْمُوَكَّلُ بِالْبَابِ

[٢١٦] البداية والنهاية ، ١١/ ٤٠٣ .
[٢١٧] تاريخ الإسلام ، ٩ /٦٤ .

رَائِحَتَهُ عَلَيْهِ؛ فَأَتَى بِهِ الْمَنْصُورَ، فَسَأَلَهُ: مِنْ أَيْنَ لَك هَذَا الطِّيبُ؟ فَلَجْلَجَ فِي كَلَامِهِ. فَدَفَعَهُ إلَى فَقَالَ إنْ أَحْضَرَ لَك كَذَا وَكَذَا مِنْ الْمَالِ فَخَلِّ عَنْهُ، وَإِلَّا اضْرِبْهُ أَلْفَ سَوْطٍ. فَلَمَّا جُرِّدَ لِلضَّرْبِ أَحْضَرَ الْمَالَ عَلَى هَيْئَتِهِ فَدَعَا الْمَنْصُورُ صَاحِبَ الْمَالِ، فَقَالَ: أَرَأَيْت إنْ رَدَدْت عَلَيْك الْمَالَ تُحَكِّمُنِي فِي امْرَأَتِك؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: هَذَا مَالُك، وَقَدْ طَلَّقْت الْمَرْأَةَ مِنْك"[٢١٨]

ر) " كان الخليفة العبَّاسِي الْمُعْتَضِدُ بِاَللَّهِ جَالِسًا يُشَاهِدُ الصُّنَّاعَ (العُمَّال) ، فَرَأَى فِيهِمْ أَسْوَدَ مُنْكَرَ الْخِلْقَةِ، شَدِيدَ الْمَرَحِ، يَعْمَلُ ضِعْفَ مَا يَعْمَلُ الصُّنَّاعُ، وَيَصْعَدُ مِرْقَاتَيْنِ مِرْقَاتَيْنِ، فَأَنْكَرَ أَمْرَهُ، فَأَحْضَرَهُ وَسَأَلَهُ عَنْ أَمْرِهِ؟ فَلَجْلَجَ، فَقَالَ لِبَعْضِ جُلَسَائِهِ: أَيُّ شَيْءٍ يَقَعُ لَكُمْ فِي أَمْرِهِ؟ قَالُوا: وَمَنْ هَذَا حَتَّى تَصْرِفَ فِكْرَك إلَيْهِ؟ لَعَلَّهُ لَا عِيَالَ لَهُ، وَهُوَ خَالِي الْقَلْبِ، فَقَالَ: قَدْ خَمَّنْت فِي أَمْرِهِ تَخْمِينًا، مَا أَحْسَبُهُ بَاطِلًا: إمَّا أَنْ يَكُونَ مَعَهُ دَنَانِيرُ، قَدْ ظَفِرَ بِهَا دَفْعَةً، أَوْ يَكُونَ لِصًّا يَتَسَتَّرُ بِالْعَمَلِ، فَدَعَا بِهِ، وَاسْتَدْعَى بِالضَّرَّابِ فَضَرَبَهُ، وَحَلَفَ لَهُ إنْ لَمْ يَصْدُقْهُ أَنْ يَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ: لِي الْأَمَانُ، قَالَ: نَعَمْ، إلَّا فِيمَا يَجِبُ عَلَيْك بِالشَّرْعِ. فَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ أَمَّنَهُ، فَقَالَ: قَدْ كُنْت أَعْمَلُ فِي الْآجُرِّ، فَاجْتَازَ رَجُلٌ فِي وَسْطِهِ هِمْيَانٌ، فَجَاءَ إلَى مَكَانٍ فَجَلَسَ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مَكَانِي، فَحَلَّ الْهِمْيَانَ وَأَخْرَجَ مِنْهُ دَنَانِيرَ فَتَأَمَّلْته، وَإِذَا كُلُّهُ دَنَانِيرُ فَسَاوَرْتُهُ وَكَتَفْتُهُ وَشَدَدْت فَاهُ، وَأَخَذْت الْهِمْيَانَ، وَحَمَلْته عَلَى كَتِفِي وَطَرَحْته فِي الْأَتُونِ وَطَيَّنْته. فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ أَخْرَجْت عِظَامَهُ فَطَرَحْتهَا فِي دِجْلَةَ. فَأَنْفَذَ الْمُعْتَضِدُ مَنْ أَحْضَرَ الدَّنَانِيرَ مِنْ مَنْزِلِهِ، وَإِذَا عَلَى الْهِمْيَانِ مَكْتُوبٌ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ، فَنَادَى

[٢١٨] ابن القيم ، الطُّرُق الحَكَمِيَّة ، ص ٣٨ ـ ٣٩ .

فِي الْبَلَدِ بِاسْمِهِ، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: هَذَا زَوْجِي. وَلِي مِنْهُ هَذَا الطِّفْلُ، خَرَجَ وَقْتَ كَذَا وَكَذَا وَمَعَهُ أَلْفُ دِينَارٍ: فَغَابَ إِلَى الْآنَ. فَسَلَّمَ الدَّنَانِيرَ إِلَيْهَا، وَأَمَرَهَا أَنْ تَعْتَدَّ، وَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِ الْأَسْوَدِ، وَحَمَلَ جُثَّتَهُ إِلَى ذَلِكَ الْأَتُونِ "[٢١٩]

[٢١٩] ابن القيم ، الطُّرُق الحَكَمِيَّة ، ص ٣٩ .

٣٢) قوة نُور القلب وبَصيرته

التوحيد نور ، فكلمّا تَعَلَّمت التوحيد وطَبقته ومارسْتَه في حياتك ، كلما ازدادَ نور القلب ، فترى الحقَّ حَقًّا ، والباطلَ باطِلا ، فلا تَزِيغُ عن الصراطِ المستقيم ، ورُزِقْتَ حُسْنَ الفهم للأُمورِ مع دِينِك ودُنياك ، وحُسْنَ الفَهم عن اللهِ ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وحُسْنَ الفهم لأُمور حياتك ، وحُسْن التَّصرف مع الخلق بِحَقٍّ .

فالعبدُ الصادق في إيْمانِه وتوحيده " يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ، وَيُنَوِّرُهُ بِنُورٍ مِنْ عِنْدِهِ، مُضَافٌ إِلَى مَا مَعَهُ مِنْ نُورِ الْعِلْمِ، يَعْرِفُ بِهِ كَثِيرًا مِنْ أَمْرِ دِينِهِ. فَيَسْتَغْنِي بِهِ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ عِلْمِ النَّاسِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ نُورٌ. وَقَلْبَ الصَّادِقِ مُمْتَلِئٌ بِنُورِ الصِّدْقِ. وَمَعَهُ نُورُ الْإِيمَانِ. وَالنُّورُ يَهْدِي إِلَى النُّورِ "[٢٢٠]

و" صِحَّةُ الْفَهْمِ وَحُسْنُ الْقَصْدِ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَى عَبْدِهِ، بَلْ مَا أُعْطِيَ عَبْدٌ عَطَاءً بَعْدَ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ وَلَا أَجَلُّ مِنْهُمَا، بَلْ هُمَا سَاقَا الْإِسْلَامِ، وَقِيَامُهُ عَلَيْهِمَا، وَبِهِمَا يَأْمَنُ الْعَبْدُ طَرِيقَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ الَّذِينَ فَسَدَ قَصْدُهُمْ وَطَرِيقُ الضَّالِّينَ الَّذِينَ فَسَدَتْ فُهُومُهُمْ، وَيَصِيرُ مِنْ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ الَّذِينَ حَسُنَتْ أَفْهَامُهُمْ وَقُصُودُهُمْ، وَهُمْ أَهْلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِينَ أُمِرْنَا أَنْ نَسْأَلَ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَنَا صِرَاطَهُمْ فِي كُلِّ صَلَاةٍ، وَصِحَّةُ الْفَهْمِ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ، يُمَيِّزُ بِهِ بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالْفَاسِدِ، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ، وَيَمُدُّهُ حُسْنُ الْقَصْدِ، وَتَحَرِّي الْحَقِّ، وَتَقْوَى الرَّبِّ فِي السِّرِّ

[٢٢٠] ابن القيم ، مَدارج السالكين ، ٢ / ٣٤٨ .

وَالْعَلَانِيَةِ، وَيَقْطَعُ مَادَّتُهُ اتِّبَاعَ الْهَوَى، وَإِيثَارَ الدُّنْيَا، وَطَلَبَ مَحْمَدَةِ الْخَلْقِ، وَتَرْكَ التَّقْوَى "[٢٢١]

٣٣) حُسْن الخُلُق

" التوحيد أصلُ صلاح الناس ، والإشْرَاكُ أَصْلُ فسادِهم ، والقِسْطُ مَقْرونٌ بالتوحيد ، إذ التوحيدُ أَصْلُ العدلِ ، وإرادةُ العُلوّ مَقْرونةٌ بالفسادِ "[٢٢٢]

" حُسْنُ الْخُلُقِ يَقُومُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَرْكَانٍ لَا يُتَصَوَّرُ قِيَامُ سَاقِهِ إِلَّا عَلَيْهَا: الصَّبْرُ، وَالْعِفَّةُ، وَالشَّجَاعَةُ، وَالْعَدْلُ.

فَالصَّبْرُ: يَحْمِلُهُ عَلَى الِاحْتِمَالِ وَكَظْمِ الْغَيْظِ، وَكَفِّ الْأَذَى، وَالْحِلْمِ وَالْأَنَاةِ وَالرِّفْقِ، وَعَدَمِ الطَّيْشِ وَالْعَجَلَةِ.

وَالْعِفَّةُ: تَحْمِلُهُ عَلَى اجْتِنَابِ الرَّذَائِلِ وَالْقَبَائِحِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَتَحْمِلُهُ عَلَى الْحَيَاءِ. وَهُوَ رَأْسُ كُلِّ خَيْرٍ. وَتَمْنَعُهُ مِنَ الْفَحْشَاءِ، وَالْبُخْلِ وَالْكَذِبِ، وَالْغَيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ.

وَالشَّجَاعَةُ: تَحْمِلُهُ عَلَى عِزَّةِ النَّفْسِ، وَإِيثَارِ مَعَالِي الْأَخْلَاقِ وَالشِّيَمِ، وَعَلَى الْبَذْلِ وَالنَّدَى، الَّذِي هُوَ شَجَاعَةُ النَّفْسِ وَقُوَّتُهَا عَلَى إِخْرَاجِ الْمَحْبُوبِ وَمُفَارَقَتِهِ. وَتَحْمِلُهُ عَلَى كَظْمِ الْغَيْظِ وَالْحِلْمِ. فَإِنَّهُ بِقُوَّةِ نَفْسِهِ وَشَجَاعَتِهَا يُمْسِكُ عِنَانَهَا، وَيَكْبَحُهَا بِلِجَامِهَا عَنِ النَّزْغِ وَالْبَطْشِ. كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ: الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» وَهُوَ حَقِيقَةُ الشَّجَاعَةِ، وَهِيَ مَلَكَةٌ يَقْتَدِرُ بِهَا الْعَبْدُ عَلَى قَهْرِ خَصْمِهِ.

وَالْعَدْلُ: يَحْمِلُهُ عَلَى اعْتِدَالِ أَخْلَاقِهِ، وَتَوَسُّطِهِ فِيهَا بَيْنَ طَرَفَيِ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ. فَيَحْمِلُهُ عَلَى خُلُقِ الْجُودِ وَالسَّخَاءِ الَّذِي هُوَ تَوَسُّطٌ بَيْنَ الذُّلِّ وَالْقِحَةِ. وَعَلَى خُلُقِ الشَّجَاعَةِ، الَّذِي هُوَ تَوَسُّطٌ

---

[٢٢١] ابن القيم ، إعلامُ المُوَقعين عن رَبِّ العالَمين ، ١ / ٦٩ .

[٢٢٢]

بَيْنَ الْجُبْنِ وَالتَّهَوُّرِ. وَعَلَى خُلُقِ الْحِلْمِ، الَّذِي هُوَ تَوَسُّطٌ بَيْنَ الْغَضَبِ وَالْمَهَانَةِ وَسُقُوطِ النَّفْسِ.

وَمَنْشَأُ جَمِيعِ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ مِنْ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ .

وَمَنْشَأُ جَمِيعِ الْأَخْلَاقِ السَّافِلَةِ، وَبِنَاؤُهَا عَلَى أَرْبَعَةِ أَرْكَانٍ: الْجَهْلُ. وَالظُّلْمُ. وَالشَّهْوَةُ. وَالْغَضَبُ.

فَالْجَهْلُ: يُرِيهِ الْحَسَنَ فِي صُورَةِ الْقَبِيحِ، وَالْقَبِيحَ فِي صُورَةِ الْحَسَنِ. وَالْكَمَالَ نَقْصًا وَالنَّقْصَ كَمَالًا.

وَالظُّلْمُ: يَحْمِلُهُ عَلَى وَضْعِ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. فَيَغْضَبُ فِي مَوْضِعِ الرِّضَا. وَيَرْضَى فِي مَوْضِعِ الْغَضَبِ. وَيَجْهَلُ فِي مَوْضِعِ الْأَنَاةِ. وَيَبْخَلُ فِي مَوْضِعِ الْبَذْلِ. وَيَبْذُلُ فِي مَوْضِعِ الْبُخْلِ. وَيُحْجِمُ فِي مَوْضِعِ الْإِقْدَامِ. وَيُقْدِمُ فِي مَوْضِعِ الْإِحْجَامِ. وَيَلِينُ فِي مَوْضِعِ الشِّدَّةِ. وَيَشْتَدُّ فِي مَوْضِعِ اللِّينِ. وَيَتَوَاضَعُ فِي مَوْضِعِ الْعِزَّةِ. وَيَتَكَبَّرُ فِي مَوْضِعِ التَّوَاضُعِ.

وَالشَّهْوَةُ: تَحْمِلُهُ عَلَى الْحِرْصِ وَالشُّحِّ وَالْبُخْلِ، وَعَدَمِ الْعِفَّةِ وَالنَّهْمَةِ وَالْجَشَعِ، وَالذُّلِّ وَالدَّنَاءَاتِ كُلِّهَا.

وَالْغَضَبُ: يَحْمِلُهُ عَلَى الْكِبْرِ وَالْحِقْدِ وَالْحَسَدِ، وَالْعُدْوَانِ وَالسَّفَهِ.

وَيَتَرَكَّبُ مِنْ بَيْنِ كُلِّ خُلُقَيْنِ مِنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ: أَخْلَاقٌ مَذْمُومَةٌ.

وَمِلَاكُ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ أَصْلَانِ: إِفْرَاطُ النَّفْسِ فِي الضَّعْفِ، وَإِفْرَاطُهَا فِي الْقُوَّةِ. فَيَتَوَلَّدُ مِنْ إِفْرَاطِهَا فِي الضَّعْفِ: الْمَهَانَةُ وَالْبُخْلُ، وَالْخِسَّةُ وَاللُّؤْمُ، وَالذُّلُّ وَالْحِرْصُ، وَالشُّحُّ وَسَفْسَافُ الْأُمُورِ وَالْأَخْلَاقِ.

وَيَتَوَلَّدُ مِنْ إِفْرَاطِهَا فِي الْقُوَّةِ: الظُّلْمُ وَالْغَضَبُ وَالْحِدَّةُ، وَالْفُحْشُ وَالطَّيْشُ.

وَيَتَوَلَّدُ مِنْ تَزَوُّجِ أَحَدِ الْخُلُقَيْنِ بِالْآخَرِ أَوْلَادُ غِيَّةٍ كَثِيرُونَ. فَإِنَّ النَّفْسَ قَدْ تَجْمَعُ قُوَّةً وَضَعْفًا. فَيَكُونُ صَاحِبُهَا أَجْبَرَ النَّاسِ إِذَا قَدَرَ، وَأَذَلَّهُمْ إِذَا قُهِرَ، ظَالِمًا عَنُوفًا جَبَّارًا. فَإِذَا قُهِرَ صَارَ أَذَلَّ مِنِ امْرَأَةٍ: جَبَانًا عَنِ الْقَوِيِّ، جَرِيئًا عَلَى الضَّعِيفِ.

فَالْأَخْلَاقُ الذَّمِيمَةُ: يُوَلِّدُ بَعْضُهَا بَعْضًا، كَمَا أَنَّ الْأَخْلَاقَ الْحَمِيدَةَ: يُوَلِّدُ بَعْضُهَا بَعْضًا "[٢٢٣]

" قالت أم الدَّرْدَاءِ : بَاتَ أَبُو الدَّرْدَاءِ اللَّيْلَةَ يُصَلِّي فَجَعَلَ يَبْكِي وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي، حَتَّى أَصْبَحَ فَقُلْتُ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ مَا كَانَ دُعَاؤُكَ مُنْذُ اللَّيْلَةِ إِلَّا فِي حُسْنِ الْخُلُقِ قَالَ: يَا أُمَّ الدَّرْدَاءِ إِنَّ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ يَحْسُنُ خُلُقُهُ حَتَّى يُدْخِلَهُ حُسْنُ خُلُقِهِ الْجَنَّةَ، وَيَسُوءُ خُلُقُهُ حَتَّى يُدْخِلَهُ سُوءُ خُلُقِهِ النَّارَ، وَإِنَّ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ لَيُغْفَرُ لَهُ وَهُوَ نَائِمٌ قَالَ: قُلْتُ: وَكَيْفَ ذَاكَ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ؟ قَالَ: يَقُومُ أَخُوهُ مِنَ اللَّيْلِ فَيَتَهَجَّدُ فَيَدْعُو اللَّهَ فَيَسْتَجِيبُ لَهُ وَيَدْعُو لِأَبِيهِ فَيَسْتَجِيبُ لَهُ "[٢٢٤]

وقد "حُكِيَ عن علي - رضي الله عنه – أنه كان له غُلامٌ فَدَعَاهُ ، فَلَمْ يُجِبْهُ ، فَدَعَاهُ ثانياً فَلَمْ يُجِبْهُ، فقامَ إليه فَرَآهُ مُضْطَجِعاً قال: ما حَمَلكَ على تَرْكِ جَوَابي؟ قال: آمِنْتُ مِن عُقُوبَتِكَ فقال: أنتَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ.

" قيل للإمام الحَسَن البَصْرى : فُلانٌ اغْتَابَكَ، فَبَعَثَ إليهِ طَبَقًا مِن الرُّطَبِ وقال: بَلَغَنِي أَنَّكَ أَهْدَيْتَ إِلَيَّ حَسَنَاتِك فأَرَدْتُ أنْ أُكَافِئَكَ بِها"[٢٢٥]

ونُقِلَ عن زَيْنِ العابدين ـ مِن ذُرِيَّةِ الحُسين بن علي ـ أنّ رَجُلاً اغْتَابَه فقال له: إنْ كنتَ صادقاً في قولِكَ فَغَفَرَ اُلله لي، وإنْ كنتَ كذاباً في قولِكَ فَغَفَرَ اللهُ لكَ.

وخَرَجَ يوماً إلى الجامع فَسَبَّهُ رَجُلٌ، فأَقْبَلَ عليه فقال: ما خَفِيَ عليكَ مِن أَمْرِنا أَكْثر ثم قال له: ألكَ حاجةٌ ، فاسْتَحَى الرجلُ ، فَدَفَعَ إليه زَينُ العابدين ألفَ دِرْهَمٍ وأَلْقَى عليه ثَوْبَه فَذَهَبَ

[٢٢٣] مدارج السالكين ، ٢/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥ .
[٢٢٤] أحمد بن حنبل ، الزهد ، ص ١١٥ .
[٢٢٥] ابن بَطَّال ، شَرح صحيح البخاري ، ٩/ ٢٥٣ .

الرجلُ وهو يقولُ: إِنَّني أَشْهَدُ أَنَّكَ ابنُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم"[٢٢٦]

" قال شُعَيْب بن اللَّيْث : خَرَجتُ مع أَبي حَاجًّا، فَقَدِمَ المَدينةَ، فَبَعَثَ إليه مالكُ بن أنس بِطَبَقٍ فيه رُطَبٌ، فَجَعَلَ على الطَّبَقِ ألف دينارٍ وَرَدَّهُ إِلَيْهِ "[٢٢٧]

" كان الليث يَركَب في جميع الصلوات إلى الجامع، ويَتَصَدَّقُ كلَّ يومٍ على ثلاثمائةِ مِسكينٍ "[٢٢٨]

" قال منصور بن عمار: دَخلتُ على الليث خُلْوَةً، فاسْتَخْرَجَ مِن تحتهِ كِيْساً فيه ألف دينار وقال: يا أبا السَّرِيّ لا تُعْلِمْ بها ابْنِي فَتَهُونَ عليه "[٢٢٩]

" جاء رجل فشتم الأَحْنَفَ فسكتَ عنه، وأعادَ الرجلُ ، فسَكَتَ الأَحْنَف، فقال: وَالَهْفَاهُ! ما يَمْنَعُهُ مِن أنْ يَرُدَّ عليَّ إلّا هَوَانِي عليه .

وأَسْمَعَ رَجُلٌ الشَّعْبِيَّ كلاماً ، فقال له الشَّعْبِيّ: إنْ كُنتَ صَادِقاً فَغَفَرَ اللهُ لي ، وإنْ كُنتَ كاذباً فَغَفَرَ اللهُ لكَ.

وقال رجلٌ لآخَرَ: واللهِ لَئِنْ قُلتَ واحدةً لَتَسْمَعنَّ عَشْراً، فقال له الآخَرُ: لَكِنَّكَ إنْ قُلْتَ عَشْراً لم تَسْمَعْ واحدةً.

وشَتَمَ رَجلٌ عمر بن ذَرٍّ ، فقال له عمر بن ذَرٍّ: يا هذا، لا تُغْرِق في شَتْمِنَا وَدَعْ للصُّلْحِ مَوْضِعاً، فإنّي أَمَتُّ مُشَاتَمَةَ الرجالِ صغيراً ، ولنْ أُحْيِيها كبيراً، وإِنّي لا أُكافِيءُ مَن عَصَى اللهَ فيَّ بأَكْثَرَ مَن أنْ أُطِيْعَ اللهَ فيه "[٢٣٠]

---

[٢٢٦] السفيري ، المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية ، ص ٣٨٦ .
[٢٢٧] المُنْتَظَم في تاريخ المُلوك والأُمَم ، ١٣/٩ .
[٢٢٨] الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ٣١١/١١ .
[٢٢٩] الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ٣١١/١١ .
[٢٣٠] ابن قُتَيْبة ، عُيون الأخبار ، ٣٩٧/١ .

" كَانَ لعبد اللَّه الخياط مَجُوسيٌّ يَخِيْطُ لَهُ ثِياباً ويَدْفَعُ إِلَيْهِ دراهمَ زُيُوفَاً[٢٣١] ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يأخذها، فاتَفَقَ أَنَّهُ قامَ مِن حَانُوته يوماً لِشُغْلٍ ، فجاءَ المَجُوسي بالدَّرَاهم الزُيُوف فَدَفَعَها إِلَى تِلميذه: فَلَمْ يَقْبَلْهَا ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ الصِّحاح ، فلمَّا رَجَعَ عَبْدُ اللَّهِ قَالَ لتلميذه: أين قميصُ المجوسي؟ فَذَكَرَ لَهُ القِصَّةَ ، فَقَالَ: بِئْسَما عَمِلْتَ ، إنّه مُذْ مُدَةٍ يُعَامِلني بِمِثْلِها ، وَأنا أَصْبِرُ عَلَيْهِ ، وأُلْقِيها فِي بِئْرٍ لِئلَّا يَغُرَّ بِهَا غَيْرِي "[٢٣٢]

إِنّي لَتُطْرِبُنِي الخِلالُ كَرِيمةً طَرب الغَريبِ بأَوْبَةٍ وتَلَاقِ
ويَهُزُّنِي ذِكْرُ المُرُوءَةِ والنَّدى بينَ الشَّمَائِل هِزَّةَ المُشْتَاقِ
فإِذا رُزِقْتَ خَلِيْقَةً مَحْمُودة فقَد اصْطَفَاكَ مُقَسِّمُ الأَرْزَاقِ
فالنَّاسُ هذا حَظُّهُ مَالٌ، وَذَا عِلْمٌ ، وَذَاكَ مَكَارِم الأَخْلاقِ

" وَمن عَلامَة حسن الْخلق احْتِمَال الاذى فِي ذَات الله وكظم الغيظ وَكَثْرَة الْمُوَافقَة لاهل الْحق على الْحق وَالْمَغْفِرَة والتجافي عَن الزلة .
وَمن عَلامَة سوء الْخلق كَثْرَة الْخلاف وَقلة الِاحْتِمَال "[٢٣٣]

" قَالَ الفُضَيْلُ بْن عِيَاضٍ : إذا خالطتَ فخَالِطَ حَسَنَ الخُلُقِ ، فإنَّه لا يَدْعو إلا إلى خيرٍ ، وصاحِبُه مِنْه في راحةٍ ، ولا تُخالط سَيِءَ الخُلُق فإنَّه لا يَدْعُو إلا إلى شَرٍّ ، وصاحِبُه مِنْه في عَنَاءٍ[٢٣٤] ولأنْ يَصْحَبَنِي فاجرٌ حَسَن الخُلُق ، أَحَبّ إليَّ مِن أَنْ يَصْحَبَني قاريءٌ سَيِء الخُلُقِ ، إنّ الفاسقَ إذا كان حَسَن

[٢٣١] مَغْشُوشة . المعجم الوسيط ، ٤٠٩/١ .

[٢٣٢] الرسالة القُشيرية ، ٢/ ٤٠١ .
[٢٣٣] المُحاسبي ، آداب النفوس ، ص ١٥٣ .
[٢٣٤] تَعَب .

الخُلُق عاشَ بِعَقْله ، وخَفَّ على الناسِ ، وأَحَبُّوهُ ، وإنَّ العابدَ إذا كان سَيِء الخُلُق ، ثَقُلَ على الناسِ ومَقَتُوهُ[٢٣٥] "[٢٣٦]

فيا أخي الحبيب :" إِذَا حَسُنَتْ أَخْلَاقُ الْإِنْسَانِ كَثُرَ مُصَافُوهُ، وَقَلَّ مُعَادُوهُ، فَتَسَهَّلَتْ عَلَيْهِ الْأُمُورُ الصِّعَابُ، وَلَانَتْ لَهُ الْقُلُوبُ الْغِضَابُ .
وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مِنْ سَعَةِ الْأَخْلَاقِ كُنُوزُ الْأَرْزَاقِ .
وَحُسْنُ الْخَلْقِ أَنْ يَكُونَ سَهْلَ الْعَرِيكَةِ، لَيِّنَ الْجَانِبِ، طَلِيقَ الْوَجْهِ، قَلِيلَ النُّفُورِ، طَيِّبَ الْكَلِمَةِ "[٢٣٧]

---

[٢٣٥] أَبْغَضُوهُ .
[٢٣٦] ابن حِبَّان ، رَوضة العقلاء ونُزْهَةُ الفُضلاء ، ص ٦٤ .
[٢٣٧] الماوردي ، أدب الدنيا والدين ، ص ٢٤٣ بتصرف .

٣٤) رِضى العبد عن الله تعالى

" الرَّاضِي: هُوَ الَّذِي يَعُدُّ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ فِيمَا يَكْرَهُهُ، أَكْثَرَ وَأَعْظَمَ مِنْ نِعَمِهِ عَلَيْهِ فِيمَا يُحِبُّهُ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: يَا ابْنَ آدَمَ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ فِيمَا تَكْرَهُ أَعْظَمُ مِنْ نِعْمَتِهِ عَلَيْكَ فِيمَا تُحِبُّ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} [البقرة: ٢١٦] وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: ارْضَ عَنِ اللَّهِ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ بِكَ. فَإِنَّهُ مَا مَنَعَكَ إِلَّا لِيُعْطِيَكَ. وَلَا ابْتَلَاكَ إِلَّا لِيُعَافِيَكَ. وَلَا أَمْرَضَكَ إِلَّا لِيَشْفِيَكَ. وَلَا أَمَاتَكَ إِلَّا لِيُحْيِيَكَ. فَإِيَّاكَ أَنْ تُفَارِقَ الرِّضَا عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ. فَتَسْقُطَ مِنْ عَيْنِهِ.
قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: عَلَامَةُ حُبِّ اللَّهِ: كَثْرَةُ ذِكْرِهِ. فَإِنَّكَ لَا تُحِبُّ شَيْئًا إِلَّا أَكْثَرْتَ مِنْ ذِكْرِهِ. وَعَلَامَةُ الدِّينِ: الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ. وَعَلَامَةُ الشُّكْرِ، الرِّضَا بِقَدَرِ اللَّهِ وَالتَّسْلِيمُ لِقَضَائِهِ .

ومِن فوائدُ الرضا على العبد :

١) يُثْمِرُ سُرورَ القلبِ بالمَقْدُور في جميع الأُمور.
٢) طِيْبَ النَّفْسِ وسُكُونِها في كلِّ حالٍ .
٣) طُمأْنينة القلب عند كل بلاءٍ وكَرْبٍ في الدنيا .
٤) بَرْدَ القَناعة.
٥) سعادةُ العبد بما قَسَمَهُ لهُ رَبُّه، وفَرَحُه بما أعطاه مولاهُ .
٦) اسْتِسْلامُ العبد لِمَوْلاهُ في كلِّ شيءٍ، ورِضَاهُ مِنهُ بما يُجْرِيْه عليه، وتَسْلِيْمه لِمولاهُ الأحكامَ والقضايا .
٧) اعتقادُ حُسْن تَدْبِيْرِه، وكمال حكمته .
٨) يُذْهِبُ عنه شَكْوى رَبِّهِ إلى غَيْرِه وتَبَرُّمِه بقضائِه.

ولهذا سَمَّى بعضُ العارفين الرِّضا: حُسْنُ الخُلُق مع الله. فإنّه يُوْجِبُ تَرْكَ الاعْتِراضِ على اللهِ في مُلْكِهِ، وتَرْكُ فُضُول الكلامِ الذي يَقْدَحُ في حُسْنِ خُلُقِه "[٢٣٨]
فالله تعالى " كلُّ نِعْمَةٍ مِنْه فَضْلٌ ، وكُلُّ نِقْمَة مِنه عَدْلٌ "[٢٣٩]

وما أجمل ما قاله " عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زَيْدٍ: الرِّضَا بَابُ اللهِ الْأَعْظَمُ، وَجَنَّةُ الدُّنْيَا وَمُسْتَرَاحُ الْعَابِدِينَ "[٢٤٠]
" وقال عبد الله بن مَسْعُودٍ: إِنَّ اللَّهَ بِقِسْطِهِ وَعَدْلِهِ جَعَلَ الرَّوحَ وَالْفَرَحَ فِي الْيَقِينِ وَالرِّضَا، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ؛ فَالرَّاضِي لَا يَتَمَنَّى غَيْرَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةٍ وَرَخَاءٍ كَذَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِمَا. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: أَصْبَحْتُ وَمَالِي سُرُورٌ إِلَّا فِي مَوَاضِعِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ.
فَمَنْ وَصَلَ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ، كَانَ عَيْشُهُ كُلُّهُ فِي نَعِيمٍ وَسُرُورٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [النحل: ٩٧] [النَّحْلِ: ٩٧] قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ: هِيَ الرِّضَا وَالْقَنَاعَةُ .

وَأَهْلُ الرِّضَا تَارَةً يُلَاحِظُونَ حِكْمَةَ الْمُبْتَلِي وَخَيْرَتَهُ لِعَبْدِهِ فِي الْبَلَاءِ، وَأَنَّهُ غَيْرُ مُتَّهَمٍ فِي قَضَائِهِ، وَتَارَةً يُلَاحِظُونَ ثَوَابَ الرِّضَا بِالْقَضَاءِ، فَيُنْسِيهِمْ أَلَمَ الْمَقْضِيِّ بِهِ، وَتَارَةً يُلَاحِظُونَ عَظَمَةَ الْمُبْتَلِي وَجَلَالَهُ وَكَمَالَهُ، فَيَسْتَغْرِقُونَ فِي مُشَاهَدَةِ ذَلِكَ، حَتَّى لَا يَشْعُرُونَ بِالْأَلَمِ، وَهَذَا يَصِلُ إِلَيْهِ خَوَاصُّ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَالْمَحَبَّةِ، حَتَّى رُبَّمَا تَلَذَّذُوا بِمَا أَصَابَهُمْ لِمُلَاحَظَتِهِمْ صُدُورَهُ عَنْ حَبِيبِهِمْ، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: أَوَجَدَهُمْ فِي عَذَابِهِ عُذُوبَةً.

---

[٢٣٨] مدارج السالكين ، ٢/ ٢٠٨ ـ ٢١٢ بتصرف واختصار .
[٢٣٩] منهاج السنة النبوية ، ٦ / ٣٩٧ .
[٢٤٠] حلية الأولياء ، ٦ / ١٥٦ .

وَسُئِلَ بَعْضُ التَّابِعِينَ عَنْ حَالِهِ فِي مَرَضِهِ، فَقَالَ: أَحَبُّهُ إِلَيْهِ أَحَبُّهُ إِلَيَّ. وَسُئِلَ السَّرِيُّ: هَلْ يَجِدُ الْمُحِبُّ أَلَمَ الْبَلَاءِ؟ فَقَالَ: لَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ:
عَذَابُهُ فِيكَ عَذْبٌ ... وَبُعْدُهُ فِيكَ قُرْبُ
وَأَنْتَ عِنْدِي كَرُوحِي ... بَلْ أَنْتَ مِنْهَا أَحَبُّ
حَسْبِي مِنَ الْحُبِّ أَنِّي لِمَا تُحِبُّ أُحِبُّ[٢٤١]

" قال الأَصْمَعِي: خَرَجتُ أنا وصَدِيقٌ لي إلى البادية، فَضَلَلْنا الطريقَ، فإذا نحنُ بِخَيمةٍ عن يمينِ الطريقِ، فقَصَدْناها، فَسَلّمْنا، فإذا امرأةٌ تَرُدُّ علينا السَّلامَ، قالت: ما أَنتم؟ قلنا: قَوْمٌ ضَالُّون عن الطريق، أَتَيْنَاكُم فأَنِسْنَا بِكم، فقالتْ: يا هؤلاءِ وَلُّو وجُوهَكُم عَنِّي.
حتى أَقْضِي مِن حَقِكم ما أَنْتم له أَهلٌ، فَفَعَلْنا، فأَلْقَتْ لنا مسحاً، فقالت: اجْلِسوا عليه إلى أنْ يأتي ابْني، ثم جَعَلَتْ تَرْفَعُ طَرَفَ الخيمةِ وتَرُدَّها، إلى أنْ رَفَعَتْها، فقالتْ: أسألُ اللهَ بَرَكة المُقْبِل، أمّا البعيرُ فبَعِيْرُ ابْنِي، وأمّا الراكبُ فليسَ بابْنِي، فوقَفَ الراكبُ عليها، فقال: يا أمَّ عَقِيْل، أَعْظَمَ اللهُ أَجْرَكِ في عَقِيْل، قالت: ويْحَكَ! ماتَ ابْنِي؟ قال: نعم، قالت: وما سببُ مَوتِه؟ قال: ازْدَحَمَتْ عليه الإبل، فَرَمَتْ به في البئر، فقالت: انْزِلْ فَاقْضِ ذِمَامَ القومِ، ودَفَعَتْ إليه كَبْشاً، فَذَبَحهُ وأَصْلَحَهُ، وقَرَّبَ إلينا الطعامَ، فجَعَلْنا نأْكلُ ونَتَعَجَّبُ مِن صَبْرِها، فلمّا فَرَغْنا، خَرَجَتْ إلينا وقد تَكَوَّرَتْ، فقالت: يا هؤلاء، هل فيكم مِن أَحَدٍ يُحْسِنُ مِن كتابِ اللهِ شيئاً؟ فقال الأصْمَعِي: نعم، قالت: اقْرَأْ مِن كتابِ اللهِ آياتٍ أَتَعَزَّى بِها، قلتُ: يقولُ اللهُ عزَّ وجَلّ في كتابِه: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الذينَ إِذا أَصَابَتْهُمْ مُصِيْبَةٌ قالوا إِنَّا

[٢٤١] جامع العلوم والحِكَم ، ١ / ٤٨٧ .

للهِ وإنَّا إليه رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عليهمْ صَلَواتٌ مِن رَبِّهمْ وَرَحمَةٌ وأُولَئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ} قالتْ: آللهُ، إنَّها لَفِي كِتابِ اللهِ هكذا؟ قلتُ: آللهُ، إنَّها لَفِي كتابِ اللهِ هكذا! قالتْ: السَّلامُ عليكم، ثم صَفَّتْ قَدَمَيْها، وصَلَّتْ رَكعاتٍ، ثم قالتْ: {إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ رَاجِعُونَ} عندَ اللهِ أَحْتَسِبُ عَقِيْلاً، تَقُولُ ذلكَ ثَلاثاً، اللهُمَّ إنِّي فَعَلْتُ ما أَمَرْتَنَي به، فأَنْجِزْ لِي ما وَعَدْتَنِي "[٢٤٢].

أيها الحبيب ...

" سُئلت رابعة مَتَى يَكُون العبدُ راضياً؟ فَقَالَتْ : إذَا سرته المُصيبة كَمَا سرته النعمة .

وَقَالَ النُّوْرِي: الرِّضا سُرورُ القلبِ بِمُرِّ الْقَضَاء "[٢٤٣]

وقد قال النصر آبادي : " مَن أرادَ أنْ يَبْلُغَ مَحلَّ الرضا ، فليَلْزَم ما جَعَلَ اللهُ رِضاهُ فيه ".

قال شيخ الإسلام على هذا الكلام البديع :" فإنّ هذا الكلام في غايةِ الحُسْنِ ، فإنَّه مَن لَزِمَ ما يُرضي اللهَ مِن امْتِثال أوامِرِه ، واجتنابِ نَوَاهيه ، لا سِيّمَا إذا قامَ بِوَاجِبها ومُسْتَحَبِّها ، فإنّ اللهَ يَرْضَى عنه ، كما أنّ مَن لَزِمَ مَحبوبات الحقِّ أَحَبَّهُ اللهُ ، كما قال في الحديث الصحيح الذي في البخاري: {مَن عادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ بَارَزَنِي بالمُحَارَبَةِ ، ومَا تَقَرَّبَ إليَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ ما افْتَرَضْتُ عليهِ ، ولا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتى أُحِبَّهُ ، فإذا أَحْبَبْتُه} الحديث. وذلك أنَّ الرضا نوعان:

أحدهما : الرضا بِفِعْلِ ما أُمِرَ بِه ، وتَرْكِ ما نُهِيَ عنه. ويَتناولُ ما أَباحَهُ اللهُ مِن غيرِ تَعَدٍّ إلى المَحْظُور كما قال: {واللهُ ورَسُولُهُ أَحَقُّ أنْ يُرْضُوهُ} وقال تعالى: {ولَو أَنَّهُم رَضُوا ما آتَاهُمُ اللهُ ورَسولُهُ وقالوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِيْنَا اللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إنَّا إلى اللهِ رَاغِبُونَ} وهذا الرِّضا واجبٌ؛ ولهذا ذُمَّ مَن تَرَكَهُ بقوله: {ومِنْهُم مَن يَلْمِزُكَ في الصَّدَقاتِ فإنْ

---

[٢٤٢] محمد المنبجي ، تسلية أهل المصائب ، ص ١٤٢ .

[٢٤٣] الرسالة القُشَيريَّة ، ٢ / ٣٤٣ ـ ٣٤٤ .

أُعْطُوا مِنها رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوا مِنها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ} {وَلَو أَنَّهُم رَضُوا ما آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِيْنَا اللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ} . والنوعُ الثاني : الرضا بالمصائب ، كالفقرِ والمرضِ والذُّلّ ، فهذا الرضا مُسْتحبٌّ في أَحَدِ قَوْلِي العلماء ، وليس بواجب ، وقد قيل: إنه واجبٌ ، والصحيحُ أنّ الواجبَ هو الصبر. كَمَا قال الحَسَن: الرضا غَرِيْزَةٌ ، ولكنَّ الصبرَ مِعْوَلُ المُؤْمن "[٢٤٤]

فإنْ سألت ـ أيها الحبيب ـ عمَّا يُساعد على تحقيق الرضا في قلب المؤمن " فالراضي إنما يَحْمِلُهُ على احْتمال المَكَاره والآلام
، مَا يَجِدُهُ مِنْ لَذَّةِ الرِّضَا وَحَلَاوَتِهِ. فَإِذَا فَقَدَ تِلْكَ الْحَلَاوَةَ وَاللَّذَّةَ ، امْتَنَعَ أَنْ يَتَحَمَّلَ أَلَمًا وَمَرَارَةً ، فَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ رَاضِيًا وَلَيْسَ مَعَهُ مِنْ حَلَاوَةِ الرِّضَا مَا يَحْمِلُ بِهِ مَرَارَةَ الْمَكَارِهِ؟ "[٢٤٥]

[٢٤٤] مجموع الفتاوى ، ١٠ / ٦٨١ ـ ٦٨٢ .
[٢٤٥] مجموع الفتاوى ، ١٠ / ٧٠٤ ـ ٧٠٥ .

٣٥) حُب الخير للناس

" قال النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[٢٤٦]

قال " إِبْرَاهِيم الأطروس : كُنَّا قُعُوداً ببغداد مَعَ مَعْرُوفٍ الكَرْخِي عَلَى الدِّجْلَة ، إِذْ مَرَّ بِنَا قومٌ أَحْدَاثٌ فِي زَوْرَقٍ يَضْرِبون بالدُّفِّ ويَشْرَبُون[٢٤٧] ويَلْعَبُون ، فقُلنا لِمَعْرُوفٍ : أَمَا تَرَاهُم كَيْفَ يَعْصُون اللَّهَ تَعَالَى مُجاهرين ؟! ادْعُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَيْهِم فَرَفَعَ يَدَهُ وَقَالَ : إِلهي كَمَا فَرَّحْتَهم فِي الدُّنيا فَفَرِّحْهُم فِي الآخِرَة ، فَقَالُوا : إِنَّمَا سَأَلْناك أَنْ تَدْعُو عَلَيْهِم ، فَقَالَ: إِذَا فَرَّحَهُم فِي الآخرةِ تابَ عَلَيْهِم."[٢٤٨]

" وَالْعَبْدُ إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالتَّوْحِيدِ فَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصًا مِنْ قَلْبِهِ - وَالْإِلَهُ هُوَ الْمَعْبُودُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ غَايَةَ الْحُبِّ وَالْعُبُودِيَّةِ بِالْإِجْلَالِ وَالْإِكْرَامِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ يَفْنَى الْقَلْبُ بِحُبِّ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ حُبِّ مَا سِوَاهُ وَدُعَائِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَسُؤَالِهِ عَمَّا سِوَاهُ وَبِطَاعَتِهِ عَنْ طَاعَةِ مَا سِوَاهُ - حَلَّاهُ اللَّهُ بِالْأَمْنِ وَالسُّرُورِ وَالْحُبُورِ وَالرَّحْمَةِ لِلْخَلْقِ؛ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ فَهُوَ يُجَاهِدُ وَيَرْحَمُ. لَهُ الصَّبْرُ وَالرَّحْمَةُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

---

[٢٤٦] البخاري ، الجامع الصحيح ، ١٢/١ رقم ١٣ .
[٢٤٧] الخمر .
[٢٤٨] القُشَيْرِي ، الرسالة القشيرية ، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ .

{وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} وَكُلَّمَا قَوِيَ التَّوْحِيدُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ قَوِيَ إيمَانُهُ وَطُمَأْنِينَتُهُ وَتَوَكُّلُهُ وَيَقِينُهُ "[٢٤٩]

٣٦) حُبُّ الناسِ للعبدِ

" قال النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ "[٢٥٠]

" فعلى قَدْرِ مَحبةِ العبدِ للهِ يُحِبُه الناسُ، وعلى قَدْرِ خَوفه مِن اللهِ يَخَافُه الخَلْقُ، وعلى قَدْرِ تَعظيمه للهِ وحُرُمَاتِه يُعَظِّمْهُ الناسُ، وكيف يَنْتَهِكُ عبدٌ حُرماتِ اللهِ، ويَطْمعُ أنْ لا يَنْتَهِكَ الناسُ حُرمَاتِه أم كيف يَهُونَ عليه حَقُّ اللهِ ولا يُهَوِّنْه اللهُ على الناسِ؟ أم كيف يَسْتَخِفُّ بمعاصي اللهِ ، ولا يَسْتِخْفِ به الخَلْقُ؟"[٢٥١]

" وَقَالَ زيد بن أسلم كَانَ يُقَال : مَن اتَّقى اللهَ أَحَبَّهُ النَّاسُ ، وَإِن كَرِهُوا . وَقَالَ الثَّوْريّ لِابْنِ أبي ذِئْب : إِنْ اتَّقَيْتَ اللهَ كَفاكَ النَّاسَ ، وَإِنْ اتَّقَيْتَ النَّاسَ لنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً "[٢٥٢]

إذا أحبَّ اللهُ يَوْماً عَبْدَهُ ... أَلْقَى عليهِ مَحَبةً في الناسِ

---

[٢٤٩] مجموع الفتاوى ، ٢٨ / ٣٥ .
[٢٥٠] البخاري ، الجامع الصحيح ، ١٤/٨ رقم ٦٠٤٠ .
[٢٥١] الجواب الكافي ، ص ٦٩ .
[٢٥٢] الفوائد ، ص ٥٤ .

" عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»[٢٥٣]

فالله تعالى يَنْشُر فضائلَه ومَحاسِنَه بين الناس ، لِمَا في قَلب العبد مِن الإخلاص والصِّدْق ومحبةِ الله تعالى وتعظيمه .

٣٧) قوة الشخصية

" جاء إِيَاس بن مُعَاوِيَة وَهُوَ صبي إِلَى قَاضِي دمشق وَمَعَهُ شيخ ، فَقَالَ : أَصْلَحَ اللهُ القَاضِي ، هَذَا الشَّيْخُ ظَلَمَنِي ، واعتدى عَليّ ، وَأَخَذَ مَالِي ، فَقَالَ القَاضِي : ارْفِق بِهِ ، وَلَا تسْتَقْبل الشَّيْخ بِمِثْل هَذَا الْكَلَام ، فَقَالَ إِيَاس : أَصْلَحَ اللهُ القَاضِي ، إِنّ الْحقَّ أكبرُ مِنِّي وَمِنْه ومِنْكَ ، فقَالَ القاضي : اسْكُتْ ، فقَالَ إِيَاس : إِنْ سَكَتُّ فَمَن يَقومُ بِحُجَّتي ، فقَالَ القاضي : تَكَلَّم بِخَير ، فَقَالَ إياس : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَرَفَعَ صَاحبُ الْخَبَرِ هَذَا الْخَبَر ، فَعُزِلَ القَاضِي ، وَوُلِّيَ إِيَاسٌ مَكَانَهُ"[٢٥٤]

" قال عبد الله بْن الْمُبَارك : رَأَيْتُ أَبَا حَنيفَة فِي طَرِيق مَكَّة ، وشَوَى لَهُم فَصِيْلٌ ثَمِيْن فاشْتَهُوا أَنْ يأْكُلُوه بِخَلٍّ ، فَلَمْ يَجِدُوا شَيْئاً يَصُبُّون فِيهِ الْخَلّ ، فتَحَيَّرُوا ، فَرَأَيْتُ أَبَا حنيفَة ، وَقد حَفَرَ فِي الرَّمْل حُفْرَةً ، وَبَسَطَ عَلَيْهَا السُّفْرَة ، وسَكَبَ الْخَلَّ على ذَلِكَ الْمَوْضِع فَأَكَلُوا الشِّوَاء بالخَلّ ، فَقَالُوا لَهُ : تُحْسِنُ كُلَّ شَيْءٍ ، فَقَالَ : عَلَيْكُم بالشُّكر ، فَإِنّ هَذَا شَيْءٌ أُلْهِمْتُه لَكم فَضْلاً مِن اللهِ عَلَيْكُم "[٢٥٥]

---

[٢٥٣] صحيح الإمام مُسْلِم ، ٤/٢٠٣٤ رقم ٢٦٤٢ .
[٢٥٤] الأذكياء ، ص ٢٠٢ .
[٢٥٥] الأذكياء ، ص ٧٢ .

نَعَمْ إِنَّ كِتْمَاني هُمُومِيَ مُؤْلِمُ وَلَكِنَّ إِظْهَارِي هُمُومِـيَ أَعْظَمُ
فَبِي كُلُّ مَا يُبْكِي العُيُونَ أَقَلُّهُ وَإِنْ كُنـْتُ مِنــهُ دَائِمَــاً أَتَبَـسّمُ
وَتَضْحَكُ سِنُّ المَرْءِ وَالقَلْبُ مُوجَعٌ وَيَرْضَى الفَتى عَنْ دَهْرِهِ وَهْوَ مُفْعَمُ[٢٥٦]

[٢٥٦] مُفْعَمٌ : مَلِيءٌ ، لسان العرب ، ١٢/ ٤٥٥ .

٣٨) تُوفيق العبد للخَيْرَات

"التَّوْفِيقُ إِرَادَةُ اللَّهِ مِنْ نَفْسِهِ أَنْ يَفْعَلَ بِعَبْدِهِ مَا يُصْلِحُ بِهِ الْعَبْدَ، بِأَنْ يَجْعَلَهُ قَادِرًا عَلَى فِعْلِ مَا يُرْضِيهِ، مُرِيدًا لَهُ، مُحِبًّا لَهُ، مُؤْثِرًا لَهُ عَلَى غَيْرِهِ، وَيُبَغِّضَ إِلَيْهِ مَا يُسْخِطُهُ، وَيُكَرِّهَهُ إِلَيْهِ، وَهَذَا مُجَرَّدُ فِعْلِهِ، وَالْعَبْدُ مَحَلٌّ لَهُ، قَالَ تَعَالَى {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ - فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الحجرات: ٧ - ٨] فَهُوَ سُبْحَانَهُ عَلِيمٌ بِمَنْ يَصْلُحُ لِهَذَا الْفَضْلِ وَمَنْ لَا يَصْلُحُ لَهُ، حَكِيمٌ يَضَعُهُ فِي مَوَاضِعِهِ وَعِنْدَ أَهْلِهِ "[٢٥٧]

و" كُلُّ خَيرٍ فأَصْلُهُ التَّوْفِيق - وَهُوَ بِيَدِ اللهِ إِلَى نَفسك ، لَا بِيَدِ العَبْدِ ، ومفتاحُ التوفيق : الدُّعَاء والافتقارُ وَصِدْقُ اللَّجَأِ وَالرَّغْبَة والرَّهْبَة إِلَيْهِ ، فَمَتَى أَعْطى العَبْدَ هَذَا الْمِفْتَاح ، فَقَد أَرَادَ أَنْ يَفْتَحَ لَهُ ، وَمَتى أَضَلَّهُ عَن الْمِفْتَاحِ بَقِيَ بَاب الْخَيْر مُغْلَقاً دُونَهُ .

قَالَ أَمِير الْمُؤمنِينَ عمر بن الْخطاب إِنِّي لَا أحمل هم الْإِجَابَة وَلَكِن هم الدُّعَاء فَإِذا ألهمت الدُّعَاء فَإِن الْإِجَابَة مَعَه وعَلى قدرنية العَبْد وهمته وَمرَاده ورغبته فِي ذَلِك يكون توفيقه سُبْحَانَهُ وإعانته فالمعونة من الله تنزل على الْعباد على قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم والخذلان ينزل عَلَيْهِم على حسب ذَلِك فَالله سُبْحَانَهُ أحكم الْحَاكِمين وَأعلم الْعَالمين يضع التَّوْفِيق فِي موَاضعه اللائقة بِهِ والخذلان فِي موَاضعه اللائقة بِهِ هُوَ الْعَلِيم الْحَكِيم وَمَا أُتِي من أُتِي إِلَّا من قِبَل إِضَاعَة الشُّكْر وإهمال الافتقار وَالدُّعَاء وَلَا ظفر من ظفر بِمَشِيئَة الله وعونه إِلَّا بقيامه بالشكر وَصدق الافتقار وَالدُّعَاء وملاك ذَلِك الصَّبْر فَإِنَّهُ من الْإِيمَان بِمَنْزِلَة الرَّأْس من الْجَسَد فَإِذا قطع الرَّأْس فَلَا بَقَاء للجسد "[٢٥٨]

---

[٢٥٧] مدارج السالكين ، ١/٤١٦ .

[٢٥٨] ابن القيم ، الفوائد ، ص ٩٧ بتصرف .

" الفقيه الفاضل الوَرِعُ : خَلَفُ بن سُلَيمان بن فَتْحُون كان قاضياً بشَاطِبَة بالأَندلس ،. وكان يصوم الدهر،[٢٥٩] فَرَاجَعَتْهُ خالتُه في ذلك ، فقال: كان أَبي ـ رحمَهُ اللهُ ـ في آخِرِ عُمْره التْزَمَ صيامَ الدَّهْر، فلما تُوفِيَ رأيتُ أنْ أَرِثَ ذلك عَنْهُ، فقالت له خالتُه: أنتَ الذي أَنْتَ ولدي ، تَصُومُ وأنا لا أَصُومُ، فالتَزَمَتْ صِيامَ الدَّهْرِ مِن حِيْنَئِذٍ إلى أنْ تُوفِيَتْ "[٢٦٠]

" قَالَ شَقِيق بن إِبْرَاهِيم أغلق بَاب التَّوْفِيق عَن الْخلق من سِتَّة أَشْيَاء اشتغالهم بِالنعْمَةِ عَن شكرها ورغبتهم فِي الْعلم وتركهم الْعَمَل والمسارعة إِلَى الذَّنب وَتَأْخِير التَّوْبَة والاغترار بِصُحْبَة الصَّالِحين وَترك الِاقْتِدَاء بفعالهم وإدبار الدُّنْيَا عَنْهُم وهم يتبعونها وإقبال الْآخِرَة عَلَيْهِم وهم معرضون عَنْهَا قلت وأصل ذَلِك عدم الرَّغْبَة والرهبة وَأَصله ضعف الْيَقِين وَأَصله ضعف البصيرة وَأَصله مهانة النَّفس ودناءتها واستبدال الَّذِي هُوَ أدنى بِالَّذِي هُوَ خير وَإِلَّا فَلَو كَانَت النَّفس شريفة كَبِيرَة لم ترض بالدون فَأصل الْخَيْر كُله بِتَوْفِيق الله ومشيئته وَشرف النَّفس ونبلها وكبرها وأصل الشَّرّ خستها ودناءتها وصغرها قَالَ تَعَالَى قَدْ أَفْلح من زكاها وَقد خَابَ من دساها أَي أَفْلح من كبرها وكثرها ونماها بِطَاعَة الله وخاب من صغرها وحقرها بمعاصي الله فالنفوس الشَّرِيفَة لَا ترْضى من الْأَشْيَاء إِلَّا بِأَعْلَاهَا وأفضلها وأحمدها عَاقِبَة والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وَتَقَع عَلَيْهَا كَمَا يَقع الذُّبَاب على الأقذار فَالنَّفْس الشَّرِيفَة الْعلية لَا ترْضى بالظلم وَلَا بالفواحش وَلَا بِالسَّرِقَةِ والخيانة لِأَنَّهَا أكبر من ذَلِك وأجلّ وَالنَّفس المهينة

---

[٢٥٩] يصوم طُوال السَّنة يوماً بعَد يوم .، عَدا أيام العيد فإنَّه يَحْرُم صِيامها ، وكذلك صوم كل السنة مُحَرمٌ .

[٢٦٠] بُغْيَة المُلْتَمِس ، ص ٢٨٤ .

الحقيرة والخسيسة بالضد من ذَلِك فَكل نفس تميل إِلَى مَا يُنَاسِبهَا ويشاكلها وَهَذَا معنى قَوْله تَعَالَى قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِه أَي على مَا يشاكله ويناسبه فَهُوَ يعْمل على طَرِيقَته الَّتِي تناسب أخلاقه وطبيعته وكل إِنْسَان يجْرِي على طَرِيقَته ومذهبه وعادته الَّتِي ألفها وجبل عَلَيْهَا فالفاجر يعْمل بِمَا يشبه طَرِيقَته من مُقَابلَة النعم بِالْمَعَاصِي والإعراض عَن النعم وَالْمُؤمن يعْمل بِمَا يشاكله من شكر النعم ومحبته وَالثنَاء عَلَيْهِ والتودد إِلَيْهِ وَالْحَيَاء مِنْهُ والمراقبة لَهُ وتعظيمه وإجلاله "[٢٦١]

[٢٦١] ابن القيم ، الفوائد ، ص ١٧٧ ـ ١٧٨ . وانظر : ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧ .

٣٩) المُبادَرَة للتوبة وعدم التسويف

" أول التوبة يَقظةٌ مِن الله تعالى تَقَعُ في القلب ، فَيَتَذَكَّر العبدُ تَفريطَه وإساءته، مع دوام نِعَم اللهِ تعالى عليه، فيَعْلَم أنّ الذنوبَ سُمومٌ قاتلةٌ يَخَافُ مِنها حُصُول المَكروه ، وفَوَات المَحْبوب في الدنيا والآخرة، فإذا حَصَلَ له هذا العِلْم أَثْمَرَ حالاً، وهو النَّدمُ على تَضْييع حَقّ الله تعالى، ثم يُثْمِرُ النَّدم عَمَلاً وهو المُبَادَرة إلى الخيرات، وقَضَاء الواجبات، ورَدّ الظُّلامات، والعَزْم على إصلاح ما هو آتٍ، فهذهِ الثلاثة إذا انْتَظَمَتْ فهي التوبة. ومَعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: " النَّدمُ تَوْبَة " أيْ أنَّ أَعْظَمَ أَرْكانها النَّدَم؛ فإنَّه لا يَحْصُل حتى يَتَقَدَّمه الرُّكْن الأول وهو العِلْم بِضَرَرِ الذَّنْبِ "[٢٦٢]

فتأمّل ـ أيها الحبيب ـ موقف آدم وحَوّاء عليهما السلام بعد فِعل معصية الأكل مِن الشجرة المُحَرَّمَة عليهما ، بادَرا لإعلان اعترافهما بالخطأ ، والمُبادرة بسرعة للتوبة مَن الذَّنْب " فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ " سورة الأعراف ٢٢ـ ٢٣

وكذلك موقف موسى ﷺ " وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ

[٢٦٢] محمد المشتولي ، سَلْوَة الأَحزان للاجتناب عن مُجالسة الأَحْدَاث والنِّسْوَان ، ص ٦٦ .

(١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ " سورة القصص ، فقد بادر موسى عليه الصلاة والسلام للاعتراف بِذَنْبِه وطلب المغفرة خَوفاً مِن نُزول عذاب الله عليه .

" فَالْإِنْسَانُ إِذَا أَصَابَتْهُ الْمَصَائِبُ بِذُنُوبِهِ وَخَطَايَاهُ كَانَ هُوَ الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ، فَإِذَا تَابَ وَاسْتَغْفَرَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، **وَالذُّنُوبُ مِثْلُ أَكْلِ السُّمِّ. فَهُوَ إِذَا أَكَلَ السُّمَّ مَرِضَ أَوْ مَاتَ فَهُوَ الَّذِي يَمْرَضُ وَيَتَأَلَّمُ وَيَتَعَذَّبُ وَيَمُوتُ، وَاَللَّهُ خَالِقُ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَإِنَّمَا مَرِضَ بِسَبَبِ أَكْلِهِ، وَهُوَ الَّذِي ظَلَمَ نَفْسَهُ بِأَكْلِ السُّمِّ. فَإِنْ شَرِبَ التِّرْيَاقَ النَّافِعَ عَافَاهُ اللَّهُ، فَالذُّنُوبُ كَأَكْلِ السُّمِّ، وَالتِّرْيَاقُ النَّافِعُ كَالتَّوْبَةِ النَّافِعَةِ**[٢٦٣]، وَالْعَبْدُ فَقِيرٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ حَالٍ، فَهُوَ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ يُلْهِمُهُ التَّوْبَةَ، فَإِذَا تَابَ تَابَ عَلَيْهِ، فَإِذَا سَأَلَهُ الْعَبْدُ وَدَعَاهُ اسْتَجَابَ دُعَاءَهُ. كَمَا قَالَ: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}"[٢٦٤]

" قال عَونُ بن عبد الله: قلبُ التائبِ بِمنزلةِ الزُّجَاجة ، يُؤَثِّرُ فيها جميع ما أصابها، فالموعظة إلى قُلوبِهم سريعة، وهُم إلى الرِّقَةِ أَقرب، فَدَاووا القلوبَ بالتوبة، فَلَرُبَّ تائبٍ دَعَتْهُ تَوبَتُه

[٢٦٣] " الذُّنوب والسيئات تَضُرُّ الإنسان ، أَعظم مِمَّا تَضُرُّهُ السُّمُوم " مجموع الفتاوى ، ٨/ ٣٤٨ .

[٢٦٤] مجموع الفتاوى ، ٨/ ٢٤٠ .

إلى الجنة ، حتى أَوْفَدَتْهُ (أَوْصَلَتْهُ بِرحمةِ الله) عليها، وجالسوا التَّوابين، فإنّ رحمةَ اللهِ إلى التَّوَّابين أقرب "[٢٦٥]

[٢٦٥] صَفْوَةُ الصَّفْوَة ، ٢ / ٥٩ .

٤٠) تفريج الكرب وإزالة الهَمّ

النبي يونس ﷺ حينما خَرَج مَن عند قومِه غَضبَاً لله تعالى لعدم استجابتهم للإيمان بالله ، ولم يَكن الله تعالى قد أَمَرَه بالخروج مِن عند قومه ،" وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ " فعاش في ظلمات بعضُها فوق بعض ، ظُلْمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بَطْن الحوت ، في كرب شديد ، وضيق أكيد ، فنادى بلسان التوحيد ، أنه يا سيدي ومولاي ، ونصيري ومَلاذِي لا أحد يستحق أن يُعبد ، بأنْ يُطاع في أَمْرِه ونهيه ، إلا أنت ، وأعلن الافتقار التام لله تعالى الغني القوي القدير ، {لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِين} ، " فَوَحَّدَ رَبَّهُ ونَزَّهَهُ عن كل عيبٍ ، وأَضافَ الظُّلْمَ إلى نَفْسِهِ ، وهذا مشهد صاحب سيد الاستغفار إذ يقول فى دعائه: "اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّى لا إِلهَ إلا أَنْتَ، خَلَقْتَنِى وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِك وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَى، وَأَبُوءُ بِذَنْبِى، فَاغْفِرْ لِى، إِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ".

فأقر بتوحيد الربوبية المُتَضَمِن لانْفِرَادِه سبحانه بالخَلْقِ ، وعُمُوم المَشِيْئَة ونُفُوذِها، وتوحيد الإلهية المُتَضَمِّن لِمَحبته ، وعبادته وحده لا شريك له ، والاعتراف بالعُبودية المُتَضَمِّن للافتقار مِن جميع الوجوه إليه سُبحانه "[٢٦٦]

" كان رَجُلٌ يَنْزِلُ على نَهْرِ المَهدي ، وكانت عليه نِعمة فَزَالتْ ، فلم يَقْدِرْ على شيءٍ ، فَمُطِرَ الناسُ ثلاثةَ أيامٍ مُتتابعة

[٢٦٦] ابن القيم ، طريق الهجرتين وباب السَّعادتين ، ص ١٦٧ ـ ١٦٨ .

، فبَقِيَ في منزلهِ لا يَقْدِر على الخروجِ، فأَضَرَّ بِه ذلك ، واشْتَدَّ به الجوع وبِعِياله، فلمّا كان في آخرِ الليلِ جاءَ إلى البَقَّال ، بِقَصْعَةٍ (وعاء) له لِيَرْهَنها عندَه على خُبْزٍ، فانْتهرَه البقال وقال: ما أَصْنعُ بِهذه القَصْعَة؟ وأَبَى أنْ يُعْطيَه عليها شيئاً، فعاد الرجلُ إلى مَنزله مَغْمُوماً لا حِيْلَةَ له، فَرفَعَ يَدَهُ إلى السَّماء وقال: اللهم سُقْ إليَّ في هذه الليلةِ عَبْدَاً مِن عِبادِكَ تُحِبّه ، يُفَرِّجُ عَنِّي ما أَمْسَيْتُ فيه، فما شَعَرْتُ إلا والبابُ يُدَقُّ عليَّ ، فإذا رَجُلٌ على حِمارٍ قد حَفّ بِه خَدَمٌ، فقال لي: كَمْ عِيالُكَ؟ قلتُ: كَذَا وَكَذَا، فأَعْطَاني كِيْساً ، قَدَّرْتُ أنَّ فيه خَمسةَ آلافِ درهمٍ، فقلتُ: الحمدُ للهِ الذي اسْتجَابَ دُعائي ، وَفَرَّجَ عَنِّي، فقال لي (المُتَصدِّق) : وما كان قولُك ودعاؤُكَ؟ فخَبَّرْتُه الخَبَرَ بِصنيعِ البَقَّالِ ، وما دَعُوْتُ اللهَ جَلَّ وَعَزَّ بِه، فاسْتَحْلَفَني أَنِّي دَعوتُ بهذا الدعاء، فحَلَفْتُ له، فأَمَرَ لِي بِمائةِ أَلْفِ درهم، فسألتُ بعضَ أُولئكَ الخَدَمَ عنْه (المتصدِّق) لأَعْلَمَ هلْ يَقْدِرُ على ما أَمَرَ لِي بِه أم لا، فقال (الخادمُ) : هو الفَضْلُ بن يحيى بن خالد البَرْمَكِي، فسكتُّ إلى ذلك ، وانْصَرفتُ إلى مَنزلي، ومَضيتُ إلى قَهْرَمَانه[٢٦٧] لَمَّا أَصْبَحْتُ فَقَبَضْتُ مِنهُ المالَ "[٢٦٨]

فَـ" التَّوْحِيد مَفزَعُ أعدائِه وأوليائه ، فَأَما أَعْداؤُه فيُنْجِيهم مِن كَرْب الدُّنْيَا وشدائدها {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هم يشركُونَ} ، وَأَمَّا أولياؤُه فيُنْجِيهم بِهِ مِن كُرُبات الدُّنْيَا وَالْآخِرَة وشَدائدها ، وَلذَلِك فَزَعَ إِلَيْهِ يُونُس ، فنجّاه اللهُ مِن تِلْكَ الظُّلُمَات ، وفَزِعَ إِلَيْهِ أَتبَاعُ الرُّسُل ، فَنَجَوا بِهِ مِمَّا عُذِّبَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فِي الدُّنْيَا ، وَمَا

[٢٦٧] هو المُسَيْطِرُ الحفيظ على ما تحت يديه ، العين ، ٤ / ١١١ .
[٢٦٨] إبراهيم البيهقي ، المَحاسِنُ والمَساويء ، ص ٩٨ .

أُعِدَّ لَهُم فِي الْآخِرَة ، وَلَمَّا فَزَعَ إِلَيْهِ فِرْعَوْن عِنْد مُعَاينَة الْهَلَاك ، وَإِدْرَاك الْغَرق لَهُ ، لَم يَنْفَعهُ لِأَن الْإِيمَان عِنْد المعاينة لَا يُقْبَل ،هَذِه سُنَّةُ اللهِ فِي عبادهِ ، **فَمَا دُفِعَتْ شَدَائِدُ الدُّنْيَا بِمِثْلِ التَّوْحِيد** ، وَلذَلِك كَانَ دُعَاءُ الكربِ بِالتَّوْحِيدِ ، ودَعوةُ ذِي النُّون الَّتِي مَا دَعَا بهَا مكروب إِلَّا فرّجَ اللهُ كَرْبَهُ بِالتَّوْحِيدِ ، فَلَا يُلْقِي فِي الكُرَبِ الْعِظَام إِلَّا الشّرك ، وَلَا يُنْجي مِنْهَا إِلَّا التَّوْحِيد ، فَهُوَ مَفْزَعُ الخَليقة ومَلْجَؤُها ، وحِصْنُها وغِيَاثُها "[٢٦٩]

[٢٦٩] ابن القيم ، الفوائد ، ص ٥٣ .

٤١) الإقْبال على الآخِرة وعدم الرُّكُون إلى الدُّنيا

" قال وُهَيْبِ بْنِ الْوَرْدِ: الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَا تَأْسَى[٢٧٠] عَلَى مَا فَاتَ مِنْهَا، وَلَا تَفْرَحَ بِمَا آتَاكَ مِنْهَا،

" وسئل الإمام أحمد عن الرجل يكون معه ألف دينار فهل يكون زاهداً ؟ قال : نعم ، بشرط أنْ لا يَفْرَح إذا زَادَتْ ولا يَحْزَن إذا نَقَصَتْ "[٢٧١]

أَلاَ إنَّما الدُّنيا كأحْلاَمِ نَائِمٍ ... وَمَا خَيْر عَيْشٍ لاَ يَكونُ بِدائمِ
تَأمَّلْ إذَا ما نِلْتَ بالأمس لَذَّةً ... فأَفْنَيْتَها هَلْ أنتَ إلا كَحَالِمِ؟!

" قال إِبْرَاهِيم بْن شبيب بْن شيبة : كُنَّا نَتَجالَس فِي الجمعة ، فأَتَى رَجُلٌ عليه ثوبٌ واحدٌ مُلْتَحِفٌ به، فَجَلَسَ إلينا، فأَلْقى مَسألةً، فما زِلْنَا نَتَكَلَّم فِي الفقه حَتَّى انْصَرَفْنا، ثُمَّ جاءَنا فِي الجمعة المُقْبِلَة ، فأَجَبْنَاه وسَأَلْناه عَنْ مَنزله، قَالَ: أَنْزِل الخريبة، فسَأَلْناه عَنْ كنيته، فَقَالَ أَبُو عَبْد اللَّه: فَرَغَبْنا فِي مُجالستِه ورَأَيْنا مَجْلِسَنا مَجْلِسَ فِقْهٍ، فمَكَثْنا بذلك زماناً، ثُمَّ انْقَطَع عَنَّا، فَقَالَ بعضُنا لبعضٍ : مَا حالُنا وقد كَانَ مَجلسنا عامراً بأَبي عَبْد اللَّه، وقد صار يُوحِشنا ، فَوَعَدَ بعضنا بعضاً إذا أَصبحنا أنْ نأتي الخريبة فنسأل عَنْهُ، فأتيناه الخريبة وكنَّا عَدَداً، فجَعَلنا نَستحي أنْ نَسأل عَنْ أبي عَبْد اللَّه، فنَظَرنا إِلَى صبيان قَدِ انْصرَفُوا مِن الكُتَّاب فقلنا: أَبُو عَبْد اللَّه، فقالوا: لعلَّهم يَعْنُون الصياد، قلنا: نعم، قَالُوا: هَذَا وقتُه الآنَ يَجِيءُ،

---

[٢٧٠] لا تَحْزن .

[٢٧١] ابن القيم ، عُدَّة الصَّبرين وذَخِيْرة الشَّاكِرين ، ص ٢٦٤ ، وجامع العلوم والحكم ، ١٨٣/٢.

فقَعَدْنا نَنْتَظره، فإذا هو قد أَقْبَلَ مُؤْتَزِراً بخِرْقَةٍ، على كَتِفِه خِرْقة ، ومعه أَطيار مَذْبحة وأَطْيار أحياء، فلمّا رَآنا تَبَسَّمَ إِلينا وَقَالَ: مَا جاءَ بكم؟ فقلنا: فَقَدْناكَ، وقد كنتَ عَمَّرْتَ مَجْلِسنا، فما غَيَّبَكَ عنَّا؟ قَالَ: أَصْدُقُكُم، كَانَ لنا جارٌ كنتُ أَسْتعيرُ مِنه كلَّ يومٍ ذلك الثوب الَّذِي كنتُ آتيكُم فِيهِ، وَكَانَ غريباً، فَخَرج إِلَى وطنِه، فلمْ يَكُنْ لي ثوبٌ آتيكُم فِيهِ، هل لكم أنْ تَدْخُلُوا المنزلَ فتَأْكُلوا مِمَّا رَزَقَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ؟ فَقَالَ بعضُنا لبعضٍ: ادْخُلُوا منزلَه، فجاءَ إِلَى البابِ فَسَلَّمَ ثُمَّ صَلَّى قليلاً ثُمَّ دَخَلَ، فأَذِنَ لنا فَدَخَلْنا، فإذا هو قد أتى بِقِطَعٍ مِن البَوَارِي فَبَسَطَها لَنا فَقَعَدْنا، فَدَخَل إِلَى المرأة، فَسَلَّم إليها الأطيار المُذَبَّحة، وأَخَذَ الأَطيار الأحياء ثُمّ قَالَ: أنا آتيكُم إِنْ شاءَ اللَّهُ عَنْ قريبٍ، فأَتَى السوقَ فباعَها واشْترى لنا خُبزاً، فجاءَ وقد صنعتْ المرأةُ ذلك الطيرَ وهيئتَه، فقَدَّمَ إلينا خُبزاً ولَحْمِ الطيرِ، فأَكَلْنا، فجَعلَ يقومُ فيأْتِينا بالملح والماء، فكلمّا قامَ قَالَ بعضُنا لبعضٍ: رأَيتم مثلَ هَذَا؟ ألا تُغَيِّرُون وأنتم سادة أَهْل البصرة؟! فقال أحدهم: عليّ خمسمائة، وقال الآخر: على ثلاثمائة، وَقَالَ هَذَا وَقَالَ هَذَا، ضَمِن بعضُهم أنْ يأخذ لَهُ مِن غيره، فَبلغ الَّذِي جُمِعَ له فِي الحساب خمسة آلاف درهم، فقالوا: قُومُوا بْنا نَذَهبَ فنأَتيه بهذا المال ، ونَسْأله أنْ يُغَيِّر مَا هو فِيهِ، فقُمْنا فانْصَرفْنا عَلَى حالِنا رُكْبانا، وإذا بمحمد بْن سُلَيْمَان أمير البصرة قاعد فِي مَنْظَرِه لَهُ، فَقَالَ: يا غلام، آتيني بإبراهيم بْن شبيب بْن شيبة مِن بين القوم، فجئتُ فدَخَلْتُ عليه، فسَأَلَني عَنْ قِصتنا ومِن أين أَقْبَلْنا، فَصَدَقْتُه الحديثَ، فَقَالَ: أنا أَسْبِقُكُم إِلَى بِرِّه، يا غلام، آتِيْني بِبَدْرَة دراهم، فجاء فَقَالَ: أَحْمِلَ هَذِهِ البَدْرَة مَعَ هَذَا الرجل حَتَّى يَدْفَعها إِلَى مَن أَمَرْناهُ ، فَفَرِحتُ، ثُمَّ قمتُ مُسْرِعاً، فلمّا أَتيتُ البابَ سَلَّمتُ فأجابْني أَبُو عَبْد الله، ثُمَّ خَرَجَ إليّ، فَلَمَّا رأى الفِرَاشَ والبَدْرَة عَلَى عُنقه كأَنِّي سَفَيْتُ فِي وجهِه الرَّماد، فأَقْبَلَ عليّ بغير الوجه الأول ، وَقَالَ: مَا ليَ

ولكَ، تُريدُ أنْ تَفتنني؟ فقلتُ: يا أبا عَبْد الله أُقْعُد حَتَّى أُخْبِرُكَ، إنَّه مِن القصة كذا وكذا، وَهُوَ الَّذِي تَعَلَم أَحَدُ الجَبَّارين- يعني مُحَمَّد بْن سليمان- ولو كَانَ أَمَرني أنْ أَضَعَها حيثُ أَرَى لَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فأَخْبَرتُه أَنِّي قد وَضَعْتُها، فاللَّهَ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ، فازْدَادَ عليَّ غَيظاً، وقامَ فَدَخلَ مَنزلَه وصَفَقَ البابَ فِي وجهي فجعلتُ أُقَدِّمُ وأُؤَخِرُ، مَا أَدْرِي مَا أَقول للأَمير، ثُمَّ لَمْ أَجِدْ بُدّاً مِن الصِدق، فجئتُ فأَخْبَرْتُه الخَبَرَ ، فَقَالَ: حَرُورِي[٢٧٢] والله يا غلام، عليّ بالسَّيف، فجاء بالسيف فَقَالَ: خُذْ بِيَدِ هَذَا حَتَّى يَذْهبَ بكَ إِلَى هَذَا الرجل، فإذا خَرَجَ إليكَ فاضْرِبْ عُنُقَهُ وآتِيْني برأسِه، قَالَ إِبْرَاهِيم: فقلتُ: أَصْلَحَ اللَّهُ الأميرَ، اللهَ اللهَ، فو اللهِ لقد رَأينا رَجُلاً مَا هو مِن الخَوَارجِ، ولكني أَذْهبُ فآتيكَ به، وما أريد بذلك إلا افتداءً مِنه، قال: فَضَمْنِّيْه،[٢٧٣] فمضيتُ حَتَّى أتيتُ البابَ فَسَلَّمتُ، فإذا المرأةُ تَحِنُّ وتَبكي، ثُمَّ فَتحتْ البابَ وتَوَارتْ وأَذِنَتْ فَدَخَلْتُ، فقالتْ: مَا شأنُكم وشأن أَبي عَبْد اللَّه؟ قلتُ: وما حالُه؟ قالتْ: دَخَلَ فَمالَ إِلَى الرّكّي فَنَزَعَ مِنها ماء فتوضأَ ثُمَّ صَلَّى ، ثُمَّ سمعته يَقُول: اللَّهمّ اقْبَضْنِي إليكَ ولا تَفْتِنِّي. ثُمَّ تَمَدَّدَ وَهُوَ يَقُول ذلك، فَلَحِقْتُه وقد فهو ذاك ميت، فقلت: يا هَذِهِ إنّ لنا قصة عجيبة، فلا تُحْدِثُوا فِيهِ شيئاً، فجئتُ مُحَمَّد بْن سليمان فأَخْبَرتُه الخَبَرَ، فَقَالَ:أنا أَرْكَبُ فأُصَلِّي عَلَى هَذَا، قَالَ: وشاع خَبَرُه بالبَصْرَة، فشَهِدَهُ الأَميرَ وعامةُ أَهْل البصرة، رحمه الله "[٢٧٥]

" دَخَلَ الأَوْزَاعي على المَهْدِي فَوَعَظَهُ وذَكَّرهُ، فقال له: يا أَمير المؤمنين، إنْ اللهَ تعالى أَعْطَاكَ فَضْلَ الدُّنيا وَكَفَاكَ

---

[٢٧٢] مِن فِرقة الخوارج الضالين .

[٢٧٣] اجعله في عَهدي وحمايتي وضَمَاني فلا تَأمر بقتلِه .

[٢٧٤] مات .

[٢٧٥] سِبْط بن الجَوْزِي ، المُنْتَظَم في تاريخ الملوك والأُمَم ، ٣٤١/٨ ـ ٣٤٢ .

طَلَبَها، فاطْلُبْ فَضيلةَ الآخرةِ فَقَدْ فَرَّغَكَ لها؛ فاسْتَحْسَنَ قَوْلَه"[٢٧٦]

[٢٧٦] التوحيدي ، البصائر والذَّخائر ، ١٥٤/٧ .

٤٢) تبصير العبد بعيوب نفسه

" قال سفيان الثَّوري : سمعتُ أعرابياً وهو مُتعلق بعرفة، وهو يقول: إلهي من أولى بالزلل والتقصير مني، وقد خلقتني ضعيفاً؟ من أولى بالعفو عني مِنْكَ وعِلْمُكَ فيَّ سَابِقٌ، وأَمْرُكَ بي مُحيطٌ؟ أطعتك بإذنك والمنة لك علي، وعصيتك بعلمك والحجة لك، فأسألك بوجوب حجتك وانقطاع حجتي، وبفقري إليك وغناك عني أن تغفر لي وترحمني، إلهي لم أحسن حتى أعطيتني، ولم أسيء حتى قضيتَ عليَّ. اللهم إنا أطعناك بنعمتك في أحب الأشياء إليك. شهادة أن لا إله إلا الله ولم نعصك في أبغض الأشياء إليك، الشرك بك، فاغفر لي ما بينهما، اللهم سري إليك مكشوف، وأنا إليك ملهوف، إذا أوحشتني الغربة آنسني ذكرك، وإذا صببت علي الهموم لجأت إليك استجارة بك، علماً بأن أزمة الأمور بيدك وأن مصدرها عن قضائك "[٢٧٧]

" قال ابْنُ عَبَّاسٍ : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَذْكُرَ عُيُوبَ صَاحِبِكَ فَاذْكُرْ عُيُوبَ نَفْسِكَ "[٢٧٨]

و"قال بعض العلماء: مِن عَلامة المَقْتِ (البُغْض) أنْ يكون العبدُ ذَاكِراً لِعُيوب غَيْرِه ناسياً لعُيوب نَفْسِه"[٢٧٩]

" ومَن أَرادَ اللهُ به خَيراً فَتَحَ له بابَ الذُّل والانكسار، ودَوَام اللّجَأ إلى الله تعالى والافتقار إليه، ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها، ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبره

---

[٢٧٧] صفوة الصفوة ، ٢ / ٥١٣ .
[٢٧٨] أحمد بن حنبل ، الزُّهْد ، ص ١٥٤ رقم ١٠٤٦ .
[٢٧٩] قُوتُ القُلوب ، ١/ ١٥٦ .

وغناه وحمده. فالعارف سائر إلى الله تعالى بين هذين الجناحين، لا يمكنه أن يسير إلا بهما، فمتى فاته واحد منهما فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه. قال شيخ الإسلام: العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل. وهذا معنى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح من حديث بريدة رضي الله تعالى عنه «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» فجمع في قوله صلي الله عليه وسلم أبوء لك بنعمتك علي، وأَبُوءُ بِذَنْبي مُشاهدة المِنَّة ومُطالعة عَيْب النَّفْس والعمل. فُمشَاهَدة المِنَة تُوجِبُ له المَحبة والحمد والشكر لولي النعم والإحسان، ومُطالعة عَيْب النَّفْس والعمل تُوجِبُ له الذُّل والإنْكِسَار والافْتِقَار والتوبة في كل وَقْتٍ، وأنْ لا يَرَى نفسه إلا مفلساً، وأقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى هو الإفلاس فلا يرى لنفسه حالاً ولا مقاماً ولا سبباً يتعلق به ولا وسيلة منه يمن بها، بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصرف، والافلاس المحض، دخول من كسر الفقر والمسكنة قلبه حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع وشملته الكسرة من كل جهاته، وشهد ضرورته إلى ربه عز وجل، وكمال فاقته وفقره إليه، وأن في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة، وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى، وأنه إنْ تَخَلَّى عنه طَرْفَةَ عَيْنٍ هَلَكَ وَخَسَرَ خَسارةً لا تُجْبر، إلا أن يعود الله تعالى عليه ويتداركه برحمته. ولا طريق إلى الله أقرب من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوى.

والعبودية مدارها على قاعدتين هما أصلها: حُبٌّ كاملٌ، وذُلٌّ تام.

ومنشأ هذين الأصلين عن ذينك الأصلي المتقدمين وهما مشاهدة المنة التي تورث المحبة، ومطالعة عيب النفس والعمل التي تورث الذل التام، وإذا كان العبد قد بنى سلوكه إلى الله تعالى على هذين الأصلين لم يظفر عدوه به إلا على غره وغيلة، وما أسرع ما ينعشه الله عز وجل ويجبره ويتداركه برحمته "[٢٨٠].

" وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ يَقُولُ: الْعَارِفُ لَا يَرَى لَهُ عَلَى أَحَدٍ حَقًّا، وَلَا يَشْهَدُ عَلَى غَيْرِهِ فَضْلًا، وَلِذَلِكَ لَا يُعَاتِبُ، وَلَا يُطَالِبُ، وَلَا يُضَارِبُ "[٢٨١]

"وشُهُودُ (رُؤية) العَبْدِ ذنُوبَه وخَطَايَاهُ مُوجِبٌ لَهُ ان لَا يَرَى لنَفسِهِ على أَحَدٍ فَضْلاً وَلَا لَهُ على أُحْدُ حَقًا فَإِنَّهُ يشْهد عُيُوب نَفسه وذنوبه فَلَا يظنّ انه خير من مُسلم يُؤمن بِاللَّه وَرَسُوله وَيحرم مَا حرم الله وَرَسُوله وَإِذا شهد ذَلِك مِن نَفْسِه لم يَرَ لَهَا على النَّاس حُقوقاً مِن الإِكْرام يَتَقَاضَاهُم إِيَّاها ، ويَذُمُّهم على تَرْك الْقِيام بهَا فَإِنَّهَا عِنْدَهُ أَخَسُّ قَدْراً وأَقَلُّ قِيمَةً مِن أنْ يكون لَهُ بهَا على عبادِ اللهِ حُقُوق يجبُ عَلَيْهِم مُرَاعَاتها ، أَو لَهُ عَلَيْهِم فَضْلٌ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُكْرَم ويُعَظَّم وَيُقَدَّمُ لأَجْلِها ، فَيَرى أنّ مَن سَلَّم عَلَيْهِ اَوْ لَقِيَه بِوَجْه مُنْبَسِطٌ فَقَد أَحسنَ إِليه وبَذَلَ لَهُ مَالا يسْتَحقّهُ فاستراح هَذَا فِي نَفْسِه وأَرَاحَ النَّاسَ مِن شِكَايَتِه وغَضَبِه على الْوُجُودِ وأَهْلِه ، فَمَا أَطيبَ عَيْشَهُ ، وَمَا أَنْعَمْ بَاله وَمَا أَقَرَّ عَيْنَهُ وأَيْنَ هَذَا مِمَّن لَا يَزَال عاتِباً على الْخلق ، شَاكِياً تَرَكَ قِيامهم بِحقِّهِ ساخِطَاً عَلَيْهِم ، وهُم عَلَيْهِ أَسْخَط "[٢٨٢]

---

[٢٨٠] الوَابِلُ الصَّيِّب ، ص ٧ ـ ٨ .
[٢٨١] ابن القيم ، مَدَارِج السَّالكين ، ١/ ٥١٩ .
[٢٨٢] مفتاح دار السعادة ، ١/ ٢٩٨ .

" قال زَاذَان المدايني : رَأَيْتُ أَقْوَامًا من النَّاس لَهُم عُيُوب فَسَكَتُوا عَن عُيُوب النَّاس فَستر الله عيوبهم وزالت عَنْهُم تِلْكَ الْعُيُوب وَرَأَيْت أَقْوَامًا لم تكن لَهُم عُيُوب اشتغلوا بعيوب النَّاس فصارت لهم عُيوب "[٢٨٣]

" جاء رَجُل من الزُّهَّاد إلى هارون الرَّشيد ، فَقَالَ: يا هارون، اتَقِ اللَّهَ، فأَخَذَهُ فَخَلا بِه، وَقَالَ: يا هَذَا أَنْصِفْني، أَنا شَرٌّ أَمْ فِرْعون؟ قَالَ: بل فِرْعون، قَالَ: فأَنْتَ خيرٌ أَمْ موسى؟ قَالَ: بلْ موسى، قَالَ: أَفَمَا تَعْلَمُ أنّ اللَّهَ تعالى لَمّا بَعَثَهُ وأَخَاهُ إِلَيْهِ قَالَ: فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً " وقد جَبَهْتَنِي بأَغْلَظ الأَلفاظ ، فلا بأَدَبِ اللَّهِ تَأَدَبْتَ، ولا بأَخْلاقِ الصالحينَ أَخَذْتَ. قَالَ: أَخْطَأْتُ وأنا أَسْتَغْفِرُ اللهَ ، فقال: غَفَرَ اللهُ لكَ، وأَمَرَ لَهُ بعِشرين ألفِ دِرْهم، فأَبَى أنْ يَأْخُذَها. فهذه الأخلاقُ الطَّيبة "[٢٨٤]. و"طُوبَى لِمَن عَلِمَ مِن عُيُوب نَفْسِه أَكثرَ مِمَّا يَعْلَمُ النَّاسُ مِنْهَا"[٢٨٥] .

و"مَن امْتُحِنَ بالعُجُب فليفكر فِي عيوبه فَإِن أعجب بفضائله فليفتش مَا فِيهِ من الْأَخْلَاق الدنيئة فَإِن خفيت عَلَيْهِ عيوبه جملَة حَتَّى يظنّ أَنه لَا عيب فِيهِ فَليعلم أَن مصيبته إِلَى الْأَبَد وَأَنه أتم النَّاس نقصا وأعظمهم عيوبا وأضعفهم تمييزا وَأول ذَلِك أَنه ضَعِيف الْعقل جَاهِل وَلَا عيب أَشد من هذَيْن لِأَن الْعَاقِل هُوَ من ميز عُيُوب نَفسه فغالبها وسعى فِي قمعها والأحمق هُوَ الَّذِي يجهل عُيُوب نَفسه إِمَّا لقلَّة علمه وتمييزه وَضعف فكرته وَإِمَّا لِأَنَّهُ يقدر أَن عيوبه خِصَال وَهَذَا أَشد عيب فِي الأَرْض وَفِي النَّاس كثير يفخرون بِالزِّنَا واللياطة وَالسَّرِقَة وَالظُّلم فيعجب بتأتي هَذِه النحوس لَهُ وبقوته على هَذِه المخازي وَاعْلَم يَقِينا أَن لَا يسلم إنسي من نقص حاشا الْأَنْبِيَاء صلوَات الله عَلَيْهِم فَمن خفيت عَلَيْهِ عُيُوب نَفسه فقد

---

[٢٨٣] محمد السُّلَمي ، عُيوبُ النَّفْس ، ص ١٢ ـ ١٣ .

[٢٨٤] . سِبْط بن الجَوْزِي ، المنْتَظَم في تاريخ الملوك والأُمَم ، ٣٢٨/٨ .

[٢٨٥] ابن حَزْمٍ ، الأخلاق والسِّيَر ، ص ٢٦ .

سقط وَصَارَ من السخف والضعة والرذالة والخسة وَضعف التَّمْيِيز وَالْعقل وَقلة الْفَهم بِحَيْثُ لَا يتَخَلَّف عَنهُ متخلف من الأرذال وبحيث لَيْسَ تَحْتَهُ منزلَة من الدناءة فليتدارك نَفسه بالبحث عَن عيوبه والاشتغال بذلك عَن الْإِعْجَاب بهَا وَعَن عُيُوب غَيره الَّتِي لَا تضره لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَة وَمَا أَدْرِي لسَمَاع عُيُوب النَّاس خصْلَة إِلَّا الاتعاظ بِمَا يسمع الْمَرْء مِنْهَا فيجتنبها وَيسْعَى فِي إِزَالَة مَا فِيهِ مِنْهَا بحول الله تَعَالَى وقوته وَأما النُّطْق بعيوب النَّاس فعيب كَبِير لَا يسوغ أصلا وَالْوَاجِب اجتنابه إِلَّا فِي نصيحة من يتَوَقَّع عَلَيْهِ الْأَذَى بمداخلة الْمَعِيب أَو على سَبِيل تبكيت المعجب فَقَط فِي وَجهه لَا خلف ظَهره "[٢٨٦]

" وَقَالَ أَبُو عُثْمَان: لا يرى أحد عيب نَفْسه وَهُوَ مستحسن من نَفْسه شَيْئًا وإنما يرى عيوب نَفْسه مَن يتهمها فِي جَمِيع الأحوال"[٢٨٧]

" وقيل: إِذَا أراد الله أَن ينقل العبد مِن ذُلّ المعصية إِلَى عِزّ الطاعة آنسه بالوحدة وأغناه بالقناعة وبصره بعيوب نَفْسه فمن أعطي ذَلِكَ فَقَدْ أعطي خير الدنيا والآخرة"[٢٨٨]

و" اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ خَيْرًا بَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ ، فَمَنْ كَانَتْ بَصِيرَتُهُ نَافِذَةً لَمْ تَخْفَ عَلَيْهِ عُيُوبُهُ ، فَإِذَا عَرَفَ الْعُيُوبَ أَمْكَنَهُ الْعِلَاجُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ الْخَلْقِ جَاهِلُونَ بِعُيُوبِ أَنْفُسِهِمْ ، يَرَى أَحَدُهُمُ الْقَذَى فِي عَيْنِ أَخِيهِ ، وَلَا يَرَى

---

[٢٨٦] محمد بن حَزْمٍ ، الأخلاق والسِّيَر ، ص ٦٧ ـ ٦٨ .
[٢٨٧] الرسالة القُشَيْرِية ، ٢٢٠/١ .
[٢٨٨] الرسالة القُشَيْرِية ، ٢٢٦/١ .

الْجِذْعَ فِي عَيْنِ نَفْسِهِ ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ عُيُوبَ نفسه فله أربعة طُرُق :

الْأَوَّلُ : أَنْ يَجْلِسَ بَيْنَ يَدَيْ شَيْخٍ بَصِيرٍ بعيوب النَّفْس، مُطَّلِعٌ على خَفايا الآفات ، ويُحَكِّمُه في نَفْسِه فيُعَرِّفه بعُيوب نَفْسِه ويُعَرِّفُه طريقَ عِلاجه .

الثَّانِي : أَنْ يَطْلُبَ صَدِيقًا صَدُوقًا بَصِيرًا مُتَدَيِّنًا فَيُنَصِّبه رَقِيباً على نَفْسِه ، لِيُلاحِظ أَحْوَالَهُ وَأَفْعَالَهُ ، فَمَا كَرِهَ مِنْ أَخْلَاقِهِ وَأَفْعَالِهِ وعيوبه الباطنة والظاهرة ، يُنَبِّهُهُ عليه ، فَهَكذا كان يَفعلُ الأَكياس[٢٨٩] والأكابر مِنْ أَئِمَّةِ الدِّينِ .

كَانَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً أَهْدَى إِلَيَّ عيوبي ، وَكَانَ يَسْأَلُ حذيفةَ ، وَيَقُولُ لَهُ : أَنْتَ صَاحِبُ سِرِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمُنَافِقِينَ ، فَهَلْ تَرَى عَلَيَّ شَيْئًا مِنْ آثَارِ النِّفَاقِ ؟ ، فَهُوَ عَلَى جَلَالَةِ قَدْرِهِ وَعُلُوِّ مَنْصِبِهِ هَكَذَا كَانَتْ تُهْمَتُهُ لِنَفْسِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

فَكُلُّ مَنْ كَانَ أَوْفَرَ عَقْلًا وَأَعْلَى مَنْصِبًا كَانَ أَقَلَّ إِعْجَابًا وَأَعْظَمَ اتِّهَامًا لِنَفْسِهِ ، إلا أنّ هذا قد عَزَّ فَقَلَّ في الأصدقاء مَن يَتُرك المُدَاهَنَة فيُخْبِر بالعَيب أو يترك الحسد فلا يزيد على قَدْرِ الواجب فلا تخلو في أصدقائك عن حَسُودٍ أو صاحب غَرَضٍ ، يَرَى ما ليسَ بعيبٍ عَيْباً أو عن مُدَاهِنٍ يُخْفي عنك بَعض عُيوبك .

وَقَدْ آلَ الْأَمْرُ فِي أَمْثَالِنَا إِلَى أَنَّ أَبْغَضَ الْخَلْقِ إِلَيْنَا مَنْ يَنْصَحُنَا وَيُعَرِّفُنَا عُيُوبَنَا وَيَكَادُ هَذَا أَنْ يَكُونَ مُفْصِحًا عَنْ ضَعْفِ الْإِيمَانِ فَإِنَّ الْأَخْلَاقَ السَّيِّئَةَ حَيَّاتٌ وَعَقَارِبُ لَدَّاغَةٌ فَلَوْ نَبَّهَنَا مُنَبِّهٌ عَلَى أَنَّ تَحْتَ ثَوْبِنَا عَقْرَبًا لَتَقَلَّدْنَا مِنْهُ مِنَّةً وَفَرِحْنَا بِهِ وَاشْتَغَلْنَا بإزالة العقرب وإبعادها وقتلها وإنما نكايتها على البدن ويدوم أَلَمُهَا يَوْمًا فَمَا دُونَهُ وَنِكَايَةُ الْأَخْلَاقِ الرَّدِيئَةِ عَلَى

[٢٨٩] العُقلاء ، لسان العرب ، ٦/ ٢٠١ .

صَمِيمِ الْقَلْبِ أَخْشَى أَنْ تَدُومَ بعد الموت أبداً وآلافاً من السنين ثُمَّ إِنَّا لَا نَفْرَحُ بِمَنْ يُنَبِّهُنَا عَلَيْهَا وَلَا نَشْتَغِلُ بِإِزَالَتِهَا بَلْ نَشْتَغِلُ بِمُقَابَلَةِ النَّاصِحِ بِمِثْلِ مَقَالَتِهِ فَنَقُولُ لَهُ وَأَنْتَ أَيْضًا تَصْنَعُ كَيْتَ وَكَيْتَ وَتَشْغَلُنَا الْعَدَاوَةُ مَعَهُ عَنِ الِانْتِفَاعِ بِنُصْحِهِ وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ قَسَاوَةِ الْقَلْبِ الَّتِي أَثْمَرَتْهَا كَثْرَةُ الذُّنُوبِ وَأَصْلُ كُلِّ ذلك ضعف الإيمان

فنسأل الله عز وجل أَنْ يُلْهِمَنَا رُشْدَنَا وَيُبَصِّرَنَا بِعُيُوبِنَا وَيَشْغَلَنَا بِمُدَاوَاتِهَا وَيُوَفِّقَنَا لِلْقِيَامِ بِشُكْرِ مَنْ يُطْلِعُنَا عَلَى مَسَاوِينَا بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ

الطَّرِيقُ الثَّالِثُ : أَنْ يَسْتَفِيدَ مَعْرِفَةَ عُيُوبِ نَفْسِهِ مِنْ أَلْسِنَةِ أَعْدَائِهِ فَإِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا وَلَعَلَّ انْتِفَاعَ الْإِنْسَانِ بِعَدُوٍّ مشاحن يذكره عُيُوبَهُ أَكْثَرُ مِنِ انْتِفَاعِهِ بِصَدِيقٍ مُدَاهِنٍ يُثْنِي عَلَيْهِ وَيَمْدَحُهُ وَيُخْفِي عَنْهُ عُيُوبَهُ إِلَّا أَنَّ الطَّبْعَ مَجْبُولٌ عَلَى تَكْذِيبِ الْعَدُوِّ وَحَمْلِ مَا يَقُولُهُ عَلَى الْحَسَدِ وَلَكِنَّ الْبَصِيرَ لَا يَخْلُو عَنِ الِانْتِفَاعِ بِقَوْلِ أَعْدَائِهِ فَإِنَّ مَسَاوِيَهُ لَا بُدَّ وَأَنْ تَنْتَشِرَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ

الطَّرِيقُ الرَّابِعُ : أَنْ يُخَالِطَ النَّاسَ فَكُلُّ مَا رَآهُ مَذْمُومًا فِيمَا بَيْنَ الْخَلْقِ فَلْيُطَالِبْ نَفْسَهُ بِهِ وَيَنْسُبْهَا إِلَيْهِ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ فَيَرَى مِنْ عُيُوبِ غَيْرِهِ عُيُوبَ نَفْسِهِ ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الطِّبَاعَ مُتَقَارِبَةٌ فِي اتِّبَاعِ الْهَوَى فَمَا يَتَّصِفُ بِهِ واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عَنْ أَصْلِهِ أَوْ عَنْ أَعْظَمَ مِنْهُ أَوْ عن شيء منه فليتفقد نَفْسَهُ ويُطَهِرها مِن كُلِّ مَا يَذُمُّهُ مَنْ غَيْرِهِ وَنَاهِيكَ بِهَذَا تَأْدِيبًا فَلَوْ تَرَكَ النَّاسُ كُلُّهُمْ مَا يَكْرَهُونَهُ من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب

وهذا كله حيل من فقد شيخاً عارفاً ذكياً بصيراً بعيوب النفس مشفقاً ناصحاً في الدين فارغاً من تهذيب نفسه مشتغلاً بتهذيب عباد الله تعالى ناصحاً لهم فمن وجد ذلك فقد وجد

الطبيب فليلازمه فهو الذي يخلصه من مرضه وينجيه من الهلاك الذي هو بصدده "[٢٩٠]

الخامس : دعاء الله تعالى

فيسأل العبدُ اللهَ تعالى أنْ يُبَصِرَهُ بِعيوب نَفْسِه ، مِثل أنْ يقولَ : يا رب يا عليم عَلِّمني عيوب نَفْسي ، يا بصير بَصِّرْني بعيوب نَفسي .

" قيل مَرَّ رَجُلٌ على رَجُلٍ فَسَلَّم عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ الرجل الَّذِي سَلَّمَ عَلَيْهِ : يَا أخي ، لَو كَشَفْتُ لَكَ عَن حَالي مَا سَلَّمْتَ عَليَّ ، فَقَالَ لَهُ الرجل الَّذِي سُلِّمَ عَلَيْهِ : يَا أَخي لَو كُشِفَتْ لي عُيوبك لَكَانَ فِي عُيوبي مَا يُشْغلني عَن جَمِيع عُيوبك"[٢٩١]

إِنَّ الْمِرْآةَ لَا تُرِيكَ عُيُوبَ وَجْهِكَ مَعَ صَدَاهَا ...
وَكَذَاكَ نَفْسَكَ لَا تُرِيكَ عُيُوبَ نَفْسِكَ مَعَ هَوَاهَا ...

وَقَالَ آخَرُ

وَكُلُّ امْرِئٍ يَدْرِي مَوَاقِعَ رُشْدِهِ ... وَلَكِنَّهُ أَعْمَى أَسِيرُ هَوَاهُ
يُشِيرُ عَلَيْهِ النَّاصِحُونَ بِجُهْدِهِمْ ... فَيَأْبَى قَبُولَ النُّصْحِ وَهُوَ يَرَاهُ
هَوَى نَفْسِهِ يُعْمِيهِ عَنْ قَصْدِ رُشْدِهِ ... وَيُبْصِرُ عَنْ فَهْمٍ عُيُوبَ سِوَاهُ

---

[٢٩٠] الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ٣/ ٦٤ ـ ٦٥ بتصرف .
[٢٩١] ابن الجوزي ، بُستان الواعظين ورياض السامعين ، ص ٥٨ .

٤٣) الإلْحَاح إلى الله تعالى بالدُّعاء

" الشكوى إلى الله سبحانه ، لا تُنافي الصبر الجَزِيل بل اعْرَاض عبده عن الشَّكوى إلى غيره ، وجَعْل الشَّكوى إليه وحدَه ، هو الصبر ، واللهُ تعالى يَبتلى عبدَه ، لِيَسْمَع شَكْوَاهُ وتَضَرُعَه ودعاءَه ، وقد ذَمَّ سبحانَه مَن لم يَتَضَرَّعْ إليه ، ولم يَسْتَكِن له وقتَ البلاء ، كما قال تعالى: " وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ " سورة الأنبياء آية ٧٦ والعبدُ أَضْعَفُ مِن أنْ يَتَجَلَّد على رَبِّه ،[٢٩٢] والربُّ تعالى لم يُرِدْ مِن عَبدِه أنْ يَتَجَلَّد عليه ، بل أَرادَ مِنه أنْ يَسْتَكِين له ، ويَتَضَرَّع إليه ، وهو تعالى يَمْقُتُ مَن يَشْكُوهُ إلى خَلْقِه ، ويُحِبُّ مَن يَشْكو ما به إليه ، وقيل لبعضِهم : كيف تَشْتكى إليه ما ليس يَخْفي عليه ، فقال : رَبِّى يَرْضَى ذُلَّ العبدِ إليه "[٢٩٣]

والعبدُ الذي يُلِّحُ على الله بالدعاء في أُمور دُنياه وأُخْرَاه دليل أَكيد وعلامَة توفيقٍ وصِدْقٍ وإخلاصٍ وثِقَةٍ عظيمةٍ بالله تعالى وأنه يَسْمَع شَكْواه ويُجِيْبُ دُعائَه ، ويُزِلُ بَلْواهُ .
وتأمَّل في قوله تعالى : {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ}

" فالذَّنْبُ يُوجِبُ ذُلَّ الْعَبْدِ وَخُضُوعَهُ وَدُعَاءَ اللَّهِ وَاسْتِغْفَارَهُ إيَّاهُ وَشُهُودَهُ بِفَقْرِهِ وَحَاجَتَهُ إلَيْهِ وَأَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا هُوَ.

---

[٢٩٢] أن يَصْبِر على ترك دُعاء الله تعالى ، فالعبد لا يَستغنى بتاتاً عن الله تعالى ، فكيف يستطيع الاستغناء عن الله تعالى ، والله تعالى يملكه ، وأنفاسه ورِزْقه وحياته وموته بيد الله تعالى ؟ !!.

[٢٩٣] ابن القيم ، عُدَّة الصابرين وذَخِيرة الشاكرين ، ص ٣٦ .

فَيَحْصُلُ لِلْمُؤْمِنِ - بِسَبَبِ الذَّنْبِ - مِنْ الْحَسَنَاتِ مَا لَمْ يَكُنْ يَحْصُلُ بِدُونِ ذَلِكَ. فَيَكُونُ هَذَا الْقَضَاءُ خَيْرًا لَهُ. فَهُوَ فِي ذُنُوبِهِ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: إمَّا أَنْ يَتُوبَ فَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيَكُونُ مِنْ التَّوَّابِينَ الَّذِينَ يُحِبُّهُمْ اللَّهُ. وَإِمَّا أَنْ يُكَفِّرَ عَنْهُ بِمَصَائِبَ؛ تُصِيبُهُ ضَرَّاءُ فَيَصْبِرُ عَلَيْهَا. فَيُكَفِّرُ عَنْهُ السَّيِّئَاتِ بِتِلْكَ الْمَصَائِبِ وَبِالصَّبْرِ عَلَيْهَا تَرْتَفِعُ دَرَجَاتُهُ. وَفِي قَوْله تَعَالَى {فَمِنْ نَفْسِكَ} مِنْ الْفَوَائِدِ: أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَرْكَنُ إلَى نَفْسِهِ وَلَا يَسْكُنُ إلَيْهَا. فَإِنَّ الشَّرَّ لَا يَجِيءُ إلَّا مِنْهَا. وَلَا يَشْتَغِلُ بِمَلَامِ النَّاسِ وَلَا ذَمِّهِمْ إذَا أَسَاءُوا إلَيْهِ. فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ السَّيِّئَاتِ الَّتِي أَصَابَتْهُ. وَهِيَ إنَّمَا أَصَابَتْهُ بِذُنُوبِهِ. فَيَرْجِعُ إلَى الذُّنُوبِ فَيَسْتَغْفِرُ مِنْهَا. وَيَسْتَعِيذُ بِاَللَّهِ مِنْ شَرِّ نَفْسِهِ وَسَيِّئَاتِ عَمَلِهِ. وَيَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُعِينَهُ عَلَى طَاعَتِهِ. فَبِذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُ كُلُّ خَيْرٍ وَيَنْدَفِعُ عَنْهُ كُلُّ شَرٍّ. وَلِهَذَا كَانَ أَنْفَعُ الدُّعَاءِ وَأَعْظَمُهُ وَأَحْكَمُهُ: دُعَاءَ الْفَاتِحَةِ {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} فَإِنَّهُ إذَا هَدَاهُ هَذَا الصِّرَاطَ: أَعَانَهُ عَلَى طَاعَتِهِ وَتَرْكِ مَعْصِيَتِهِ. فَلَمْ يُصِبْهُ شَرٌّ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ. لَكِنَّ الذُّنُوبَ هِيَ مِنْ لَوَازِمِ نَفْسِ الْإِنْسَانِ. وَهُوَ مُحْتَاجٌ إلَى الْهُدَى فِي كُلِّ لَحْظَةٍ: وَهُوَ إلَى الْهُدَى أَحْوَجُ مِنْهُ إلَى الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ. فالْعَبْدُ مُحْتَاجٌ إلَى أَنْ يُعَلِّمَهُ رَبُّهُ مَا يَفْعَلُهُ مِنْ تَفَاصِيلِ أَحْوَالِهِ. وَإِلَى مَا يَتَوَلَّدُ مِنْ تَفَاصِيلِ الْأُمُورِ فِي كُلِّ يَوْمٍ "[٢٩٤]

فَإِنْ كُنْتَ تَرْجُو أَنْ تُجَابَ بِمَا عَسَى ... يُنْجِيكَ مِنْ نَارِ الْإِلَهِ الْعَظِيمَةِ
فَدُونَكَ رَبُّ الْخَلْقِ فَاقْصِدْهُ ضَارِعًا ... مُرِيدًا لِأَنْ يَهْدِيَكَ نَحْوَالْحَقِيقَةِ
وَذَلِّلْ قِيَادَ النَّفْسِ لِلْحَقِّ وَاسْمَعَنْ ... وَلَا تُعْرِضَنْ عَنْ فِكْرَةٍ مُسْتَقِيمَةِ
وَمَا بَانَ مِنْ حَقٍّ فَلَا تَتْرُكَنَّهُ ... وَلَا تَعْصِ مَنْ يَدْعُو لِأَقْوَمِ شِرْعَةِ
وَدَعْ دِينَ ذَا الْعَادَاتِ لَا تَتْبَعَنَّهُ ... وَعُجْ عَنْ سَبِيلِ الْأُمَّةِ الْغَضَبِيَّةِ
وَمَنْ ضَلَّ عَنْ حَقٍّ فَلَا تَقْفُوَنَّهُ ... وَزِنْ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ بالمعدلية

[٢٩٤] مجموع الفتاوى ، ٨ / ٢١٤ ـ ٢١٦ ، ١٤/ ٣١٨ ـ ٣٢٠ . بتصرف .

هُنَالِكَ تَبْدُو طَالِعَاتٌ مِنْ الْهُدَى ... تُبَشِّرُ مَنْ قَدْ جَاءَ بِالْحَنِيفِيَّةِ
بِمِلَّةِ إبْرَاهِيمَ ذَاكَ إمَامُنَا ... وَدِينِ رَسُولِ اللَّهِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ
فَلَا يَقْبَلُ الرَّحْمَنُ دِينًا سِوَى الَّذِي بِهِ جَاءَتْ الرسل الْكِرَامُ السَّجِيَّةِ[٢٩٥]

" الدُّعَاءُ وَالتَّوَكُّلُ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُنَالُ بِهَا سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ "[٢٩٦]

" وَسُؤَالُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ حَاجَتَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ؛ وَهُوَ طَرِيقُ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِسُؤَالِهِ فَقَالَ: {وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ} وَمَدَحَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ رَغْبَةً وَرَهْبَةً "[٢٩٧]
" إنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ " سورة الأنبياء آية ٩٠

" وَالْعَبْدُ مُضْطَرٌّ دَائِمًا إلَى أَنْ يَهْدِيَهُ اللَّهُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ فَهُوَ مُضْطَرٌّ إلَى مَقْصُودِ هَذَا الدُّعَاءِ؛ فَإِنَّهُ لَا نَجَاةَ مِنْ الْعَذَابِ وَلَا وُصُولَ إلَى السَّعَادَةِ إلَّا بِهَذِهِ الْهِدَايَةِ فَمَنْ فَاتَهُ فَهُوَ إمَّا مِنْ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَإِمَّا مِنْ الضَّالِّينَ وَهَذَا الْهُدَى لَا يَحْصُلُ إلَّا بِهُدَى اللَّهِ "[٢٩٨]

"فَحَاجَةُ الْعَبْدِ إلَى سُؤَالِ هَذِهِ الْهِدَايَةِ ضَرُورِيَّةٌ فِي سَعَادَتِهِ وَنَجَاتِهِ وَفَلَاحِهِ؛ بِخِلَافِ حَاجَتِهِ إلَى الرِّزْقِ وَالنَّصْرِ فَإِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُهُ فَإِذَا انْقَطَعَ رِزْقُهُ مَاتَ وَالْمَوْتُ لَا بُدَّ مِنْهُ فَإِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْهُدَى بِهِ كَانَ سَعِيدًا قَبْلَ الْمَوْتِ وَبَعْدَهُ وَكَانَ الْمَوْتُ مُوَصِّلًا إلَى السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ وَكَذَلِكَ النَّصْرُ إذَا قُدِّرَ أَنَّهُ غُلِبَ حَتَّى قُتِلَ فَإِنَّهُ يَمُوتُ شَهِيدًا وَكَانَ الْقَتْلُ مِنْ تَمَامِ النِّعْمَةِ فَتَبَيَّنَ أَنَّ الْحَاجَةَ إلَى الْهُدَى أَعْظَمُ مِنْ الْحَاجَةِ إلَى النَّصْرِ وَالرِّزْقِ؛ بَلْ لَا نِسْبَةَ بَيْنَهُمَا؛ لِأَنَّهُ إذَا هُدِيَ كَانَ مِنْ الْمُتَّقِينَ {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} وَكَانَ مِمَّنْ يَنْصُرُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ نَصَرَ اللَّهَ نَصَرَهُ اللَّهُ

---

[٢٩٥] مجموع الفتاوى ، ٨/ ٢٥٢ .
[٢٩٦] مجموع الفتاوى ، ٨/ ٥٢٩ ـ ٥٣٠ بتصرف .
[٢٩٧] مجموع الفتاوى ، ٨/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩ .
[٢٩٨] مجموع الفتاوى ، ١٤/ ٣٧ .

وَكَانَ مِنْ جُنْدِ اللَّهِ وَهُمْ الْغَالِبُونَ؛ وَلِهَذَا كَانَ هَذَا الدُّعَاءُ هُوَ الْمَفْرُوضُ "[٢٩٩]

[٢٩٩] مجموع الفتاوى ، ١٤/ ٣٩ .

٤٤) استجابة الدعاء

" شَكَا أَهْلُ الكُوفَةِ سَعْدًا إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَعَزَلَهُ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَمَّارًا، فَشَكَوْا حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّهُ لاَ يُحْسِنُ يُصَلِّي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ إِنَّ هَؤُلاَءِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لاَ تُحْسِنُ تُصَلِّي، قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: أَمَّا أَنَا وَاللَّهِ «فَإِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي بِهِمْ صَلاَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَخْرِمُ عَنْهَا، أُصَلِّي صَلاَةَ العِشَاءِ، فَأَرْكُدُ فِي الأُولَيَيْنِ وَأُخِفُّ فِي الأُخْرَيَيْنِ»، قَالَ: ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ، فَأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلًا أَوْ رِجَالًا إِلَى الكُوفَةِ، فَسَأَلَ عَنْهُ أَهْلَ الكُوفَةِ وَلَمْ يَدَعْ مَسْجِدًا إِلَّا سَأَلَ عَنْهُ، وَيُثْنُونَ مَعْرُوفًا، حَتَّى دَخَلَ مَسْجِدًا لِبَنِي عَبْسٍ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ يُكْنَى أَبَا سَعْدَةَ قَالَ: أَمَّا إِذْ نَشَدْتَنَا فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لاَ يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ،[٣٠٠] وَلاَ يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ،[٣٠١] وَلاَ يَعْدِلُ فِي القَضِيَّةِ،[٣٠٢] قَالَ سَعْدٌ: أَمَا وَاللَّهِ لَأَدْعُوَنَّ بِثَلاَثٍ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا، قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَأَطِلْ عُمْرَهُ، وَأَطِلْ فَقْرَهُ، وَعَرِّضْهُ بِالفِتَنِ، وَكَانَ بَعْدُ إِذَا سُئِلَ يَقُولُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ، أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ، قَالَ عَبْدُ المَلِكِ: فَأَنَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ، قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الكِبَرِ، وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوَارِي فِي الطُّرُقِ يَغْمِزُهُنَّ "[٣٠٣]

" قال الحسين بن عِمْران بن عُيَيْنَة: حَجَجْتُ مع عَمّي سفيان بن عُيَيْنَة آخِرَ حَجَّةٍ حَجَّها سنةَ سبعٍ وتسعين ومائة. فلمّا كُنَّا بِجَمْعٍ- يَعني المُزْدَلِفَة- اسْتلقى على فِرَاشه ثم قال: قد وَافيتُ

---

[٣٠٠] أنّه جَبَانٌ لا يَخْرُجُ إلى الجهاد في سبيل الله تعالى .
[٣٠١] ظالم لا يَعدِل بين الناس في الأموال ..
[٣٠٢] ظالم إذا حَكَم بين الناس
[٣٠٣] صحيح الإمام البخاري ، ١ / ١٥١ رقم ٧٥٥ .

هذا الموضع سبعين عاماً أَقولُ في كلِّ سنةٍ: اللهم لا تَجْعَلْهُ آخرَ العهدِ مِن هذا المكان، وإِني قد اسْتحييتُ مِن اللهِ مِن كَثْرة ما أَسْأله ذلك، فَرَجَعَ فتُوفِي في العام في شهر رجب. وكان سفيانُ بب عُيَيْنَة يقول: لا يَمْنَع أحدكم مِن الدُّعاء ما يَعْلَمُ مِن نَفْسِه، فإِنَّ اللهَ قد اسْتَجابَ دُعاءَ شَرِّ الخَلْقِ ، وهُو إِبليسُ ، " قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ "[٣٠٤] "[٣٠٥]

" قال أبو قُدَامَة الشَّامِيّ : كنتُ أميراً على الجيشِ في بعض الغَزَوات، فدَخلتُ بعضَ البُلدان ، فَدَعَوْتُ الناسَ إِلى الغزو ، ورَغْبْتُهم في الثَّواب، وذَكَرْتُ فَضْلَ الشهادة وما لأَهْلِها. ثم تَفَرَّقَ الناسُ ، وركِبتُ فَرَسِي ، وسِرْتُ إِلى مَنزلي ، فإِذا أنا بامرأةٍ مِن أَحسنِ الناسِ تُنادي: يا أبا قُدَامَة، فقلتُ: هذه مَكيدةٌ مِن الشيطان. فمَضيتُ ولَمْ ُأجِبْ. ما هكذا كان الصالحون، فوقفتُ، فجاءتْ ودَفَعَتْ إِليَّ رُقعةً وخِرْقَة مَشْدودة ، وانْصَرَفَتْ باكية. فنَظرتْ إِلى الرَّقعةِ فإِذا فيها مكتوب: إِنَّك دَعَوْتَنا إِلى الجهادِ ، ورَغَبْتَنا في الثَّواب، ولا قُدْرَةَ لِي على ذلكَ ، فَقطَعْتُ أحسنَ ما فِيَّ، وهُما ضَفِيْرَتاي ، وأَنْفَذْتُهما إِليكَ لِتَجْعلهما قَيْدَ فَرَسِك، لَعَلَّ اللهَ يَرَى شَعْرِي قَيْدَ فَرَسِكَ في سَبيله فَيَغْفِرَ لِي.

فلمّا كانتْ صَبيحةُ القتالِ ، فإِذا بِغُلامٍ بينَ يَدَي الصُّفُوف يُقاتِلُ ، فتَقدمْتُ إِليه ، وقلتُ: يا فَتَى ، غُلامٌ غِرٌّ[٣٠٦] رَاجِلٌ ، ولا آمَنُ أنْ تَجُولَ الخيلُ فَتَطَأَكَ بأَرْجُلِها ، فارْجِع عن مَوْضِعكَ هذا ، فقال: أتأمُرَني بالرُّجوع؟ وقد قال اللهُ تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ، وَمَنْ

[٣٠٤] سورة الحِجْر آية ٣٦ ـ ٣٧ .
[٣٠٥] السُّيوطِي ، النُّجوم الزَّاهرة في مُلُوكِ مصر والقاهِرة ، ٢ / ١٥٨ .
[٣٠٦] الذي لَم يُجَرِّبْ الأُمور ، مع حَدَاثَةِ السِّنِّ ، العين ، ٤ / ٣٤٦ .

يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} الأنفال.

فحَمَلْتُه على هَجِيْنٍ[٣٠٧] كان معي فقال: يا أَبا قُدَامةَ ، أَقْرِضْنِي ثلاثةَ أَسْهُمٍ فقلتُ: أَهذا وقتُ قَرْضٍ؟ فما زَالَ يُلِحُّ عليَّ ، حتى قُلْتُ بِشرطٍ: إنْ مَنَّ اللهُ بالشهادةِ أَكونُ في شَفاعَتِكَ، قال: نعم. فأَعْطَيْتُه ثلاثةَ أَسْهُمٍ ، فوضَعَ سَهْمَاً في قَوْسِه وقال: السَّلامُ عليكَ يا أبا قُدَامَة. وَرَمَى به ، فَقَتَلَ رُومِيَّاً. ثم رَمَى بالآخَر وقال: السلامُ عليكَ يا أبا قُدَامَةَ فَقَتَلَ رُومِيَّاً. ثم رَمَى بالآخَر وقال: السَّلامُ عليكَ سَلامَ مُوَدِّعٍ.

فجَاءَهُ سهمٌ ، فوقَعَ بين عَينيه. فتقدمت إليه وقلت: لا تَنْسها[٣٠٨]. فقال: نعم ، ولكنْ لي إليكَ حاجةٌ: إذا دخلتَ المدينةَ ، فأْتِ والدتي ، وسَلِّمْ خَرْجِي[٣٠٩] إليها ، وأَخبِرها فهي التي أَعْطَتْكَ شعرَها لِتُقَيِّدَ به فَرَسَكَ، وسَلِّم عليها ، فإنّها العامَ الأولَ ، أُصِيْبتْ بِوالدي[٣١٠]، وفي هذا العام بِي ثم مات.

فحفرتُ له ودَفنْتُه. فلمّا هَمَمْنا بالانْصِراف عن قبرِه ، قَذَفَتْه الأرضُ فأَلْقَتْه على ظهرها. فقال أصحابي: إنه غلامٌ غِرٌّ ، ولعلَّه خَرَجَ بغيرِ إِذْنِ أُمِّهِ. فقلتُ : إنّ الأرضَ لَتَقْبَلُ مَن هو شَرٌّ مِن هذا. فقُمْتُ وصَلَّيتُ ركعتين ودعوتُ اللهَ عز وجلَّ ، فسَمعتُ صَوتاً يقول: يا أبا قُدَامة ، اتْرُك وَلِيَّ اللهِ.

فما بَرِحْتُ حتى نَزَلَتْ عليه طيورٌ فأَكَلَتْهُ، فلمّا أَتيتُ المدينةَ ، ذهبتُ إلى دارِ والدتِه ، فلمّا قَرعْتُ البابَ ، خَرجتْ أُختُه إليّ ، فلما رَأتني عادتْ ، وقالت: يا أُمَّاهُ هذا أبو قُدَامة ليس معهُ أخي، فقد أُصِبْنا في العام الأول بأَبي، وفي هذا العام بأَخي.

---

[٣٠٧] الفرَس الذي لَمْ تكن أُمُّه عربية ، انظر : الزَّمَخْشَري ، أَساسُ البلاغة ، ٢ / ٣٦٤ .

[٣٠٨] أن يَشفع له يوم القيامة .

[٣٠٩] ما يوضع به أغراض الشخص .

[٣١٠] بِقتل والدي في الجهاد .

فخَرجتْ أُمُّهُ إليّ فقالتْ: أُمُعَزِّياً أَمْ مُهَنِّئاً؟ فقلتُ: ما مَعنى هذا؟ فقالتْ: إنْ كان ماتَ فَعَزِّني، وإنْ كان اسْتُشْهِدَ فَهَنِّئْنِي. فقلتُ: لا بلْ ماتَ شهيداً. فقالت: له علامةٌ فهل رأيْتَها؟ قلتُ: نعم ، لَمْ تَقْبَلْهُ الأرضُ ، ونَزَلَت الطُّيورُ فأَكَلَتْ لَحْمَهُ ، وتَرَكتْ عِظَامَهُ فَدَفَنْتُها فقالتْ: الحمدُ لله. فسلَّمتُ إليها الخُرْجَ ، فَفَتَحَتْه فأَخْرجتْ مِنهُ مِسْحَاً[٣١١] ، وغُلَّاً[٣١٢] مِن حِديد، وقالتْ: إنه كان إذا جَنَّهُ[٣١٣] الليل لَبَسَ هذا المِسْحَ وغَلَّ نَفْسَهُ بِهذا الغُلِّ ، وناجَى مَولاهُ، وقال في مُناجَاته: أُحْشُرني مِن حَوَاصِل الطُّيور. فقد استجاب الله دعاءه."[٣١٤]

" خَرَجَ معاويةُ رضي الله عنه يَسْتسقي، فلمَّا قَعَدَ على المِنبرِ قال: أين يزيدُ بن الأسود ؟ ، فَنَادَاهُ الناسُ فأَقْبَلَ يَتَخَطَّاهُم، فأَمَرَهُ مُعاوية فَصَعَدَ المِنْبر، فقال معاوية: اللهم إنَّا نَسْتَشفع إليكَ بِخيرنا وأَفْضِلنا يزيد بن الأسود، يا يزيدُ ارْفَعْ يَدَيْكَ إلى اللهِ. فَرَفَعَ يَديه وَرَفَعَ الناسُ، فمَا كان بأَوْشَك مِن أنْ ثارتْ سحابةٌ كالتُّرْسِ[٣١٥] ، وهَبَّتْ الرِّيْحُ، فَسُقِيْنَا حتى كادَ الناسُ أنْ لا يَبْلُغُوا مَنازِلَهم "[٣١٦]

" مَلُوكُ البَجَاني كان مُجَابَ الدَّعوة ، أَتاهُ بعض جِيْرَتِه في عامِ مَسْغَبَة[٣١٧] يسألُه دَعْوَة ، فقال له: بِتُّ الليلةَ قال: فلمّا جَنَّ الليلَ سَمِعْتُه يقولُ بصوتٍ خَفِيٍّ: اللهم إنّ هذا أَتاني يَرْجو أنْ تكونَ لِي دعوةٌ مُجَابة، فتَقَبَّل اللهمَّ صالحَ الدُّعاء، وأَغِثْنَا بِغَيْثِ

---

[٣١١] لباس .
[٣١٢] القَيْدُ في العُنُقِ .
[٣١٣] أَتاه .
[٣١٤] ابن الجوزي ، صَفْوَة الصَّفْوَة ، ٢ / ٣٦٣ ـ ٣٦٤ .
[٣١٥] حديدة يَحْتَمي بهه المُقاتل عن العدو .
[٣١٦] سير أعلام النبلاء ، ٤ / ١٣٧ .
[٣١٧] مَجَاعة .

السماء ، يا مَن له الأسماءُ الحُسْنى، والصِّفاتُ العُليا. قال: فَمُطِرُوا بتلكَ الليلةِ ورُحِمُوا"[٣١٨]

" جَاءَتْ أَرْوَى بِنْتُ أَوْسٍ إِلَى أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَبْدِ الْمَلِكِ، إِنَّ سَعِيدَ بْنَ زَيْدٍ[٣١٩] قَدْ بَنَى ضَفِيرَةً[٣٢٠] فِي حَقِّي ، فَأْتِهِ فَكَلِّمْهُ أَنْ يَنْزِعَ[٣٢١] مِنْ حَقِّي، فَوَاللَّهِ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ لَأُصْبِحَنَّ بِهِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ لَهَا: لَا تُؤْذِي صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَمَا كَانَ لِيَظْلِمَكِ، وَمَا كَانَ لِيَأْخُذَ لَكِ حَقًّا، فَخَرَجَتْ فَجَاءَتْ عُمَارَةَ بْنَ عَمْرٍو ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَمَةَ ، فَقَالَتْ لَهُمَا: ائْتِيَا سَعِيدَ بْنَ زَيْدٍ ، فَإِنَّهُ ظَلَمَنِي وَبَنَى فِي حَقِّي، فَوَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَنْزِعْ لَأُصْبِحَنَّ بِهِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ،[٣٢٢] فَخَرَجَا حَتَّى أَتَيَاهُ فِي أَرْضِهِ بِالْعَقِيقِ[٣٢٣] ، فَقَالَ لَهُمَا: مَا أَتَى بِكُمَا؟ قَالَا: جَاءَتْنَا أَرْوَى بِنْتُ أَوْسٍ فَزَعَمَتْ أَنَّكَ بَنَيْتَ فِي حَقِّهَا، وَحَلَفَتْ بِاللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَنْزِعْ لَأُصْبِحَنَّ بِهِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَأَحْبَبْنَا أَنْ نَأْتِيَكَ وَنُذَكِّرُكَ. فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّ طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[٣٢٤] لَتَأْتِيَنَّ فَتَأْخُذَنَّ مَا كَانَ لَهَا مِنْ حَقٍّ، اللَّهُمَّ فَإِنْ كَانَتْ كَذَبَتْ عَلَيَّ فَلَا تُمِتْهَا حَتَّى تُعْمِيَ بَصَرَهَا، وَتَجْعَلَ مَنِيَّتَهَا فِيهَا، ارْجِعُوا فَأَخْبِرُوهَا ذَلِكَ قَالَ: فَجَاءَتْ فَهَدَمَتِ الضَّفِيرَةَ وَبَنَتْ بُنْيَانًا، فَلَمْ

---

[٣١٨] ابن بشكوال ، الصِّلَة في تاريخ أئمة الأندلس ، ص ٥٩١ .

[٣١٩] أَحَدُ المُبَشَّرين بالجنة .

[٣٢٠] جِدَار يبْنى فِي وَجه السَّيْل من حِجَارَة لِئَلَّا يدْخل مَاء السَّيْل الْعين فيفسدها " ، ابن قُتَيْبَة ، غريب الحديث ، ٣ / ٧٣١ .

[٣٢١] يَخْرُج .

[٣٢٢] لأَصيح به في المسجد أمامَ الناس أنّه ظَلمني !! .

[٣٢٣] وادٍ بالحِجَاز ، العين ، ١ / ٦٤ .

[٣٢٤] صحيح الإمام البخاري ، ١ / ١٠٧ رقم ٣١٩٨ ، وصحيح الإمام مُسْلِم ، ٢ / ١٢٣٠ رقم ١٦١٠ .

تَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى عَمِيَتْ، فَكَانَتْ تَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ وَمَعَهَا جَارِيَةٌ لَهَا تَقُودُهَا لِتُوقِظَ الْعُمَّالَ، فَقَامَتْ لَيْلَةً وَتَرَكَتِ الْجَارِيَةَ لَمْ تُوقِظْهَا ، فَخَرَجَتْ حَتَّى سَقَطَتْ فِي الْبِئْرِ فَأَصْبَحَتْ فِيهَا مَيِّتَةً "[٣٢٥]

نحنُ نَدْعُو الإِلَهَ في كلِّ كَرْبٍ ثم نَنْسَاهُ عندَ كَشْفِ الكُرُوبِ
كيف نَرْجُو إِجَابَـــةَ لِــدُعَاءٍ قَدْ سَدَدْنا طَرِيْقَهـا بالذُّنُــوبِ

و"سُؤالُ اللهِ حاجاتِك ، فتسْأله ما تَنتفع به ، وتَستعيذ به مِمَّا تَسْتَضِرُّ بِه ، كان هذا مِن أَعظم نِعَمِ اللهِ عليك "[٣٢٦].

[٣٢٥] مُسند الشَّاشِي ، ١ / ٢٥٤ رقم ٢٢٣ .
[٣٢٦] جامع المسائل ، ٩ / ٤٠٩ .

٤٥) حلاوة البلاء

" يُحْكَى عن امرأةٍ مِن العابدات ، أنّها عَثَرَتْ. فانْقَطَعتْ إِصْبعها. فَضَحِكَتْ. فقال لها بعضُ مَن مَعَها: أَتَضْحَكِينَ، وقدْ انْقَطَعَتْ إِصْبَعُكِ؟ فقالتْ: أُخاطِبُكَ على قَدْرِ عَقْلِكَ. حلاوةُ أَجْرِها أَنْسَتْنِي مَرَارةَ ذِكْرِها "[٣٢٧]

تَلَذُّ لِيَ الآلامُ إِذْ كُنْتَ مُسْقِمي ... وَإِنْ تَخْتَبِرني فَهْي عِنْدي صَنَائِعُ
تَحَكَّمْ بِمَا تَهْواهُ فِيَّ فإِنَّنِـي ... فَقِيْرٌ لِسُلْطَـانِ المَحَبَّـةِ طَائِـعُ

" النَّفْسُ لَا تَزْكُو وَتَصْلح حَتَّى تُمَحَّصَ بالبلاء كالذَّهَب الَّذِي لَا يَخْلُص جَيِّدُهُ مِن رَدِيْئِه حَتَّى يُفْتَنَ فِي كِيْر الامتحان ، إِذْ كَانَت النَّفس جاهلةً ظالمة ، وَهِي مَنْشَأُ كل شَرٍّ يَحْصُلُ للْعَبد ، فَلَا يَحْصُل لَهُ شَرٌّ إِلَّا مِنْهَا ، قَالَ تَعَالَى :" مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفسِكَ " وَقَالَ تَعَالَى : " أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُصِيبَة قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْتُم هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ " وَقَالَ تعالى :" وَمَا أَصَابَكُمْ مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيْكم وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ "[٣٢٨]

وما أجمل وأَرْوَعَ قول الله تعالى {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ} [آل عمران: ١٣٣-١٣٥] .

---

[٣٢٧] مدارج السالكين ، ٢/ ١٦٧ .
[٣٢٨] ابن القيم ، الفوائد ، ص ٢١٠ .

فأَخْبَرَ سبحانه عن صفات المتقين ، وأنَّهم يَقَعُ مِنهم ظُلْم النَّفْس والفاحشة ، لكنْ لا يُصِرُّون على ذلك "[٣٢٩]

" والمرضُ سِجْنُ اللهِ ، وكذلكَ سائر المصائب ، إذا رُزِقَ العبدُ فيها الإنابة ، حَصَلَ لِه مِن ذَوْقِ طَعْم الإيمان ، ووجود حلاوته ، ما لَمْ يَكُنْ ذَاقَهُ لاسِيَّما إنْ حَصَلَ مع ذلك نعيمٌ في بَدَنِهِ ومَسْكَنِه ، فيكون قد جَمَعَ نعيمَ الدِّيْنِ والدُّنيا "[٣٣٠]

يا مَن عذابِيَ عَذْبٌ في مَحَبَّته ..... لا أشْتَكِي مِنْكَ لا صَدّاً وَلا مَلَلا

واقرأْ أيها الحبيب هذه القصة بقلبِك ، وتأمَّلها بعقلك ، ثم انْظُر في حالك :" قال عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ : خَرَجْتُ إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مُرَابِطًا[٣٣١] وَكَانَ رَابِطُنَا يَوْمَئِذٍ عَرِيشَ مِصْرَ ، فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَى السَّاحِلِ، فَإِذَا أَنَا بِبَطِيحَةٍ[٣٣٢] وَفِي الْبَطِيحَةِ خيمةٌ فِيهَا رَجُلٌ قد ذَهبَتْ يَدَاهُ وَرِجْلَاهُ ، وَثَقُلَ سَمْعُهُ وبَصَرُهُ ، وَمَا لَهُ مِن جارحةٍ تَنْفَعهُ إِلَّا لِسَانه ، وَهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَحْمَدَكَ حَمْدَاً أُكَافِيءُ بِهِ شُكْرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ بِهَا عَلَيَّ ، وَفَضَّلْتَنِي على كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْتَ تَفْضِيلا ، فقلتُ : وَاللَّهِ لآتِيَنَّ هَذَا الرَّجُلَ ، وَلأَسْأَلَنَّهُ أَنَّى لَهُ هَذَا الْكَلامُ ، فَهْمٌ أم عِلْمٌ أم إِلْهَامٌ أُلْهِمَ ؟ ، فَأَتَيْتُ الرَّجُلَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ : سَمِعْتُكَ وَأَنْتَ تَقُولُ اللَّهُمَّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَحْمَدَكَ حَمْدَاً أُكَافِيءُ بِهِ شُكْرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ بِهَا عَلَيَّ ، وَفَضَّلْتَنِي على كَثِيرٍ من خَلَقْتَ تَفْضِيلا ، فَأَيُّ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْكَ تَحْمَدُهُ عَلَيْهَا ؟ ! وَأَيُّ فَضِيلَةٍ تَفَضَّلَ بِهَا عَلَيْكَ تَشْكُرُهُ عَلَيْهَا ؟! قَالَ : وَمَا تَرَى مَا صَنَعَ رَبِّي ؟ وَاللَّهِ ، لَوْ أَرْسَلَ السَّمَاءَ عَلَيَّ نَارًا فَأَحْرَقَتْنِي ، وَأَمَرَ

---

[٣٢٩] ابن القيم ، طريق الهجرتين وباب السَّعادَتين ، ص ١٩٩ .
[٣٣٠] جامع المسائل ، ٩ / ٤١١ .
[٣٣١] حارساً على الحدود مِن العدو .
[٣٣٢] أرض الوادي ، ابن مَنْظُور ، لسان العرب ، ٢/ ٤١٣ .

الْجِبَالَ فَدَمَّرَتْنِي ، وَأَمَرَ الْبِحَارَ فَغَرَّقَتْنِي ، وَأَمَرَ الأَرْضَ فَبَلَعَتْنِي ، مَا ازْدَدْتُ لِرَبِّي إِلا شُكْرًا لِمَا أَنْعَمَ عَلَيَّ مِنْ لِسَانِي هَذَا ، وَلَكِنْ يَا عَبْدَ اللَّهِ ، إِذْ أَتَيْتَنِي ، لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ ، تَرَانِي على أَيِّ حَالَةٍ أَنَا ، أَنَا لَسْتُ أَقْدِرُ لِنَفْسِي على ضُرٍّ وَلا نَفْعٍ ، وَلَقَدْ كَانَ مَعِيَ بُنَيٌّ لِي يَتَعَاهَدُنِي فِي وَقتِ صَلَاتِي فيُوَضِّيْنِي ، وَإِذَا جُعْتُ أَطْعَمَنِي ، وَإِذَا عَطِشْتُ سَقَانِي ، وَلَقَدْ فَقَدْتُهُ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ، فَتَحَسَّسْهُ لِي[٣٣٣] ـ رَحِمَكَ اللَّهُ ـ ، فَقُلْتُ : وَاللَّهِ مَا مَشَى خَلْقٌ فِي حَاجَةِ خَلْقٍ كَانَ أَعْظَمَ عِنْدَ اللَّهِ أَجْرًا مِمَّنْ يَمْشِي فِي حَاجَةِ مِثْلِكَ ، فَمَضَيْتُ فِي طَلَبِ الْغُلامِ ، فَمَا مَضَيْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ حَتَّى صِرْتُ بَيْنَ كُثْبَانٍ مِنَ الرَّمْلِ ، فَإِذَا أَنَا بِالْغُلامِ قَدِ افْتَرَسَهُ سَبُعٌ وَأَكَلَ لَحْمَهُ ، فَاسْتَرْجَعْتُ ، وَقُلْتُ : أَنَّى لِي وَجْهٌ رَقِيقٌ آتِيَ بِهِ الرَّجُلَ ، فَبَيْنَمَا أَنَا مُقْبِلٌ نَحْوَهُ[٣٣٤] إِذْ خَطَرَ على قَلْبِي ذِكْرُ أَيُّوبَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلامَ ، فَقَالَ : أَلَسْتَ بِصَاحِبِي ؟ ، قُلْتُ : بَلَى ، قَالَ : مَا فَعَلْتَ فِي حَاجَتِي ؟ ، فَقُلْتُ : أَنْتَ أَكْرَمُ على اللَّهِ أَمْ أَيُّوبُ النَّبِيُّ ؟ ، قَالَ : بَلْ أَيُّوبُ النَّبِيُّ ، قُلْتُ : هَلْ عَلِمْتَ مَا صَنَعَ بِهِ رَبُّهُ ؟ أَلَيْسَ قَدِ ابْتَلاهُ بِمَالِهِ وَآلِهِ وَوَلَدِهِ ، قَالَ : بَلَى ، قُلْتُ : فَكَيْفَ وَجَدَهُ ؟ قَالَ : وَجَدَهُ صَابِرًا شَاكِرًا حَامِدًا قُلْتُ : لَمْ يَرْضَ مِنْهُ ذَلِكَ حَتَّى أَوْحَشَ مِنْ أَقْرِبَائِهِ وَأَحِبَّائِهِ ، قَالَ : نَعَمْ ، قُلْتُ : فَكَيْفَ وَجَدَهُ رَبُّهُ ؟ قَالَ : وَجَدَهُ صَابِرًا شَاكِرًا حَامِدًا ، قُلْتُ : فَلَمْ يَرْضَ مِنْهُ بِذَلِكَ حَتَّى صَيَّرَهُ عَرَضًا لِمَارِّ الطَّرِيقِ ، هَلْ عَلِمْتَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قُلْتُ : فَكَيْفَ وَجَدَهُ رَبُّهُ ؟ قَالَ : صَابِرًا شَاكِرًا حَامِدًا ، أَوْجِزْ رَحِمَكَ اللَّهُ ، قُلْتُ لَهُ : إِنَّ الْغُلامَ الَّذِي أَرْسَلْتَنِي فِي طَلَبِهِ ، وَجَدْتُهُ بَيْنَ كُثْبَانِ الرَّمْلِ ، وَقَدِ افْتَرَسَهُ سَبُعٌ فَأَكَلَ لَحْمَهُ ، فَأَعْظَمَ اللَّهُ لَكَ الأَجْرَ ، وَأَلْهَمَكَ الصَّبْرَ ، فَقَالَ الْمُبْتَلَى ؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْلُقْ مِنْ ذُرِّيَّتِي

---

[٣٣٣] تَفقدْه وابحث عنه .

[٣٣٤] قادمٌ نحوه .

خَلْقًا يَعْصِيهِ فَيُعَذِّبَهُ بِالنَّارِ ، ثُمَّ اسْتَرْجَعَ وَشَهَقَ شَهْقَةً ، فَمَاتَ ، فَقُلْتُ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ عَظُمَتْ مُصِيبَتِي ، رَجُلٌ مِثْلُ هَذَا إِنْ تَرَكْتُهُ أَكَلَتْهُ السِّبَاعُ ، وَإِنْ قَعَدْتُ لَمْ أَقْدِرْ على ضُرٍّ وَلا نَفْعٍ ، فَسَجَّيْتُهُ[٣٣٥] بِشَمْلَةٍ[٣٣٦] كَانَتْ عَلَيْهِ ، وَقَعَدْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ بَاكِيًا ، فَبَيْنَمَا أَنَا قَاعِدٌ إِذْ جاءَ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ ، فَقَالُوا : يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا حَالُكَ وَمَا قِصَّتُكَ ؟ فَقَصَصْتُ عَلَيْهِمْ قِصَّتِي وَقِصَّتَهُ ، فَقَالُوا لِي : اكْشِفْ لَنَا عَنْ وَجْهِهِ ، فَعَسَى أَنْ نَعْرِفَهُ ، فَكَشَفْتُ عَنْ وَجْهِهِ ، فَانْكَبَّ الْقَوْمُ عَلَيْهِ يُقَبِّلُونَ عَيْنَيْهِ مَرَّةً ، وَيَدَيْهِ أُخْرَى ، وَيَقُولُونَ بِأَبِي عَيْنٌ طَالَ مَا غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ ، وَبِأَبِي وَجِسْمُهُ طَالَ مَا كُنْتَ سَاجِدًا وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، فَقُلْتُ مَنْ هَذَا يَرْحَمُكُمُ اللَّهُ ؟ فَقَالُوا هَذَا أَبُو قِلابَةَ الْجَرْمِي صَاحب عبد الله بن عَبَّاسٍ ، لَقَدْ كَانَ شَدِيدَ الْحُبِّ لِلَّهِ وَلِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَغَسَّلْنَاهُ وَكَفَّنَّاهُ بِأَثْوَابٍ كَانَتْ مَعَنَا ، وَصَلَّيْنَا عَلَيْهِ وَدَفَنَّاهُ ، فَانْصَرَفَ الْقَوْمُ وَانْصَرَفْتُ إِلَى رِبَاطِي ، فَلَمَّا أَنْ جَنَّ عَلَيَّ اللَّيْلُ[٣٣٧] ، وَضَعْتُ رَأْسِي ، فَرَأَيْتُهُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ ، فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ ، وَعَلَيْهِ حُلَّتَانِ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ ،[٣٣٨] وَهُوَ يَتْلُو الْوَحْيَ " سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ " فَقُلْتُ : أَلَسْتَ بِصَاحِبِي ؟ قَالَ : بَلَى ، قُلْتُ أَنَّى لَكَ هَذَا ، قَالَ : إِنَّ لِلَّهِ دَرَجَاتٍ لَا تُنَالُ إِلا بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلاءِ ، وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ ، مَعَ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي السِّرِّ وَالْعَلانِيَةِ "[٣٣٩]

على قَدْرِ فَضْلِ المَرْءِ تأْتِي خُطُوبُه ...ويُعْرَفُ عندَ الصَّبْرِ فِيْمَا يَنُوبُه

---

[٣٣٥] غَطَّيْتُه ، لسان العرب ، ١٤/٣٧١ .
[٣٣٦] كساء يُتَغَطّى بِهِ ويُتَلَفَّف فِيهِ ، لسان العرب ، ١/٣٦٩ .
[٣٣٧] أَظْلَمَ ، لسان العرب ، ١٣/٩٢ .
[٣٣٨] الحُلَّة : الثوبُ الجيد الجديد ، لسان العرب ، ١١/ ١٧٢ .
[٣٣٩] ابن حِبَّان الثقات ، ٥/ ٣ـ ٥ بتصرف ، والمُنْتَظم في تاريخ الملوك والأُمَم ، ٩/٦ ـ ٨ .

وعاقبةُ الصبرِ الجميلِ مِنَ الفَتَى ... إلى فَرَجٍ مِن ذِي الـــجَلالِ يُثِيْبُهُ
إذا المَرءُ لمْ يَسْحَبْ إلى الهول ذَيْلَهُ ... ولم تَعْتَرِك بالحــادِثاتِ جُنُوبُهُ
فقد خَسَّ في الدُّنيا ومن المالِ حَظُّهُ ... وقَلَّ مِن الأُخْرى لَعَمْرِي نَصِيْبُه

" والمصائب إذا اقْتَرَنَ بها طاعةُ اللهِ ، كانت مِن أَعْظم النِّعَم "[٣٤٠]

وتأمَّل ذلك في قول رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[٣٤١]

" فإذا كان العبدُ صَبَّاراً شَكُوراً ، فجميع ما يُصيبُه خيرٌ له ، والخير هو النِّعمة ، فالضراء مع الصبرِ نِعمة ، كما أنّ السراء مع الشكر نِعمة ، وذلك خيرٌ للعبد ، والذَّنبُ إذا حَصَلَ منه توبةٌ نَصُوحٌ ، كان المجموعُ مِن أعظم نِعَمِ اللهِ على العبدِ ، فاللهُ يُحِبُّ التَّوابين "[٣٤٢] .
" فالمصيبةُ تُوجِبُ قَطْعَ تَعلُّق قَلب العبد بالمخلوق ، إذا أَيِسَ مِن زَوَالِها بالمخلوق ، كالمرض الذي أَعْيَا الأَطباء ، والفقرُ الذي لَمْ يَرْجُ معه أَحداً يُزيله ، والخوف الذي ليس فيه نَصْرٌ لِمخلوق ، والنَّفْسُ تَطلبُ جَلْبَ المنفعة ، ودَفع المضرَّة مِن حيث ترجو ذلك ، ولو كان بِتَوهّمٍ وخيالٍ ، فبِهذا يَغْلبُ عليها الشِّرك أَوّلاً ، بِتَعَلُّقِها بِمَن تَرجوه لِجَلْبِ المنفعة ، كتحصيلِ الرزق أو لِدَفْعِ المَضرَّة ، كَقَهْرِ العدوّ ، بِمِثْلِ الأَصدقاء والأَقارب والجيران ، وكالملوك والولاة والقُضاة ، وقُبور الصالحين والأَنبياء .

---

[٣٤٠] جامع المسائل ، ٩ / ٣٨٣ .
[٣٤١] صحيح الإمام مُسْلِم ، ٤ / ٢٢٩٥ رقم ٢٩٩٩ .
[٣٤٢] جامع المسائل ، ٩ / ٣٨٣ ـ ٣٨٤ .

فإذا أَيِسَتْ مِن الخَلْقِ أَقْبَلَتْ على اللهِ ، فَدَعَتْ اللهَ مُخْلِصَةً له الدِّين"[٣٤٣]

[٣٤٣] جامع المسائل ، ٩ / ٤١٠ .

٤٦) النجاة مِن الفِتَن

إنّ " صاحبُ الصِّدْقِ مع اللهِ لا تَضَرُّهُ الفِتن "[٣٤٤]
" قال أبو محمد بن أَبي جَمْرَة : مَن كان صادقَ النيةِ ، لا يَقَعُ إلا في خيرٍ ولو قَصَدَ الشَّرَّ فإنّ اللهَ يَصْرفه عنه ، ولهذا قال بعضُ أهلِ المعرفة : مَن صَدَقَ مع الله ، وَقَاهُ اللهُ ، ومَن تَوكَّل على اللهِ كَفَاهُ اللهِ "[٣٤٥]

" الدَّاعِيَ إِلَى فِعْلِ الْمَعَاصِي قَدْ يَكُونُ قَوِيًّا، لَا صَبْرَ مَعَهُ لِلْعَبْدِ عَلَى الِامْتِنَاعِ مَعَ فِعْلِ الْمَعْصِيَةِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، فَيَحْتَاجُ الْكَفُّ عَنْهَا حِينَئِذٍ إِلَى مُجَاهَدَةٍ شَدِيدَةٍ، رُبَّمَا كَانَتْ أَشَقَّ عَلَى النُّفُوسِ مِنْ مُجَرَّدِ مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَةِ، وَلِهَذَا يُوجَدُ كَثِيرًا مِنْ يَجْتَهِدُ فَيَفْعَلُ الطَّاعَاتِ، وَلَا يَقْوَى عَلَى تَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ. وَقَدْ سُئِلَ عُمَرُ عَنْ قَوْمٍ يَشْتَهُونَ الْمَعْصِيَةَ وَلَا يَعْمَلُونَ بِهَا، فَقَالَ: أُولَئِكَ قَوْمٌ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ "[٣٤٦]

---

[٣٤٤] ابن حجر ، فتح الباري ، ٤٨٠/٦ .
[٣٤٥] فتح الباري ، ٦٠/٨ .
[٣٤٦] جامع العلوم والحِكَم ، ٢٥٤/١ ـ ٢٥٥ .

٤٧) الثبات على الحق

ما أروع قصة "الإمام الرَّباني محمد بن أحمد بن سهل الرملي النابلسي أفتى ضد الدولة العُبَيدية التي كانت تحارب الله ورسوله بقتالها ، فاستَدْعاه جوهر القائد وقال: أنت أَفْتَيتَ أنه إذا كان مع الرجل عشرة أسهم، وجَبَ أنْ يَرْمي في الرُّوم[٣٤٧] سَهماً، وفينا تِسعة.

فقال الإمام محمد : ما قلتُ هذا، بل قلتُ: إذا كان معه عشرة أَسْهُم، وجَبَ أنْ يَرْمِيَكُم بتسعةٍ، وأنْ يَرْمِي العاشرَ فيكم أيضاً، فإنَّكم غَيَّرْتُم المِلَّة، وقَتَلْتُم الصالحين، وادَّعَيْتُم نورَ الإلهية، فأمر القائد بضربه، ثم أَمَر يهودياً فسَلَخَهُ.سُلِخَ مِن مِفْرَقِ رَأْسِه حتى بَلَغَ الوَجه، فكان يَذْكُرُ اللهَ ويَصْبِرُ حتى بَلَغَ الصَّدْرَ فَرَحِمَه السَّلَّاخ ـ اليهودي ـ فَوكَزَهُ بالسكين مَوْضِع قَلْبِه فَقَضَى عليه "[٣٤٨].

فَيَاذَا العَرْشِ ثَبِّتْني وكُنْ لِي ... نَصِيرًا حَافِظًا ولِمَنْ دَعَا لِي
وحَقِّقْ فِيكَ آمَالِي وجُدْ لِي ... بِعِلْمٍ نَافِعٍ يَاذَ الجَلالِ
وصِلْ حَبْلي بِحَبْلِكَ واعْفُ عَنِّي ... جَمِيعَ السُّوءِ مِنْ كُلِّ الفِعَالِ
وصَلِّ اللهُ ما قَدْ صَابَ وَدْقٌ ... ولاَحَ البَرْقُ في ظُلَمِ اللَّيالِي
عَلَى المعْصُومِ أَحْمَدَ ذِي المعَالِي ... وأتباعٍ وأَصحابٍ وآلِ[٣٤٩]

---

[٣٤٧] النصارى .
[٣٤٨] الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ١٦/ ١٤٨ ـ ١٤٩ .
[٣٤٩] عبد العزيز السَّلْمان ، ٢ / ٤٣٨ .

٤٨) نَيْلُ شَفاعة النبي ﷺ

" الشَّفَاعَةُ: سَبَبُهَا تَوْحِيدُ اللَّهِ وَإِخْلَاصُ الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهَا لَهُ فَكُلُّ مَنْ كَانَ أَعْظَمَ إخْلَاصًا كَانَ أَحَقَّ بِالشَّفَاعَةِ كَمَا أَنَّهُ أَحَقُّ بِسَائِرِ أَنْوَاعِ الرَّحْمَةِ. فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ: مِنْ اللَّهِ مَبْدَؤُهَا وَعَلَى اللَّهِ تَمَامُهَا فَلَا يَشْفَعُ أَحَدٌ إلَّا بِإِذْنِهِ. وَهُوَ الَّذِي يَأْذَنُ لِلشَّافِعِ. وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ شَفَاعَتَهُ فِي الْمَشْفُوعِ لَهُ. وَإِنَّمَا الشَّفَاعَةُ سَبَبٌ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي بِهَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ يَرْحَمُ مِنْ عِبَادِهِ. وَأَحَقُّ النَّاسِ بِرَحْمَتِهِ: هُمْ أَهْلُ التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ فَكُلُّ مَنْ كَانَ أَكْمَلَ فِي تَحْقِيقِ إخْلَاصِ " لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ " عِلْمًا وَعَقِيدَةً وَعَمَلًا وَبَرَاءَةً وَمُوَالَاةً وَمُعَادَاةً: كَانَ أَحَقَّ بِالرَّحْمَةِ "[٣٥٠]

و" مَا يَحْصُلُ لِلْعَبْدِ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ مِنْ شَفَاعَةِ الرَّسُولِ وَغَيْرِهَا لَا يَحْصُلُ بِغَيْرِهِ مِنْ الْأَعْمَالِ ، فَبِحَسَبِ تَوْحِيدِ الْعَبْدِ لِلَّهِ وَإِخْلَاصِهِ دِينَهُ لِلَّهِ يَسْتَحِقُّ كَرَامَةَ الشَّفَاعَةِ وَغَيْرِهَا "[٣٥١]

---

[٣٥٠] مجموع الفتاوى ، ١٤ / ٤١٤ .

[٣٥١] مجموع الفتاوى ، ٢٧/ ٤٤٠ ـ ٤٤١ . باخت .صار

****

وختاما ـ أيها القاريء النَّجيب والأخ الحبيب ـ ، آمل أنْ تكون ارتفعت همتك ، وتحرك قلبك ، واشتقتَ أكثر ، للتتعلَّم كيفية الوصول إلى تعالى ، فتتعلّم التوحيد الذي تَسْعد به في دُنياكَ وأُخْرَاكَ ، فتنجو مِن عذاب الله تعالى في الدنيا والآخِرة .
وهذا ما سأُتْحِفُك به في الجزء القادم بإِذْنِ الله تعالى
سائلاً مولايَ التوفيق والسَّداد ، والإعانةَ والرَّشاد

أسعدَ اللهُ أوقاتَك بطاعته ، وقلبَك بِمَحبتِه ، ولِسانَك بِذِكْرِه ، والفوز بِجَنته ، والنجاة مِن نارِه ، ولَذَةَ رُؤْيته في جَنَته ، ومُرَافَقَة نبيه ﷺ في دارِ كَرَامَتِه.

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين .

أَمُوتُ وَيَبْقَى كل مَا قَدْ كَتَبْتُه ... فيا لَيْتَ مَن يَقْرَأ كِتابي دَعَا لِيَا

لَعَلَّ إِلهي يَعْفُ عَنِّي بِفَضْلِه ... وَيغْفر لي ذَنـــبي وَسُوءَ فَعَالِيَا

****

ما دعوة أنفع يا صاحبي ... من دعوة الغائب للغائب

ناشدتك الرحمن يا قارئاً ... أن تسأل الغفران للكاتب

مُحِبُكُم الدكتور : مَدْيَن بن جمال الصالح

المحتويات

بين يَدَي العسل... ..... ٤
(١ تَحقيق العُبُودية لله تعالى ٨
(٢ بناء الإخلاص لله تعالى ١٠
(٣ بِنَاءُ التَّوَكُلِ على اللهِ تعالى ١٥
(٤ التسليم لِحُكْمِ اللهِ تعالى ٢٨
٥) تعظيم هَدْي النبي صلى الله عليه وسلم ٢٩
(٦ حُصُول العَبْد على مَحْبة الله له ٣٢
(٧ دُخول الجَنَّة ٣٥
(٨ طَمأنينة القلب (الأمن النفسي) ٣٦
(٩ قوة الصبر ٤٠
(١٠ قوة اليقين بالله تعالى ٤٥
(١١ حُسْن الظَّن بالله تعالى ٥٠
(١٢ تحقيق الخوف مِن الله تعالى ٥٣
(١٣ تحَقيق الصِّدْق الداخلي والخارجي في النَّفْسِ ٥٥
(١٤ مُحَفِّز لِلإقْبال على الطاعات ٥٧
(١٥ الثباتُ على الاسْتقامة ٥٨
(١٦ غِنَى القلبِ بالرَّبِّ عن الخَلْقِ ٥٩
(١٧ حُصُول العِزَّة ٦٣
(١٨ الانكسار والافتقار لله تعالى ٦٦
(١٩ الأُنْس بِذِكْرالله تعالى ٧٧
(٢٠ حلاوة الطاعة ٨٠
(٢١ حِفْظُ العبد ٨٤
(٢٢ حُصُول النَّصْر ٨٦
(٢٣ الإقْبالُ على رِضى الحق والزُّهدُ في رِضى الخَلْق ٨٨
(٢٤ فتح أبواب الرزق والبركة في الرِّزْق ٨٩
٢٥) تحقيق الشُّكْر لله تعالى وعدم كُفْران النِّعمة ٩٠

(٢٦ مَغْفِرَةُ الذُّنُوب ٩١
(٢٧ الإحسان إلى الخلق في كل الأوقات (الحِرْصُ على نَفْعِ الخَلْق) ٩٣
(٢٨ قوة الحُجَّة والدَّليل ٩٥
(٢٩ حِمايةُ العبد مِن كَيْدِ الشيطان ١٠٦
(٣٠ حُصُول شَفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لك ١٠٧
(٣١ قوة العقل وكَمَاله ونُضْجِه ١٠٨
(٣٢ قوة نُور القلب وبَصيرته ١١٤
(٣٣ حُسْن الخُلُق ١١٥
(٣٤ رِضى العبد عن الله تعالى ١٢١
(٣٥ حُب الخير للناس ١٢٦
(٣٦ حُبُّ الناسِ للعبدِ ١٢٧
(٣٧ قوة الشخصية ١٢٨
٣٨) تُوفيق العبد للخَيْرَات ١٣٠
(٣٩ المُبادَرَة للتوبة وعدم التسويف ١٣٣
(٤٠ تفريج الكرب وإزالة الهَمّ ١٣٦
(٤١ الإقْبال على الآخِرة وعدم الرُّكُون إلى الدُّنيا ١٣٩
٤٢) تبصير العبد بعيوب نفسه ١٤٣
(٤٣ الإلْحَاح إلى الله تعالى بالدُّعاء ١٥١
(٤٤ استجابة الدعاء ١٥٥
(٤٥ حلاوة البلاء ١٦١
(٤٦ النجاة مِن الفِتَن ١٦٧
(٤٧ الثبات على الحق ١٦٨
(٤٨ نَيْلُ شَفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ١٦٩
(٤٩ ..... ١٦٩
المحتويات ١٧١